المفقود

رواية

21.5.2017

@ketab_n
Follow Me

كيم إكلين

ترجمة:
أماني لازار

دار ممدوح عدوان للنشر والتوزيع

كيم إكلين

المفقود

رواية

ترجمة: أماني لازار

Twitter: @ketab_n

المفقود

Twitter: @ketab_n

دار ممدوح عدوان للنشر والتوزيع

المفقود - رواية

The Disappeared

by: Kim Echlin

تأليف: كيم إكلين

ترجمة: أماني لازار

التدقيق اللغوي: عمر الخولي

الإخراج: فايز علام

تصميم الغلاف: فادي العساف

978 - 9933 - 540 - 12 - 8 :ISBN

الطبعة الأولى: 2016

دار ممدوح عدوان للنشر والتوزيع

سوريا - دمشق - ص ب: / 9838/

هاتف-فاكس: / 6133856/ 11 00963

جوال: 00971557195187

البريد الإلكتروني: addar@mamdouhadwan.net

الموقع الإلكتروني: addar.mamdouhadwan.net

twitter.com /AdwanPH   fb.com /Adwan.Publishing.House

Copyright© 2009 KIM ECHLIN. This edition published by arrangement with PENGUIN CANADA, a division of PENGUIN RANDOM HOUSE CANADA LIMITED.

جميع حقوق الترجمة العربية محفوظة للناشر دار ممدوح عدوان للنشر والتوزيع. لا يجوز نشر أي جزء من هذا الكتاب، أو اختزان مادته بطريقة الاسترجاع، أو نقله، على أي نحو أو بأية طريقة دون موافقة الناشر الخطية.

تمت ترجمة هذا الكتاب بمساعدة صندوق منحة الترجمة المقدمة من معرض الشارقة الدولي للكتاب

Twitter: @ketab_n

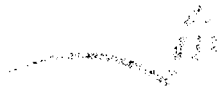

We acknowledge the support of the Canada Council
for the Arts for this translation.

Canada Council for the Arts
Conseil des arts du Canada

Twitter: @ketab_n

كانت السنة صفر[1] فجر العصر الذي سوف لن يكون فيه،
في النزع الأخير،
لا عائلات، أو عواطف، أو تعبير عن الحب أو الأسى،
لا أدوية، ولا مشافٍ،
لا مدارس، ولا كتب، ولا تعلُّم،
لا أعياد، ولا موسيقى:
فقط العمل والموت.

مجلة نيو انترناشيوناليست

1- مصطلح استخدمه الخمير الحمر عند استحواذهم على السلطة في كمبوديا في العام 1975، للإشارة إلى التغيير الثوري الذي سيشمل كمبوديا. وهو محاكاة لمصطلح السنة واحد الذي استعمل في الثورة الفرنسية.

Twitter: @ketab_n

إلى المرأة في السوق

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

أخبر الآخرين...

فان ناث

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

مونتريال

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

- 1 -

ماو رجل نحيل ذو ندبةٍ على خدِّه الأيسر. اخترتُه في السّوق الروسي من بين جمع السائقين ذوي العيون المتوسِّلة. إنهم يقودون الدرَّاجات الهوائية والتوك توك، عربات الريكاشة والدراجات النارية، ويملك بعضهم سيَّارات. كلهم اندفعوا أمامي محاولين لفت انتباهي كي يبعدوني عن الحشد.

كان الضوء في عيني ماو ثقباً في ورقة سوداء. خمَّنَ وحسبَ. اخترتُه لأنه عندما تقدَّم تراجع الآخرون. قلت له إنَّ الأمر قد يستغرق عدَّة ليال، وإنني أريد الذَّهاب إلى جميع النوادي الليلية في بنوم بنه. تضافر نور عينيه مع نور عيني. عندما حدَّثته عمَّا كنت أفعله، انفتح الثقب وانغلق على حُنوٍّ زائل. ثمَّ حدَّد أجره الذي كان باهظاً، وقال: «يمكنني مساعدتك، بورنج سري[1]».

شقَّت العظام طريقها إلى السَّطح. مرَّ ثلاثون عاماً منذ ذلك اليوم في سوق بنوم بنه. لا أزال أسمع صوتك. التقيتك أولاً في الحي القديم في مونتريال في حانة "لير دي تومب"، حيث ذهبت لأسمع بادي جاي يغني "لا يمكنني هجران البلوز". كنت في السَّادسة عشرة من عمري، في ليلة عيد الهالوين. لم تكن شارلوت وأصدقاؤها متنكِّرين، لكني استغللت

1- Borng srei: وتعني بالخميرية «الأخت الكبرى». تستعمل للتعبير عن الاحترام.

Twitter: @ketab_n

المناسبة لأخفي عمري بوضع قناع بعيون حمراء مشعَّة، مزيَّن عند الصدغين بريش أصفر وأرجواني. كان شعري الطويل المفتول مُرخىً، وارتديت سترة سوداء مقلَّمة، وأعرض بنطال جينز لدي، وجزمة جلدية. حالما عبرنا من البوَّابة، خلعتُ قناعي ورأيتك تنظر إليَّ. جلسنا إلى طاولة مستديرة قريبة من المنصَّة في غرفة مليئة بالدخان. كنت طوال الفقرة الأولى ألفُّ السجائر وأمرِّرها للفتيات الجالسات إلى طاولتي، وأستمع إلى بادي جاي وهو يتضرَّع بموسيقى البلوز، حاجباه مرفوعان، وعيونه مفتوحة على اتّساعها، يغنِّي "حجر مجنون" و"بلا كذب"، ثمَّ عصر عينيه المغلقتين وغنَّى عن حبٍّ فتاة قبيحة وعن تسوُّل الحب. لم أكفَّ عن إلقاء النظر لأرى ما إذا كنت تنظر إليَّ.

لم أتفادَ عينيك الداكنتين طينيتي اللون. وقفتَ بين الفقرات، رفعت كرسيَّك فوق رأسك ومشيت عبر الحشد نحوي. كنت نحيلاً وترتدي قميصاً أبيض وبنطال جينز باهت اللون، وشعرك الأسود معقودٌ إلى الخلف عند مؤخرة عنقك. كانت سترتك الجلدية بالية وحذاؤك الرياضي مهترئاً. انتقلت بشكل جانبي لتسمح بمرور عربة الأطباق، ثم سألت الفتيات الجالسات إلى طاولتي عن إمكانيَّة الانضمام إليهنَّ قائلاً: «لقد جلبت مقعدي».

تبادلت الفتيات النظر فيما بينهنَّ، وقالت إحداهنَّ: «نعم»، وضعت كرسيَّك بجانبي، مديراً ظهره إلى الطاولة. قالت شارلوت: «أنت تعزف في "نو إكست"، لقد رأيتك في الحانة. ما اسمك؟».

- «سيري».

سكبن لك البيرة من الإبريق وحدثتنا جميعاً بصوت رقيق. سألت: «ماذا تدرسن؟». عندما التفت إليَّ كان عليَّ أن أقول: «أنا لا أزال في المدرسة الثانوية». قالت شارلوت: «أنا معلِّمتها الخصوصيَّة. اسمها

Twitter: @ketab_n

آن جريفز». سألت: «هل اللغة اللاتينية صعبة؟». أعجبت بك فتاة في الجهة الأخرى من الطاولة وقالت: «أنا أدرس اللاتينية». قلت إنك تُدرِّس الرياضيات في الجامعة، وإنك رأيتهنَّ في الأرجاء، لكن لم ترني.

قالت شارلوت: «يدرِّس والدها هناك ولا تحبُّ أن تُرى».

ابتسمتَ ثانية وكان في سنِّك الأمامية كسرة هلالية الشكل، وقلت: «جميل»، بلكنة غريبة كيبيكية وإنكليزية وفيها شيء آخر لم أستطع تحديده.

أُطفئِت أضواء المسرح. انحنيت مقترباً وهمست: «أودُّ أن أمسَّ شعرك».

لم أرفض ولم أقبل، لكني شعرت بضغط راحة يدك الدافئة على جمجمتي. ثمَّ وضعت مرفقيك على ظهر كرسيك.

تحدثت بمزيج كنت أعهده عند الرجال من الاهتمام والسهو. ومضت عيناك المنفعلتان نحو المنصَّة، نحو الطاولة التي قدمت منها، نحوي. أردت أن تعرف من كان يراقبك. أردت أن ترى بادي جاي والأبواق والغيتارات في المقدمة. أردت أن تراقبني.

قلت بعد سنوات: «أتذكر مراقبتي لك وأنت تلفِّين السجائر بيد واحدة. تتململين عندما تتحدَّث الفتيات الجالسات إلى طاولتك. بدوتِ حرَّةً للغاية. أتذكَّر الضوء في شعرك».

في ذلك الأوان كان الشبَّان من كلِّ مكان يقودون سيارات الفوكس فاجن عبر جبال أفغانستان وينشدون في المعتكفات الهندية. لكنَّ الفتية أمثالك لم يكونوا هيبيين أو معارضين للحرب أو رحَّالة، كان الفتية المستعمَرون أمثالك يُرسَلون دوماً إلى الخارج للدراسة. تغيَّبت لمدَّة ستِّ سنوات وتعلمت كي تعود إلى الوطن متقناً ثلاث لغات، لتتبحَّر في عادات وخصال الغرب. درست الرياضيَّات وموسيقى الروك. عرفت التَّوابع والعلاقات، وغنَّى أصدقاؤك الموسيقيون ضدَّ الحرب وكان لديهم

Twitter: @ketab_n

حبٌّ أكبر للسلام. كان زمناً يؤمن فيه الشبَّان بأنَّ العالم يمكن أن يكون بلا حدود مثل الموسيقى. كلُّ هذا كان ساذجاً بالنظر إلى الوراء. كنتَ تكبرني بخمس سنوات، وتحدَّثت بلغة لم أسمع بها من قبل. وكان هناك ذلك الشعور الحيواني، رائحة سترتك الجلدية، القشعريرة في معدتي، صوت بادي جاي وأنفاسك في أذني.

قلتَ بعد سنوات: «هل تذكرين في تلك الأيَّام، خشية الرجل الآسيوي من فتاة بيضاء، أو الأسود من البيضاء، أو الفرنسي من الإنكليزية، نتظاهر جميعنا بأنه لم يكن هناك محرَّمات؟ لم أمتلك الشجاعة يوماً لأتقرَّب من فتاة بيضاء قبلك، تلك الليلة في "لير دي تومب"».

خرج بادي جاي لأداء الفقرة الأخيرة مرتدياً سترة خضراء خلعها وهو يعزف، يدقُّ ويشدُّ ويلوي الأوتار بيسراه وهو يهزُّ ذراعه اليمنى الطليقة، يعزف على الأوتار بأصابع يمناه فاستطاع أن ينفض الكمَّ الأيسر. سقطت سترته على الأرض، وكشَّر لنا عندما صفَّقنا لتهريجه. تُوفِّيت أمُّه تلك السنة وقال إنه ينوي شراء غيتار منقَّط على شرفها لكنه لم يحصل عليه بعد. عزف أصواتاً سمعها في أماكن أخرى وأوقات أخرى، أبواق وكمنجات، يُعد مزيج نيو أورليانز، القليل من هذا، والقليل من ذاك، مبدياً تقديراً لمودي وب ب. وجونيور. ثمَّ شرع في أعماله الخاصَّة. غنَّى عن بلوز ارحمنا يا الله في "غرفة كوخ ريفي" وحب ضجر في "فقط أعزف على آلتي الموسيقية"، غنَّى بتلك الابتسامة الساحرة العريضة العظيمة "لدى ماري حمل صغير"، وعن طلب نيكل من ملاك وعن مشاعرَ غريبةٍ وقلوبٍ محطَّمة، وبهزَّة من رأسه، عن امرأة لم يتمكَّن من إرضائها، لكننا جميعنا نعرف أنه يستطيع إرضاء الجميع، وتمنَّيت ألا تنار الأضواء أبداً. أحطت كتفي بذراعك القوية وقرَّبتني منك وسألت بصوت غاية في الرقَّة: «هل يمكنني أن أوصلك إلى البيت؟». كان بعض الناس يرقصون على

Twitter: @ketab_n

الجوانب، فأخذت بيدي وجذبتني للرقص أيضاً، وتأرجحت بوركيك، لكنَّ طريقتك في تحريك يديك لم تكن تشبه الروك أند رول ولا البلوز، بل انحناءة رشيقة إلى الخلف من رسغك عند نهاية ضربة الإيقاع.

كانت شارلوت والفتيات اللواتي يجلسن إلى طاولتي يرتدين معاطفهنَّ، ويحملن الحقائب على أكتافهنَّ، ينترن شعورهنَّ من داخل الياقات الدافئة كما تنتر القمصان من على حبل الغسيل، وقلت لهنَّ: «إلى اللقاء».

مشينا شمالاً على شوارعَ مرصوفةٍ بالحصى في هواء الخريف البارد. قلتَ: «هل تحبِّين أن تأتي لرؤية فرقتي؟».

قلت: «ربَّما. من أين أنت؟».

- «كمبوديا».

عبر بنا محتفلون بالهالوين، يضحكون وينادي أحدهم الآخر بعامية فرنسية كندية، مسرعين عبر الظلمة ومتدثِّرين بلفاعات سوداء وأقنعة شيطانية الشكل وأجنحة ملائكة.

«كمبوديا؟»، جذبت قناع عيني للأسفل.

لمست الريش وقلت: «آن جريفز، أحبُّ هذا المكان. الأشياء حرَّة هنا بما لا يُصدَّق».

عرفت منذ تلك التوصيلة الأولى إلى البيت.

خارج شقة والدي في جادة دي بارك استدرت لمواجهتك، وجذبتك إلى أسفل الدرج الحديدي. وضعت شفتيك على شفتي، أتذكَّر عينيك من خلال ثقبي قناعي ولمسة يدك على جمجمتي. جذبتني إليك وشعرت بلمسة أصابعك الأولى على جلدي. خلال حاجز الدرج الشبكي أحسست بحركة صبي من الجوار يحمل سلَّته من الهالوين، يتطلَّع بنا من خلال

Twitter: @ketab_n

الظلال، يأكل سكاكرَ على شكل قبلة. نظرت إليه وقلت: «جان ميشيل، لماذا لست في سريرك؟». ثمَّ نظرت إليك وقلتُ: «آه أيها الفانون التعساء، آه أيتها الأرض البائسة[1]». ضحكتَ وأفلتني، وقلت: «أريد أن أرى العالم بأسره». ومددت يدك إلى الأعلى كما لو أنك تنوي أن تستلَّ الحلوى من الصبي. ثمَّ التحقنا بالطفل على الدرج، وأخرجت قطعة خيط من جيبك وعرضت عليه خدعة. كنا نحن، منفي، وصبيٌّ صغير وفتاة-امرأة تقريباً، معاً في الظلمة. ما زلت أسمع صوتك يغنِّي أغنية بادي جاي "لقد وجدت حبّاً حقيقياً"، وأتذكَّر كيف جلسنا تلك الليلة وشاهدنا السحب تتدحرج أمام القمر.

1- مطلع قصيدة «كارثة لشبونة» لفولتير.

Twitter: @ketab_n

- 2 -

كان أبي رجلاً طويل القامة، ضخم الجثَّة، شعره كثيف، تخفي ابتسامةٌ حييةٌ طبيعته المسيَّرة. صحبني إلى الكنيسة البروتستانتية في صغري. لا أظنُّ أنه كان مؤمناً ولكنه أحبَّ أن يكون كذلك. كان ينزلق في مقعد الكنيسة، يغلق عينيه، يخفض رأسه ويمسك بقمَّة أنفه بين إصبعي الإبهام والوسطى في يمناه.

رأيت من مراقبتي له في هذه الطريقة في الصلاة، رجلاً مفضوحاً ومكشوفاً، يحاول أن يكون مع إلهه. كان يوجد على جدار غرفة الأطفال في القبو صورةٌ ممزَّقةٌ من مجلَّة لمسيح طويل القامة بعينين رقيقتين، واقفاً أمام نعجتين وحمار، يلفُّ طفلين بذراعيه. كانت أكتاف هذا المسيح محنية قليلاً، وله ابتسامة خجولة مثل ابتسامة أبي.

شكوت مرَّة لأبي كوني يتيمة الأم. قال: «هناك أمور لا يمكننا تغييرها. المرء يتعلَّم هذا: انهض، لا تكفَّ عن المحاولة، وستجد طريقك».

أصغيت، ومع ذلك تقتُ إلى الحنان. أردته أن يقول: «سأساعدك». لكن لم يفعل. قال: «فكِّري في نفسك على أنك جوهرة نفيسة فريدة في تاج الملك، حجر الفلاسفة».

سألت: «لمَ لا يمكنني أن أكون الجوهرة في تاجي أنا؟».

Twitter: @ketab_n

ضحك حينها، ضحكته الدانماركية الكبيرة. سرَّيت عنه عندما تصرَّفت مثله تقريباً، عازمة، صعبة المراس، ولم أكن يوماً خائفة من تحرُّري، أمر أنسبه إلى وفاة أمِّي المبكِّرة.

كانت طالبة في واحد من صفوف والدي. يكبرها ستّاً بخمسة عشر عاماً وكنتُ ثمرة علاقتهما في الأصائل المتأخِّرة. في التلاشي المبهم لضوء أصيل مونتريال البارد الذي يدفع الغرباء إلى اللقيا. تركت أمِّي المدرسة لترعاني، لكن عندما كنت في الثانية من عمري، دهستْ شاحنةٌ سيَّارتها على طريق متجمِّد. وظَّف أبي مدبِّرة منزل فرنسية -كندية تدعى بيرث جاجنون لتقوم على رعايتي. ضحكت بيرث بيسر، نظرت إليَّ بعينين مُحبَّتين وملأت الفراغ الذي خلَّفته والدتي. قيل لي إنني بعد وقت قصير لم أفتقد أمِّي، لكن أبي افتقدها. لم يكن مهتمّاً بالحياة العائلية. ذهبت بيرث إلى اجتماعات المدرِّسين وأخذتني إلى تدريب فرقة الإنشاد وشاهدت مبارياتي الرياضية.

لم يكن لدى أبي وقت للعب. لقد نشأ فقيراً ومُجِدّاً وطموحاً، الابن الوحيد لعائلة صيَّاد سمك دانماركي مهاجر تُوفِّي في البحر عند "غراند بانكس"[1] عندما كان أبي صبيّاً.

أحبَّ أبي أن يقول: «الحرب أعطت صبيّاً فقيراً مثلي فرصة أن يتعلَّم».

كان صانع أدوات وقوالب وكان عليه أن يتوسَّل للانضمام إلى سلاح البحرية لأنهم احتاجوا إلى مهاراته في الوطن. عندما تمكَّن من الدخول في الجندية، كانت الحرب قد انتهت. لكنه كان محظوظاً. عمل بلباسه الرسمي بأزراره الذهبية الجميلة ورفع المراسي لتحصيل علم بحَّار محنَّك. درس الهندسة واختصَّ في الجراحة الترقيعية الطبية.

1- منطقة صيد هامة على المحيط الأطلسي.

Twitter: @ketab_n

لم أستغرب ندرة تواجده في البيت. لم يُمض أيٌّ من الآباء الذين أعرفهم وقتاً طويلاً في البيت في سنوات إعادة الإعمار تلك بعد الحرب. أحبَّ أبي وتيرته المعتادة، الصباحات في المختبر، الأصائل في التدريس، المساءات في القراءة. أمضى مع أمي سنتين فقط. أتخيَّلهما في حالة المتزوِّجين حديثاً تلك، كلٌّ واحد لا يزال يحاول إرضاء الآخر. أتخيَّلها تسحره بشبابها وحيوَّيتها. بعد وفاتها كان بابا يقرأ لي ليلاً عندما يصل إلى البيت باكراً ويصحبني إلى الصيد كلَّ صيف مدَّة أسبوع. علَّمني أسماء جميع العظام في الجسم البشري وتعلَّمت أن ألقيها. علَّمني أن أستذكر التصاريف اللاتينية، *amo. amas. amat.* والصلاة الربيَّة باللاتينية، *pater noster qui es in caelis*. قال إنَّ اللغة اللاتينية تدل على عقل مهذَّب. تعلَّمت الصلوات لكن لم أتعلَّم أن أصلي. تعلَّمت أن أقول أحبُّك بلغة دعاها أبي بالميتة.

وهو يقرأ لي، كان ينظر أحياناً إلى صورة أمِّي بالأبيض والأسود على طاولتي الجانبية. التركيز خافتٌ على امرأة شابة تحمل طفلة، أنا، وعينانا معلَّقتان ببعضهما البعض. كان صوت بابا ينساق بعيداً، وتعلَّمت أن أنتظر بهدوء إلى أن يرفرف انتباهه عائداً من الصورة إلى الصفحة. أظنُّ أني بدأت أقرأ بهذه الطريقة، متفحِّصةً الكلمات في كتاب مفتوح، أنتظر امتلاء الغياب.

لا أتذكَّر أمِّي بوضوح. هناك صورة لها ولأبي يقفان خلف رجل ثلج على الجبل. يلفُّ خصرها بذراعيه وعيناها تضحكان وشفتاها الممتلئتان تفترَّان عن ابتسامة عريضة جامحة. الطقس بارد لكنها لا تعتمر قبعة. شعرها مرسل وطويل وتنسفه الريح. شعري مفتول مثل شعرها، تشوبه خصل ذهبية. أتذكَّر استلقائي على ظهري في غرفة الجلوس ورائحة القطن الدافئ تحت مكواتها في المطبخ. وأتذكَّر ثقباً أسودَ في الأرض

Twitter: @ketab_n

الباردة. أتذكر زهرة سوسن في يدي، بتلاتها البيضاء شاحبة بصورة شاذَّة، أطلق عليها أحدهم اسم "دموع حواء". كان من المفترض أن أرميها على النعش. أتذكر كيف نظرت إلى الأسفل وكنت فزعةً من عمق ثلم الأرض وحدوده القاسية.

هذا أمر مؤكَّد: الزمن ليس بشافٍ.

أتذكَّر أجزاء، شذرات من ضوء متحرِّك على جدار شتائي.

صحبتني بيرث للاستماع إلى إيتا جيمس في نادي البلوز في شارع لورنت، في ليلة كان أبي فيها خارج البيت. قالت: «لا يمكنهم أن يروني أدخلك لكن عندما تصبحين في الداخل أنا أعرف الشاب، سيسمح لك بالبقاء. *Alors, mon p'tit chou*[1]، ستدخلين مع مشترياتي».

سحبت عربتها ذات العجلتين الخاصة بالبقالة، كيسها المصنوع من نسيج مربَّع النقش مرفق إلى الهيكل. على بعد شارع عن النادي، ساعدتني كي أدخلها، وطوت منشفة أطباق فوق رأسي ورفعتني درجتين عبر الباب.

كان لإيتا شعر إفريقي أشقر ووجه على شكل قلب وتلك الحواجب الضخمة المصبوغة بالأسود، وعندما غنَّتْ كنت واثقة من أنَّ عينيها كانتا تغوصان في عينيَّ. غنَّتْ عن فتيات كفيفات وكانت شفتاها حزينتين، ولاذعتين أيضاً. عرفتُ أنها بكتْ مثلي من مكان خفي، وأنا أستمع إلى غنائها الأشبه بالحديث عن الخيانات والتماسات الحبِّ الملحمية، وغصتُ في حضن بيرث الدافئ، ذراعاها حولي، الرائحة الخشبية للصابون المصنوع من خشب الصنوبر في بشرتها. فهمت تلك الليلة لماذا كان الصوت أوَّلاً في العالم، قبل الضوء أو الماء أيضاً.

أُرسلتْ بيرث منذ سنٍّ صغيرة جداً إلى العمل كخادمة في منزل

1- لذلك يا ملفوفتي الصغيرة (بالفرنسية).

Twitter: @ketab_n

يتحدَّث أصحابه بالإنكليزية في ويستماونت. نظرت إلى فنِّهم واستمعت إلى موسيقاهم في أثناء عملها في التنظيف. قالت لي: «إنَّ تعلُّم الإنكليزية والاستماع إلى راي تشارلز وروبرت جونسون كان يفوق المال القليل الذي حصلتُ عليه هناك قيمةً».

في أيَّامي الأخيرة في مدرسة الآنستين إدجار وكرامب، كنتُ أنا وبيرث نستلقي على الأرض معاً ننظر إلى الصور على أغلفة تسجيلاتها الطويلة، ونستمع إلى صرير بلوز دلتا المسيسيبي وصوت إيتا العميق كالمحيط تغنِّي متضرِّعة: "قل لماما" و"أحد لطيف للحب".

صرف والدي بيرث عندما بلغت الثالثة عشرة من عمري لأنه قال إنني لم أعد في حاجة إليها بعد الآن. ترقَّبتْ ذلك، ومع وقت مغادرتها كانت قد علَّمتني الطبخ، وغسل ملابسي وتأدية واجباتي المدرسية. بعد المدرسة اختفى ضوء الشتاء النحيل في ظلمة مبكِّرة في شقَّتنا الموحشة.

كنت أجلس متدثِّرة بلحاف كبير، أقرأ تحت مصباح ذي سجفٍ مكسور، خسوف قمر الغرفة. حاولت أن ألفت انتباه بابا بجعل شعري المشعَّث يزداد جموحاً، بارتداء أضيق بناطيل الجينز، وبأن أكون أذكى فتيات صفِّي. اشتريت نظَّارات خاصَّة بكبار السنِّ ذات إطار سلكي لم تؤثِّر في بصري سلباً أو إيجاباً. قلت له إنني ذاهبة لزيارة الأصدقاء وتسلَّلت إلى نوادي البلوز، إلى أن أوقفني ذات ليلة مالك نادي "ليتل هول إن ذا وول" في الطرف الشمالي عندما كنت أحاول التسلُّل إلى الداخل لأستمع إلى ويلي ديكسون يغنِّي "أنا لست خرافياً". جلبني البوَّاب إلى مكتب المدير واتَّصل بوالدي ليأتي ويأخذني. ركنَ بابا السيارة، ومرَّ ببائعي المخدرات والعاهرات ومحبي البلوز نحو المكتب، حيث كنتُ أتفحَّص صور الموسيقيين الموقَّعة في أطر خشبية رخيصة معلَّقة على جدار المدير. في

Twitter: @ketab_n

طريق العودة إلى البيت قلت له إنه لم يكن من العدل منعي من الدخول، كنت أركب المترو لسنوات، وأستمع إلى البلوز لسنوات، أومأ بطريقة محايدة دون أن يرفع عينيه عن الطريق وقال: «ستتمكّنين من ذلك بعد وقت قصير».

أردت أن يقول لي: «سأصحبك. سأستمع إلى الموسيقى معك».

وظّف شارلوت، واحدة من طلابه، لترشدني في تعلُّم اللغة اللاتينية، وكفرصة استغلَّها أبي، كانت تحبُّ البلوز أيضاً وبدأت تصحبني برفقتها. كنت ببغاء صفراء وخضراء هاربة محاطة بسرب من عصافير الدوري البرية. أطبقت شارلوت وأصدقاؤها عليَّ، يصطفُّون في طابور للدخول إلى النوادي، مخفين هذا المخلوق المكسو بريش زاهي الألوان الذي يدفعهم على نحو خطر. ولوقت طويل شعرت بأنها كانت طريقة مرضية للنمو.

Twitter: @ketab_n

- 3 -

كان الثلج في الشتاء الذي التقيتك فيه أزرق دوماً. أتيت لتُقلّني بدرَّاجتك الهارلي القديمة عند الغسق، عند نهاية أيّامي الرتيبة في مدرسة الآنستين إدجار وكرامب. كانت الفتيات هناك يتحدَّثنَ بالإنكليزية فقط، ولم يكن مسموحاً أبداً أن ترافقني ليلاً. كنَّ فتيات عطوفات دعونني إلى تمضية العطل الأسبوعية معهنَّ لأني أعطيتهنَّ السجائر وحدَّثتهنَّ عن النوادي. شغَّلتُ لهنَّ تسجيلات لإيتا وب.ب في غرف نومهنَّ المفروشة بقماش الشيت الملوَّن مع أقمشة وأسِرَّة مظلَّلة ورفوف من الدمى والخزف الصيني. اصطحبنا أهلهنَّ إلى مطعم الريتز لتناول وجبات فطور متأخِّر. لكن بعد أن التقيتك، لم أحتمل الانتظار حتى انتهاء أيّام الدراسة لأراك تنحني على درَّاجتك بسترتك الجلدية الرثَّة تنتظرني. كنت دوماً أوَّل من يخرج من الباب، وأحببت عيون الفتيات الحاسدة تثقب ظهري.

تأرجحتُ على درَّاجتك النارية وأحطتُ خصركَ بذراعي وانطلقنا نحو حانة "يلو دور"، أصغينا إلى موسيقى شعبية وشربنا القهوة من أكواب سميكة، وفتحت كتبي وأدَّيت وظائفي وصحَّحتَ صفحات الرياضيات. ذات مساء انزلقت عجلة درَّاجتك الخلفية على قطعة من الجليد الأسود. تدهورتُ ووقعت عنها واستقررت على كتفي الأيسر. قفزت وترجَّلت منتصباً ورفعتني بسرعة، ثمَّ سوَّيت الدرَّاجة ودفعناها معاً إلى جانب

Twitter: @ketab_n

الطريق، حيث نفضنا أنفسنا مثل زوج من الجراء. كان جسدانا خفيفين للغاية. أي شيء يمكن أن يقذفنا بعنف في الهواء، يستلُّ واحدنا من الآخر، رقعة ثلج، شذرة من حظ سيئ. عدنا إلى الدرَّاجة في تلك الليلة الزلقة وواصلنا الصعود على الجبل لننظر إلى أضواء المدينة، نحو النهر لنشاهد السفن.

ما تقاسمناه كان بسيطاً للغاية. أتذكَّر التفكير، أنا يقظة للغاية.

دخلت في وقت متأخِّر وقال والدي: «اتصلت المدرسة. قالوا إنه يأخذك كلَّ يوم مؤخَّراً. هو يكبرك كثيراً».

تململت: «ليس حقَّاً. الأولاد من عمري يبعثون فيَّ الملل. أنت لم تمانع أبداً عندما ذهبت مع شارلوت. هي أكبر سناً».

«معلِّمتك»، قال. «هذا مختلف».

«أوه»، قلت. «لأنك اخترتها؟».

عاينني أبي بعض الوقت. شابت لحيته. التفت وقال: «هل رأيتِ نظَّارتي؟». نهض عن كرسي القراءة ومشى نحو طاولة المطبخ.

قلت: «إنها على رأسك».

رفع يده اليمنى ليعيدها على أنفه ورأيت ابتسامته الخجولة المحبوبة. جلس ثانية في كرسيه ونظر إليَّ من فوق النظَّارة وقال: «لا تزالين تعيشين تحت هذا السقف. عليك أن تصغي إلى ما أقول».

لم يتجادل أبي معي يوماً عندما كنت طفلة. قد يقول بذهول: «اذهبي واسألي بيرث». لكن فيما مضى، عندما لم أكن لأذهب إلى السرير كان يقول: «حسناً إذاً. تعالي واجلسي معي. سأريك كم عظمةً توجد في القدم».

أتذكَّر رقَّته تلك الليلة، تتبع أصابعه القوية خطوط عضلات وعظام قدمي الصغيرة، مصغية إلى الدهشة الناعمة في صوته. قال: «لم يستطع

Twitter: @ketab_n

أحد يوماً على مطابقة المشية البشرية. كل ما في وسعنا فعله حقاً هو إبقاء الشخص منتصباً».

لم يتنبَّأ أبي بما كان سيحلُّ بي نتيجة العيش مع انقياده. أبي، حبيبي، لم يتوقَّف يوماً عن الإيمان بأنه قد يخسر كلَّ شيء في أيَّة لحظة، لعنة الفقر. كنتُ مهدَّدة بأن أطرد من المدرسة، بعدم النجاح، وعدم الزواج أيضاً. أظنه خال بأنه لو عمل بجدٍّ بما فيه الكفاية يمكنني أن أجبل مثل عضو آلي. كان يخشى من تمرُّدي في عمر السادسة عشرة.

قلت: «هو لا يكبرني كثيراً. أنت لا تعرفني حتى».

قال: «لا أحد يتحدَّث إليَّ بهذه الطريقة. متى أصبحت بهذه الفظاظة؟ اذهبي إلى غرفتك. اغربي عن وجهي».

لم تكن لديَّ أمٌّ لألجأ إليها، وما تعلَّمته منها كان ملحاً. كان ما تعلمَّته من أمِّي أنَّ هؤلاء الذين نحبُّهم في وسعهم أن يختفوا فجأة، بشكل غامض. ومن ثمَّ لا شيء.

Twitter: @ketab_n

- 4 -

لقد كنت وسيماً للغاية في قميصك الأبيض، تتحدَّث باللغتين الإنكليزية والفرنسية مع أعضاء فرقتك. كنت في الطليعة وكان هناك ثلاثة آخرون، لوك على الدرامز، وأخوان من ويستماونت، راي على الإيقاع ومارك على الأرغن الكهربائي من نوع "هاموند". عزفتم مقطوعات لسانتانا ولفريق البيتلز، مازجين إيَّاها مع أغاني جونيور ويلز وبادي جاي. جلست في آخر القاعة وشاهدت الفتيات يراقبنك في الغرفة. عندما طلب مني أحد الفتيان الرقصَ هززتُ رأسي بالرفض وقالت شارلوت: «أنا سأراقصك»، وانساقت بعيداً معه. حضنت أوتار ذلك الغيتار الرخيص ولاطفتها وتخيَّلت ذراعيك تطوِّقانني. في نهاية الفقرة الأولى نزلت عن المنصة وجلست معي وأحببت أنظار الجميع عليَّ أيضاً. ارتديت بنطال جينز أسود وكان جسدك مفعماً بالطاقة وكان مرآك برفقتي يثيرك. قبل أن تعود إلى الفقرة الأخيرة اتكأت على كرسيي وقلت: «أنا ذاهب لأعزف لك شيئاً».

على المنصَّة أخرجت غيتار خمير مزدوج الأوتار طويل العنق ملفوفاً بقطعة قماش زاهية اللون. جلست مصالباً ساقيك على مقعد وبسطت جسد الآلة المدور على حضنك. أمعنت النظر في الحشد وتنذَّرت: «أنا واحد من سبعة عشر شخصاً تقريباً من الخمير في مونتريال». ضحك الناس

Twitter: @ketab_n

ضحكاً خافتاً ردّاً على ابتسامتك الظريفة. جذبت الميكروفون إلى أسفل أمام الأوتار، قلت: «لكن أنتم عالقون معي. هذا يسمى تشابي[1]، وسوف نعزف أغنية لسين سيساموث اسمها "لا تدع رفيقتي تدغدغني"». عزفت لحناً قصيراً عذباً، الجلد المتصلِّب القاسي على كلِّ إصبع من أصابع يدك اليسرى يضغط ويحرِّر وينزلق على الأوتار فوق النتوءات العظمية، يدك اليمنى مرسلة، تنبسط لتنقر النوتات. عزفت الفرقة عشرين أغنية ضاربة من موسيقى الفانك الإلكترونية على الغيتار وآلة التشابي والأرغن، وغنَّيت أغاني روك آند رول عنيفة وأغاني سايكدليك روك التي تركتها في بنوم بنه. انفرجت أساريرك حول كلمات الخمير، وانزلق صوتك في سُلَّم النغمة الخامسة وأنت تكرِّر إيقاع روك بسيطاً بجسدك وبالغت في أدائه.

كنتَ فتى آسيوياً ساحراً للجماهير وطريفاً برفقة صديقة شابة بيضاء، وغنَّيت بصوت الغريب العميق الجهير الرائع. كانت النساء الشابات مشدودات إلى كآبة وعظمة منفاك، وهمست لي شارلوت: «انظري ذلك الفتى هناك، إنه فارٌّ من الخدمة العسكرية. لقد انزعج من صديقك الجديد». كانت كلُّ العيون في الغرفة مصوَّبةً نحوك. أردتُ ماضياً غريباً أيضاً. عزفتَ نسختك من "امرأة سوداء ساحرة" بلغة نصفها إنكليزي ونصفها الآخر خميري[2]، ثمَّ وضعتَ التشابي جانباً ووقفت ورفعت يديك وصفَّقت لتحثَّ الجمهور على الحركة وقلت: «هذه أغنية "سيِّدة تدعى لا"»، وغنَّيت بالخميرية دور كلٍّ من الرجل والمرأة في صوت رفيع عالي الطبقة، ولم يعرف أحد معنى الكلمات لكننا سمعنا في صوتك المثير محاكاة للالتماس والامتناع. كان الناس يرقصون ويتمايلون ويحبُّونك. قلتَ في نهاية الفقرة: «هذه أغنية بلوز كتبتها بالخميرية تدعى "حبيبي

1- آلة وترية من كمبوديا.
2- لغة الخمير، وهي اللغة الرسمية في كمبوديا.

Twitter: @ketab_n

قصب السكَّر"». كانت الكلمات شيئاً مثل: "لا يمكنني الحصول على ما فيه الكفاية من حلاوتك، أنا مجرَّد فتى يقشِّر ويمصُّ قصب السكَّر الأبيض".

ضحك الناس وعرفت بأنك بدوت ساحراً وأنت تتحدَّث بالخميرية وبفرنسية لها نبرة البلوز الإنكليزي ونظرت باحثاً بين الجمهور عني وقلت: «سأعزف من أجل فيزنا الموجودة هنا الليلة».

توقفت عن الهزل، تناولت آلتك التشابي، وغنَّيت أغنية شعبية عذبة بصوتٍ أجشَّ، كانت أغنية حب، وكانت المرَّة الأولى التي أسمع فيها كلمات أون ساملان. في النهاية قالت شارلوت: «عليَّ أن أختفي من هنا. أظنُّ أنه معجب بك».

هذا كان جديداً، رجل يُخبِّئ مشاعره نحوي في أغنية.

اختفى الناس في ليل المدينة، تركوا الكراسي الفارغة مطوية بزوايا غريبة عند طاولات تفوح منها رائحة البيرة. انتظرتك في العتبة واستنشقت الهواء النظيف البارد. بعض الفتيات انتظرن بينما كانت الفرقة تحزم آلاتها، تلفُّ الأسلاك، وتفصل السمَّاعات. وقفت بحيث يشعُّ ضوء مصباح الشارع في شعري، وعندما أتيتَ إليَّ حاملاً آلتي التشابي والغيتار كنت لا تزال تحت تأثير وقوفك على المسرح. وضعت الغيتار لكنك حملت آلة التشابي. لففت ذراعيك حولي من الخلف وسألتني: «هل أحببت أغنيتك؟».

سألتُ: «من تكون فيزنا؟».

– «فيزنا تعني قدري. اللحن تهويدة كانت تغنِّيها لي أمِّي، لكني وضعت لها كلمات جديدة من أجلك».

لم أشعر أبداً بأن للعِرق أو اللغة أو القانون أي حرمة. كان كلُّ شيء

Twitter: @ketab_n

إحساساً غريزياً وموسيقى. كنت صليبي، عذابي، وولادتي الجديدة. أحببت عينيك، الالتماس الحنون في صوتك في أثناء الغناء.

بعد أن تركتني تحت الدرج تلك الليلة ركضت ودخلت من الباب الرئيس ولم أرغب في أن أضع حدَّاً لتأثيرك الساحر عليَّ، لكن أبي نادى من سريره: «أنت تمضين الكثير من الوقت معه. تعالي به ليقابلني أصيل يوم الأحد». لم أجب. لا يحبُّ الناس اعتبار الحبِّ معاناة قاسية لكني أعرف الآن، بعد ثلاثين سنة، بأنه إذا ما كان الشخص قويَّاً بما فيه الكفاية كي يقع في الحب فلن يحتاج إلا ولادة جديدة.

مشينا بحذاء الباب الرئيس نحو مدخل الموسيقيين في شارع فرانسوا إكزافييه، ضحك المدير عندما رآنا معاً وقال: «هيه، اهتديتما الواحد إلى الآخر». قدَّم لنا لفافة حشيش ووقفنا معاً ننظر إلى الرصيف. لا يزال في وسعي أن أرى وجه المدير، مكسوَّاً بالبثور وشاحباً، وأظافره المدبوغة بالنيكوتين. قال لك: «أصغيت إلى موسيقى التشابي تلك التي قدمتها لي. إنه بلوز، يا رجل. اجلب واحداً من هؤلاء الرجال إلى هنا وسأجعله يقدم عرضاً».

في الداخل، جلس رجلان مسنَّان في القاعة، وتمكَّنَّا من اجتيازهما بصعوبة، ووجدنا طاولة قريبة من المنصَّة. نفثت فتيات جامعيات نحيلات دون حمالات الصدر دخاناً في هواء البيرة البائتة وامتلأ المكان. كان الناس مستثارين تلك الليلة، ينتظرون. شحبت أضواء المسرح وشكَّل اثنان منها هالة صغيرة فوق كرسيين خشبيين. عبر رجل مُسنٌّ من الخلف بين شتات الطاولات نحو المنصَّة. حمل رجل مُسنٌّ آخر طرف قميصه وخطا خلفه متثاقلاً. قلتَ بتبجيل: «ها هما هناك».

الرجلان المسِنَّان عند الباب. كان أحدهما شبه كفيف، والآخر أعرج.

Twitter: @ketab_n

راقبتهما يجلسان، يضبطان الميكروفونين الفضِّيين، يشكو الواحد إلى الآخر، التقط أحدهما غيتاراً، والآخر هارمونيكا، ومع طرقات من حذاءٍ قاسٍ على الأرض المكسوَّة بألواح خشبية، هواء عبر معدن وخشب، أصابع على أوتار مدوزنة وصوت يصرخ بالغناء، هوو يي هوو يي، تحوَّل الرجلان القاسيان إلى إلهين رشيقين من آلهة البلوز بألسنة ذهبية يعزفان لمتعبِّديهما، يعانقان ويحطِّمان القلوب في تلك الغرفة، ورأيت كيف يمضي العالم بغير عيون.

مسَّ كتفي كتفك، متأثرة بما سمعته في تلك الليلة، التلاعب بالإيقاع، صوت مفكَّك وجملة غنائية مكرَّرة، حديث ونكات وشتائم بين اليدين اليسرى واليمنى، بين الأوتار والقيثار، ضحكات فظَّة وتأوُّهات الحبِّ، وسمعت أشياء لم أعرفها بعدُ لكن سأعرفها، قصص المهانة والمشاجرات والإغواء وليال مضت على نحو سيِّئ، ونساء يبكين على الرجال، ورجال تائهون ووحيدون. موسيقى ملحمية عظيمة، مولد الجنس وضربات الشرطة ونتن البيرة البائتة في بارات مظلمة بعيدة عن كنائس المدن.

غادرنا النادي مع ساعات الصباح الأولى. تنازُع سوني وبراوني الحنون على المنصة بذر فيَّ فكرة عمَّا يحدث عندما يعيش الناس معاً مدى العمر، مشاكسة أنيسة، سيَّارات منفصلة، أَسِرَّة منفصلة في غرف منفصلة، لكن على المنصَّة محادثة غنائية، تدقُّ قدماهما على الألواح نفسها وتسمع أذناهما الإيقاعات نفسها.

قلتَ: «ليس لدي رغبة في الذهاب إلى البيت الآن».

ركبنا درَّاجتك نحو النهر الكبير. نجوم ومياه وليل. نحو ضفَّة النهر، تلفُّنا العتمة. قدتَني على طول الرصيف حيث رست المراكب في مزالقَ ضيِّقةٍ وقفزنا على الرصيف نحو مركب شراعي يدعى روزاليند. أخرجت

Twitter: @ketab_n

مفتاحاً صغيراً من جيب بنطالك الجينز وفتحت باب المقصورة. تبعتك على ثلاث درجات نحو قادسٍ صغير وفتحت باب خزانة وأخرجت صندوقاً من شموع عائمة. قلت: «في الوطن تسمى سامبيز بريه خي، الليلة التي نبتهل فيها للقمر. تشعل جدَّتي دوماً مئة شمعة وترسلها على النهر الأسود».

- «لماذا؟».

* «على شرف النهر وبوذا».

ناولتني علبة أعواد ثقاب وأشعلتها معك، واحدةً فواحدة. أرسلنا الشمعتين التاسعة والتسعين والمئة معاً وراقبنا ألسنة النار الصغيرة المتتابعة تنجرف بعيداً. قلتَ: «أخبرتْني جدَّتي إنَّ الشبَّان في الأيام الغابرة كانوا يفعلون هذا ويصلُّون للحبِّ».

داخل المركب الشراعي من خلال نافذةٍ بلا ستارة، راقبت السحب تتحرَّك عبر قمر آفل. ثمَّ التفتُّ إليك. صالبت ذراعيك وخلعت قميصك الأبيض من فوق رأسك. أتذكَّر خطوط بدنك مفتول العضلات. في الخارج، أجنحة وأقدام طيور على سطح الماء ورياح الخريف تهبُّ والماء يحضن بدن السفينة. أي شخص يسير على طول النهر قد يرى مئة ضوء عائم لكنه لن يرى أيَّ ضوء على الإطلاق من داخل روزاليند. أتذكَّر التقاط الأنفاس، وشعوراً لم تعترف لي به امرأة، وأنين رجل. أتذكَّر عينيك اللتين لم تفارقا عينيَّ أبداً. أتذكَّر خشونة الجلد المتصلِّب لأصابع يدك اليسرى على جلدي، وأتذكَّر كم كنت متمهِّلاً. كانت بدايات شهر تشرين الثاني في ليلة سمَّيتها "بون أوم توك"[1]. لم أكن أعرف أنه سيكون هناك دماء.

بعدئذٍ، تسلَّلنا نحو الرصيف عاريين. قفزنا في الماء المتجمِّد تندُّ

---

1 - Bon Om Touk: مهرجان الماء الكمبودي.

Twitter: @ketab_n

عنا صرخات صغيرة وخرجنا ضاحكين نحاول التقاط أنفاسنا. ثمَّ تدثَّرنا بأغطية قديمة، وعندما ارتجفتُ ناولتني ملابسي وانزلقت في ملابسك ونشَّفنا شعرنا وقلت: «انظري». كانت شموعنا لا تزال مشتعلة ويجرفها التيَّار البطيء، تختفي في الظلمة حيث يلتقي النهر بالبحر.

انضغط جسدي على ظهرك، وذراعي حول صدرك، وإحدى يديك على يدي ونحن عائدان إلى البيت تلك الليلة، وخدِّي يرتاح على سترتك الجلدية. لم أذهب إلى سريري في منزل والدي، بل معك إلى شقَّتك في شارع بلوري. خلال الساعات التي سبقت الصباح أحببتك ثانية في غرفتك الصفراء الدافئة، ذبت فيك، واقفين ومستلقيين، قلباً لقلب، جسدانا حرارة ذهبية وثلج ذائب. أصابعنا مثل أجنحة صغيرة مرسومة فوق همسات بعضنا البعض طوال تلك الليلة الأولى، الليلة الأولى في الحياة.

* «ما هذه الندبة على صدغك؟». سألتُ ممرِّرةً شفتيَّ على قوسها.

– «وقعت على صخرة في سراس سرانج عندما كنت أعلِّم أخي اصطياد الضفادع قرب البحيرة. وهكذا كسرت سنِّي. أحبُّ طريقتك في الكلام. قولي لي اسمك ثانية».

* «حبيبي يدعوني فيزنا»، قلتُ. «هل تحبُّ الاسم الذي منحني إياه حبيبي؟».

– «أحبُّك باسم أو بدونه، آن جريفز».

تتبعت شكل الكسرة الهلالية على سنك وهمست: «أحبُّ اسم سيري».

«إنه يعني الحرِّية»، قلتَ وجذبتني إليك مجدَّداً. «يعني القوَّة والجمال والسحر. هل تحبِّين الاسم الذي اختاره لي والداي؟».

أحببت شدَّة ذراعيك لكني دفعتك بعيداً، أتظاهر بأني أصارعك،

Twitter: @ketab_n

وسألت: «كل ذلك؟ هل يعني عاشقاً جيِّداً أيضاً؟». بدوتَ متفاجئاً، ثمَّ قلت بابتسامتك الساحرة: «عاشق مثالي».

كنت تقول إنَّ امرأة لم تغوِك قبلي أبداً. كنت محبوباً وبكر والديك. أحببت حتى غرورك لأني الآن عرفتك عارياً وغير حصين. أحببتك على المنصَّة وأحببتك تمشي بقربي. لكنك كنت أكثر صدقاً في السرير. عند الفجر حلمت بعاشقة يعرف جسدها أشياء تجهلها. فقدت صوتي وكنا في مطعم يدعى كورت هاوس، وكنت أناديك لكنك لم تتمكَّن من سماعي. كان والدي حاضراً في مكان ما على حواف الحلم. أيقظتني ولاطفت شعري وقلت: «أنت تنادين باسمي. لا تقلقي، أون ساملان، سأكون دوماً هنا».

المحيط له مذاق واحد وهو مالح. صدَّقت جسدك لكني عرفت أنَّ هذه الكلمات لم تكن حقيقية.

Twitter: @ketab_n

- 5 -

- «بماذا تفسِّرين ما حدث؟».

* «لا شيء».

- «لا شيء؟».

وضع بابا كتابه جانباً ونظر إليَّ. ثمَّ قال بلطف: «أحبَّتْ أمُّك ارتداء ملابسي بداية تعارفنا».

ترتدي الفتاة ملابس حبيبها لأنها تحبُّ رائحته وهي ترتدي ملابسه لأنها تحاول أن تفهم سبب إحساسها بكلِّ من الانعتاق والتحطُّم. لماذا شعرتْ بكلِّ هذا عندما منحت جسدها، عقلها وقلبها؟ لمَ لمْ يغرها الهرب؟ أرادت أن تشمَّ رائحة حبيبها على جلدها، ولم تتمكَّن من تفهُّم هذا الشعور الذي يحاصرها ويحرِّرها. هي لم تتوقَّع أنها ستتذكَّر ارتداءها ملابس حبيبها عندما تكبر. تقول لنفسها إنَّ ما تشعر به أبدي، لكنها لاحظت بالفعل أنه ليس كذلك.

ابتعدتُ عن والدي لأذهب إلى غرفتي، لأنفرد بنفسي وأشمَّ رائحة قميصك، لكنه قال لي بغرابة: «أما زلت تحبينني؟».

- «بالتأكيد أحبُّك، أنت والدي».

* «إذاً اسمعيني. هو لا يناسبك».

Twitter: @ketab_n

خلع بابا نظّارات القراءة ومسحها بكمّه وقال: «أمُّك لم تتسكَّع، ولم تكن تلفت نظر الناس. جيراننا يتحدَّثون. أمُّك وجدت سبلاً غير ملحوظة للحصول على ما تريد».

أجبتُ بقسوة حميمة: «مثل اليوم الذي حملت فيه من أستاذها وغادرت المدرسة. مثل اليوم الذي تركت فيه طفلتها وانطلقت بعيداً في عاصفة ثلجية ولم تعد أبداً».

أعرف أمراً واحداً ربما أرادته أمِّي من أجلي، رغبتها في أن أعيش. كانت الصورة الفوتوغرافية بجانب سريري تتغيَّر، لم تعد تبدو عينا المرأة ذات الاثنين والعشرين ربيعاً، المعلَّقتين بعيني طفلتها، رؤومةً بل محاصرة. أردت أن أمنحها السنوات التي ضيَّعتها. عرفت أن من التقط لها الصورة تركها أيّاماً طوالاً بمفردها، جلس يقرأ مساءات طويلة بنظّارته ذات العدسات النصفية ولم يرفع عينيه. شعرت بشبحها يستحثُّني: «عيشي، عيشي من أجلي، اذهبي، عيشي، الحياة تنتهي بأية لحظة، عيشي، كوني حرَّة».

ماما، لقد عشت. ولدت ابنتي الوحيدة ميتة. (لقد استغرقت ثلاثين عاماً لتتملَّكني هذه المقاطع اللفظية الثمانية.) حاولت. حتى بعد كمبوديا. ماما، لقد حاولت أن أعيش.

Twitter: @ketab_n

- 6 -

جلس بابا إلى طاولة المطبخ لكنه لم ينهض عند دخولكَ. وقفت تنتظر ليطلب إليك الجلوس.

قال بابا: «ماذا تدرس؟».

- «الرياضيات. أنا مدرِّس. أريد أن أدرِّس».

* «هل يعجبك المكان هنا؟».

- «ليس لديَّ من خيار. بلدي مغلق».

وضعتَ ذراعك حول خصري.

تملَّصت منك، ذهبت إلى المنضدة، وصلتُ الغلاية بالمأخذ وجلبتُ ثلاثة أكواب إلى الطاولة.

أومأ بابا نحو كرسي: «هيَّا. اجلس».

قلتَ لبابا: «أخبرتني آن إنك تصمِّم أطرافاً صناعية».

* «أدرِّس في كلية الهندسة. نحن نعمل على ساق جديدة الآن، مع الربيع، سيتمكَّن شاب أبتر الساق من تعلُّم الركض بها».

كان عليك أن تطلب منه أن يخبرك المزيد. تصغي إليه. تعبِّر عن إعجابك به. لكان تحدَّث وسُعدَ وتغاضى عن سنِّك وعرقك وفقرك. لكنك قلت: «نحتاج في بلدي إلى سيقان كي يستطيع الناس المشي عليها فقط. في بلادي يمشي الناس على أوتاد خشبية».

Twitter: @ketab_n

قال بابا: «متى ستعود؟».

قلتَ متململاً: «حدودنا مغلقة. لا شيء يدخل. لا شيء يخرج. لا أحد يعلم متى ستُفتح الحدود».

نظر بابا إليك بهيبة: «نعم، قرأت عن ذلك. كان أبي مهاجراً. صيَّاد سمك أتى إلى هنا وهو لا يملك في جيبه شيئاً».

كان بابا يتجاهلني وكنت عبوساً، ولبرهة أحسست بالكره تجاهكما.

قلت: «أنا لست بمهاجر. أنا منفي. لم أختر البقاء هنا. لكن ما من مكان آخر أذهب إليه. بلدي هو روحي».

تراجع بابا عن الطاولة وقال: «على الشخص أن يكون ممتنّاً للعيش في مكان ما».

وقفَ وقالَ لي بحاجبين مرفوعين: «لديَّ بعض الأعمال عليَّ إنهاؤها».

وأومأ لك بشكل مقتضب: «سررتُ بمعرفتك».

جلست. فناجيننا فارغة والماء لم يغلِ بعد. قال بابا: «لا تعوِّلي على الأمر بهذه الطريقة. هو لن يكون مقبولاً أبداً هنا. منذ أن تُوفِّيتْ أمُّك فعلتُ كلَّ شيء من أجلك. يجب أن تصغي إليَّ».

بابا لم يسمعك تغنِّي. لم يشعر بلمستك. هو لم يعرف رقَّتك.

قلتُ: «بابا، هو يدرِّس الآن في الجامعة».

قال أبي: «مدرِّس! سيتركك ويعود إلى وطنه. لا خير من رجل يرفض أن يكون ممتنّاً لملاذه. إنه يكبرك كثيراً. وبأية حال لا يهمُّ من يكون، أنتِ تغيَّرتِ منذ أن التقيت ذلك الفتى».

لن أكون نفسي ثانية. كنت أغرق فيك. لن أكفَّ عن العودة إليك. يستحيل ألا أفعل.

Twitter: @ketab_n

- 7 -

بعد المرَّة الأولى، لم نعد نرتاح. كنا كل يوم نبتكر طرقاً لنكون وحدنا خلف الباب المغلق في شارع بلوري. أقللتني من المدرسة وذهبنا مباشرة إلى غرفتك الصفراء. شغَّلت تسجيلات لروس سريسثا وبان رون، وأصغيت إلى مغنٍّ يعزف على آلة التشابي يدعى كونج ناي. استمعت إلى أغاني الروكابيلي[1] بالخميرية وموسيقى السيرف والسول، وإلى غيتارات رباعية وثنائية الأوتار، وأورغنات كهربائية من نوع "فارفيزا"، وطبول الروك، وكلمات لم أفهمها. أدَّيت وظائفي على طاولة مطبخك، أدندن ألحاناً كمبودية تحت صورة عائلتك المثبَّتة على الجدار، وتناولتُ معك الأرز. مكثت طوال الليل. أتيت وذهبت على هواي وأرهقت والدي. أقسم وهدَّدني بأن يحبسني في غرفتي. لكن كان الأوان قد فات على ذلك. وعندما أنهك نفسه قال: «أنت صعبة المراس. حتى عندما كنت طفلة لم أتمكَّن من فعل شيء إزاءه. أنت حمقاء وستدمِّرين حياتك».

لكنَّ الفتاة تدرك مع حبِّها الأوَّل أنه ما من ابنة لا تخون الأب، هناك فقط أمواج هائلة متكسِّرة من امرأة آتية، تجمع وتبني وتكسر وتخبط الشاطئ. راقبت جسدي يتورَّم ويتألَّم ويتدفَّق ويتقلَّص كما يراقب بحَّار

---

1 – Rockabilly: من أقدم أساليب موسيقى الروك آند رول.

Twitter: @ketab_n

تغيُّر سطح الأمواج. تركتك تفعل أيَّ شيء. فعلتُ كلَّ ما أردته وصارت الملاءات المتَّسخة في شارع بلوري عالمي.

السبت الذي أتذكَّره، الثلج ينهمر خفيفاً خارج النافذة في غسق نصف مضيء، كنا في سريرك. وددنا أن ندخِّن بصمت، نمرِّر السيجارة جيئة وذهاباً، ننظر في عيون بعضنا البعض، نستكشف معرفتنا الخفيفة لأنفسنا. ضغطت بلطف على الجمرة المتبقِّية محولاً إياها إلى رماد بين إبهامك وسبابتك الطويلة ورميتها في فنجان. ثمَّ بسطت ساقيك على قمَّة مفرش السرير القطني الهندي الأرجواني والأصفر المنقوش، ورفعت ذراعك لأستند عليك. معاً راقبنا الثلج المتساقط الآن أسطع وأبطأ تجاه السماء الضاربة إلى السواد، وقلت: «أظنُّ أن في وسعي أن أشمَّ رائحة أمِّي». وقلتَ بلين: «كانت أمِّي تصنع الأرز الدبق ملفوفاً بأوراق لي ولأخي لنصطاد الضفادع. اصطدناها على شاطئ البحيرة قرب معبد سراس سرانج. علَّمني جدِّي كيف أصنع قرابينَ من الأوراق عندما كان النهر يغيِّر اتجاهه».

ضحكت: «يغيِّر اتجاهه؟».

* «يتدفَّق تونلي ساب نحو الجنوب، ثمَّ يتحوَّل ويتدفَّق نحو الشمال عندما يذوب الثلج في جبال الهيملايا. أي عندما نحتفل بمهرجان النهر، وعندما يغيِّر اتجاهه. نقيم سباقاً للمراكب وألعاباً نارية».

- «وترسلون شموعاً على النهر؟».

* «ويرمي الأولاد الألعاب النارية على الناس».

ابتسمت وأنت تنظر في قمع الذكرى القاتم ذاك وقلت: «كنت وأخي، سوخا، نرمي ألعاباً نارية مشتعلة على العشَّاق من الأشجار».

لم يكن هناك أحد تسأله كيف يمكن أن تغلق حدود بلد. أريتني

Twitter: @ketab_n

الرسائل التي كتبتها وحيداً في غرفتك الصفراء. أرسلتها إلى "الصليب الأحمر" في مخيَّمات اللاجئين على حدود تايلاندا وإلى المفوضية العليا للأمم المتَّحدة. قرأنا كتاب "السنة صفر" لكاهن فرنسي يدعى بونشو. وصفَ أناساً يدفعون أسِرَّة في المستشفى، نساءً تلد في الخنادق، كسيحاً من دون أيدٍ ولا أقدام يتلوَّى على الأرض مثل دودة مقطوعة ليخرج من بنوم بنه. تقيَّأتَ في المرحاض وفتحت الكتاب من بدايته ثانية وقرأت طوال الليل، تبحث عن معلومات عن عائلتك. في الصباح قلت: «ماذا لو كان أفراد عائلتي موتى؟ ماذا لو لم أتمكَّن من العودة أبداً؟». عندما مشينا على شارع القدِّيسة كاثرين لوَّحت بيدك في الهواء وقلت: «هل سيصدِّق سكَّان مونتريال بأنَّ في وسع الجنود اعتقال أيِّ شخص؟».

حدَّثتك عن القنابل التي اخترقت سوق البورصة والقنابل في صناديق البريد ومنزل العمدة، ورجال مخطوفين، وسياسيين تركوا ليختنقوا في شاحنة طوال سبعة أيام. أخبرتك كيف أوقفت الشرطة بابا توقيفاً تعسُّفياً فقط لأنه درَّس في الجامعة. إرهاب إجرامي. إرهاب شرطة. جبهة تحرير الكيبيك[1]. اغتاظ أبي، ألا يرون إلى أين يقود العنف؟ حاضر لصفوفه، العنف يحول الناس إلى أشياء. قالت معلِّمتي في المدرسة: «إذاً ماذا نفعل، ندع الإرهابيِّين يسيطرون؟».

- «حتَّى هنا؟».

* «ولمَ قد يكون الأمر مختلفاً هنا؟».

راقبنا عربة بعجلتين عابرة، نفث الحصان الثقيل سحابة بيضاء في الهواء البارد. سألتني: «لمَ أوقفوا والدكِ؟».

---

1 - De libération du Québec: مجموعة شبه عسكرية انفصالية في الكيبيك تم تأسيسها بداية الستينيات.

Twitter: @ketab_n

* «اتَّهموه بمعرفة كيفيَّة صناعة القنابل. قال للشرطة: أنا أصنع السيقان والأذرع للناس الذين فقدوها بالقنابل. حتى أنه لم يكن يتحدث الفرنسية. مكثت بيرث معي وكنت خائفة من أني لن أراه ثانية لكنهم أفرجوا عنه بعد يومين. أتذكَّر شحوب وجهه في الليلة التي عاد فيها إلى البيت. لم يكن غاضباً أبداً. عانقني وهمس: كنت خائفاً جداً».

اشترينا عدد يوم الأحد من صحيفتَيْ "النيويورك تايمز" و"النوفيل أوبسرفاتور". أخذنا الصحف إلى شوارتز وأمام باب محل بيع الأطعمة المعلَّبة جلس رجل كفيف بساقين مشوَّهتين مثل ضفدع، قدمه مبسوطة إلى الخلف على قطعة من الورق المقوَّى. عندما سمعنا نقترب قال: «أنا سآخذكما إلى هوليوود»، ورميت قطعة نقدية في صحنه البلاستيكي. أكلنا في الداخل فطيرة الجبن وشربنا القهوة. أفادت الصحف عن وقوع مجزرة في بلادك. تتبعت بإصبعك على ورق الصحيفة وقلت: «أحياناً يكتبون عن ملايين الموتى وأحياناً يكتبون الآلاف. ألا يعرفون؟ كيف يمكنهم أن يناموا ليلاً بسلام زاعمين أنهم كتبوا الوقائع في حين أنهم لا يعلمون؟».

Twitter: @ketab_n

- 8 -

في صورة عائلتك الفوتوغرافية الصغيرة بالأبيض والأسود، المثبّتة فوق طاولة المطبخ، كنت في السادسة عشرة من عمرك وأخوك سوخا في الثامنة. كنت أطول قامة من والدك الذي ارتدى نظّارة قديمة الطراز. طالعت فكّه القاسي ورأيت بذور كبريائك. كانت إحدى يديك خلف ظهر أمّك، لكن أيدي الآخرين جميعاً تدلّت إلى جانبهم بشكل رسمي. كان لوجه أمّك الصافي الشكل الزاهد لأمٍّ لها أبناء. جلست جدّتك الفيتنامية في الوسط على كرسيٍّ عاديٍّ وأقدامها على الأرض، كُل شيء في زوايا قائمة مثل لوحة مصرية.

قلت: «كانت أمّي في الرابعة عشرة من عمرها عندما خطبت وتزوّجت وهربت بعيداً عن أمٍّ والدي. لكن أبي كان يحبها كثيراً حقّاً، فعندما غادرت في المرّة الثانية تبعها وهربا معاً من العائلتين وتعاهدا بأن يعملا ويجدا طريقة لشراء منزلهما الخاص أو سيُغرقان نفسيهما في نهر التونلي ساب».

سألتك: «لمَ يبدو أخوك الصغير في غاية الجدّية؟».

ضحكت وقلت: «كان غاضباً مني ذلك اليوم. طلب مني السماح له بالعزف في فرقتي لكني قلت له إنه لا يزال صغيراً جدّاً، طلبت منه أن ينظّف غرفتنا ثمَّ سأسمح له بالانضمام. كان يفترض أن أقصَّ شعري لأنهم يقولون هناك إن الشعر الطويل يعني رجلاً يخفي شيئاً. لذا طلبت

Twitter: @ketab_n

من أحد الفتية في الفرقة أن يقصَّه وكنت أركض إلى منزل المصوِّر متأخِّراً. تعثَّرت وسقطت وجرحت يدي بحافة تمثال أفعى الناجا عند بوَّابة منزل المصوِّر. نزفت كثيراً وغطَّيت الجرح بمنديل ودخلت الاستديو. صرخت أمِّي عندما رأت الدم. ضمَّدوا الجرح وطلب مني المصوِّر أن أخفيها خلف ظهر أمِّي».

مرَّرت إصبعك على طول حافة الصورة المتربة. قلت: «سوخا في الرابعة عشرة من عمره الآن. كبير بما فيه الكفاية ليؤسس فرقته الخاصة». ثمَّ قلت: «دسَّت أمِّي هذه في جيبي في المطار عندما غادرت وضحكتُ عليها. إنها الصورة الوحيدة التي أملكها».

خمسة أشخاص يحدِّقون بطريقة رسمية في آلة التصوير. لا أحد يبتسم. كانت للولد الطويل عيناك. للولد الصغير ظلٌّ من تغضُّنٍ بين حاجبيه، وعيناه عاصفتان. الكبار هادئون. أشحت بنظرك عن الصورة ونظرت إليَّ ورأيتُ في بؤبؤي عينيك الأسودين الآن انزعاج الناجي اليائس.

ثمَّ وقفت فجأة وقلت: «لنذهبْ ونتصوَّر».

استقللنا درَّاجتك إلى محطَّة القطار ودخلنا كشك التصوير، سحبنا الستارة السوداء خلفنا، ابتسمنا في المرآة السوداء وانتظرنا ضوء الفلاش. تبادلنا القبلات وانتظرنا الفلاش. وقفنا ظهراً لظهر بوجوه صارمة وانتظرنا الفلاش. ثمَّ وضعت يديك في شعري وقلت: «هذه لي». أخرجت الآلة أربع صور وقسمت الشريط نصفين واحتفظت بآخر صورتين وأنا احتفظت بالصورتين الأولى والثانية. علَّقت صورتيك على الجدار بجانب سريرك وأخذت غيتارك وغنَّيت لي أغنية "الطائر الطنان". ثمَّ قلت: «تعلَّمت واحدة جديدة». وغنَّيت "فندق تشيلسي" بصوت متخدِّث. ضحكت لأن موسيقى بعينها بدت غريبة جداً منك.

Twitter: @ketab_n

قلتُ: «لم أفكِّر يوماً في نفسي ولو قليلاً».

قلتَ منزعجاً: «أنا لم أفكِّر يوماً في أنني لن أكون قادراً على غناء كلِّ ما أريد».

أخذت يديك في يدي وجعلتك تنظر إليَّ، وبعد وقت طويل قلت: «باستثناء شعرك تبدين آسيوية بعض الشيء. أحبُّ طريقتك في التعبير عمَّا يدور في ذهنك دون أن تسعي إلى إرضائي. عقلك ليس آسيوياً على الإطلاق».

Twitter: @ketab_n

- 9 -

كانت القنابل تُرمى على طول الحدود التايلاندية وأنت تكبر. أطنان وأطنان من القنابل.

لكن في بنوم بنه، قلت إنك حاولت المضيَّ كما لو أنه ليس من حرب تدور رحاها. وظَّف أبي من أجلي مدرِّس تشابي، يدعى آشا تري. أخذني مرَّةً لأسمع عازف التشابي العظيم كونج ناي الذي فقد بصره إثر إصابته بالجدري في طفولته. كان ينافس معلِّم آلة التشابي الأعور بيروم تشي. غنَّيا لبعضهما البعض أسجوعات وأحاجي. غنَّى بيروم تشي: حيوانان يحملان الاسم نفسه لهما ثلاثة رؤوس وتسع قوائم. غنى كونج ناي بدوره: فيل له أربع قوائم وفيل ماء له أربع قوائم وثمرة مانجو تدعى رأس فيل وضعت في طبق.

قلت: «لكن تلك لا تزال ثماني قوائم، وما هو فيل الماء؟».

أجبتني: «فيل الماء هو فرس النهر، وللطبق قاعدة».

غنَّيت بالخميرية، تقلِّد صوتين. تظاهرت بأني أفهم لكني كنت ذاهلة بشكل يستحيل الوصف. وضعت التشابي جانباً وقلت: «عندما كنت في الثالثة عشرة من عمري بدأت أتجوَّل في المدينة وحدي وحينها أسَّست فرقتي الأولى. كان صديقي المفضَّل، تيين، في الفرقة. عزف على الأرغن

Twitter: @ketab_n

الكهربائي. استمعنا إلى كلِّ شيء كان يجلبه الجنود الأميركيون إلى فيتنام. لم أسمع أخباراً عن تيين منذ وقت طويل».

أخذت التشابي في حضني ونقرت على الأوتار. تخيَّلتك في بنوم بنه تستمع إلى الروك آند رول الغربي، تستغرق في الأصوات والكلمات التي أتى بها جنود لا يكبرونك سنّاً بكثير. قلت: «أليس غريباً كيف يذهب الناس إلى الحرب ويستمرُّون في عزف موسيقى بعضهم البعض؟».

أجبتَ: «كانت جدَّتي تأخذني إلى المعبد لنصلِّي من أجل السلام. كنت أخاف من القرود هناك. تسلَّلوا بالقرب منا وتلقَّفوا القصاصات التي حملتها جدَّتي ملفوفة في قماشة. صفعَتْهم ثمَّ عصرت يدي وقالت: إذا جاء العدوُّ من أمامك، تجاهله. إذا أتاك من الخلف، اقضِ عليه».

مددتَ يدك، واستعدتَ التشابي، عزفت بعض الألحان ودندنت. وقلتَ: «لكن بعد أن بدأت بعزف موسيقى الأعداء فكَّرت، لا أريد القضاء على العدو، أريد أن أتعلَّم موسيقاه». ورحت تغنِّي ممازحاً: «العدوُّ في داخلي، وأنا في داخله».

Twitter: @ketab_n

- 10 -

عشنا طوال عطلة نهاية الأسبوع بخمسة دولارات فقط. كان هناك دوماً كيس أرز، وجلبنا سمكاً طازجاً من الحي الصيني، وبخمسين سنتاً اشترينا خضاراً وبرتقالتين.

عرفنا مقهى في شارع كريسِنت حيث جلسنا طوال فترة الأصيل نحتسي فنجان قهوة واحداً ودخلنا حانة "لير دي تومب" من الباب الخلفي. صعدنا الجبل أحياناً ورمينا كرات الثلج فوق بحيرة بيفر، وعندما بدأت أطراف أصابعنا تتجمَّد دخلنا إلى الكنائس. أحببت كنيسة "القدِّيس جوزيف" الصغيرة كثيراً، عتمتها وبخورها وسلالمها المخفيَّة.

امتلأت بالدهشة إزاء الجدار المظلم العالي من القصب المتروك والركائز، قلت: «آمنَ بوذا فقط بمعجزة الإرشاد». أشعلنا شموعاً، ليس لأننا نؤمن، لكن لأنَّ الأضواء الوامضة في صفوف تحت الصلبان والأيقونات أعجبتنا، وأُعجِبْنا بوجودنا معاً.

تجوَّلنا خارج الكنيسة الصغيرة نحو المنزل الصغير حيث نام الأخ الشافي أندريه مرَّة على سرير ضيِّق قاس. تفحَّصنا من خلال ألواح الزجاج رداءه البنِّيَّ المعلَّق على مشجب. قلت: «في وطني خلال مهرجان كاثن، يقدِّم الناس أردية جديدة للرهبان في نهاية موسم المطر. يقيمون هناك

Twitter: @ketab_n

ثلاثة أشهر معتزلين، يصومون ويتأمَّلون. يقدِّمون قرابينَ للأسلاف إلى أن يجيء الناس ويقدِّمون لهم الطعام والأردية الجديدة. يعيش الرهبان تقريباً على الهواء».

«مثلنا»، قلت.

Twitter: @ketab_n

- 11 -

طالت أصائل مونتريال المظلمة الشتائية بضوء الربيع الشمالي نصف الشفاف، وذاب الثلج وجرى في جداول طويلة في الشوارع متجهةً نحو النهر. بدا الذوبان من قمة الجبل في المدينة مثل شمعدان كبير بسلاسل من مواشير. فرقعتْ أوَّل نبتة من حشيشة الكبد من الأرض وغرَّد أوَّل دوريٍّ أبيض الطوق بصوت مرتعش. زوَّدت درَّاجتك بالوقود وانطلقنا في الهواء البارد نحو مدينة جاتينو، عبرنا صخرة تعود إلى حقبة ما قبل الكامبري[1] وصنوبرة مستدقَّة نحو شمال بلا نهاية.

كان لدينا الكثير من الوقت. كنت سأنهي قريباً دراستي عند الآنستين إدجار وكرامب وألتحق بالجامعة، وقلت لك: «ربَّما سأعيش معك»، وقلتَ: «نعم».

الأحد الأخير من شهر آذار، بعد القيادة على طول النهر إلى "لا سومبسيون" والعودة، لأنَّ كلفة تزويد درَّاجتك بالوقود كانت أرخص من أيِّ شيء آخر أردنا فعله، جلست إلى طاولة مطبخك أقرأ رواية "الكرَّاس الذهبي". فاحت من الموقد رائحة طهو الأرز الدافئة والغريبة، وكنت تنظِّف سمكة. سألتَ وأنت تغسل الدم عن أصابعك الطويلة: «هل تظنين أنَّ عائلتي لا تزال على قيد الحياة؟».

---

1 - أول عصر جيولوجي من عصور الحقبة الأولية.

Twitter: @ketab_n

قلت دون أن أرفع بصري: «لا بدَّ من أن يكونوا كذلك».

- «انظري إليَّ».

أجفلني الطرف الحاد في صوتك الناعم.

- «هل تفكِّرين فيما يحدث هناك؟».

* «بالتأكيد».

كنت أفكِّر في كتابي وفي الشيوعيين والاشتراكيين في لندن الذين عملوا وناموا وأنجبوا الأولاد معاً.

- «لا أظنُّ أنك تفعلين».

غادرت المطبخ ونزلت إلى القاعة الطويلة وعدت ببرقية مصفرَّة. فتحتها وقرأتَ: «السادس عشر من نيسان 1975، قد تغلق الحدود. لا تعد حتى أتصل. والدك».

- «هذه كلماتهم الأخيرة»، قلت. «منذ أربع سنوات. هل تعلمين ماذا فعلت ذلك اليوم؟ حاولت أن أتصل بهم فقال عامل المقسم إنه لم يعد هناك خطوط إلى كمبوديا. ذهبت إلى مكتب البريد لأرسل برقيَّة. لا خطوط. أعطيت الموظَّفة رسالة لترسلها وقالت: آسفة. توقفت الخدمة. رميت الرسالة في صندوق البريد في الخارج بأية حال وبعد أربعة أيَّام أُعيدت إليَّ مختوماً عليها "تعذَّر التسليم". هل تعلمين ماذا يعني إرسال رسالة إلى عائلتك وتقرئين أنها غير قابلة للتسليم؟».

وقفت تمسك بالورقة الرقيقة كما لو أنك مجروف بمكنسة. أغلقت كتابي وأحطتك بذراعي ومررت إصبعي على سنِّك المكسورة. كنا يتيمين واقفين في غابة، وتركنا قدر الأرز يحترق، وحاولنا أن نمارس الحب لكن لم نستطع. لم يكن فيك شيء ضعيف، أصابعك قاسية، فخذاك قاسيان، بشرتك صقيلة مثل زجاج الشاطئ. حاولت أن أسكِّنك، أهيِّجك، أجعلك

Twitter: @ketab_n

تنسى. لكن ذلك اليوم عندما لمست شعري قلت: «يتعلَّم الإنسان أن يتخيَّل أيَّ شيء، أون ساملان».

أون ساملان، وتعني يا غاليتي. علَّمتني أن أناديك بورنج ساملان، وهو ما تنادي به المرأة الرجل. كان خوفك خلف ابتسامتك الساحرة مكتظّاً وصدئاً. وبعد أن نمت أخيراً تسلَّلت من ذراعيك، التحفت بدثار، وأضأت مصباحاً صغيراً وقرأت المزيد.

رأيت العالم معك بوضوح أكبر، كما لو أنني وضعت عدسات جديدة، اليسرى أقوى قليلاً من اليمنى، لكنهما معاً جعلتا الحافات المغشاة خطوطاً صافية. في لحظات كنت أودُّ ألا أرى بوضوح كبير. بورنج ساملان، أردت أن أعرف كلَّ شيء عنك. كنت شابَّة ولم أعرف نفسي إلا معرفة طفيفة.

Twitter: @ketab_n

- 12 -

قلت في نيسان: «لا أريد أن أنفصل عنك أبداً». وعرفت بأنك ستغادر.

آريس وخنازير برية وحرث[1]. لم يتخيَّل أحد أيَّ نتن كان في الأسفل.

صحوت متأخِّرة وكنتَ قد استيقظت. تضوَّع رصيف صباح الأحد بشذا الربيع، الثلج الذائب وعشب أخضر نضر وعادم سيَّارة. بسطت جسدي المتخم على الملاءات في هواء خفيف وجلستَ على حافَّة السرير وقلتَ:

- «أون ساملان، اجتاح الفيتناميون. الحدود تُفتح. عليَّ أن أعود. عليَّ أن أجد عائلتي».

* «أنا ذاهبة أيضاً».

- «لا يمكنني أن أصحبك معي. أنت صغيرة للغاية».

(لماذا لم تضربني أيضاً؟)

* «صغيرة جدَّاً؟ لم أكن يوماً صغيرة جدَّاً على أيِّ شيء أردتَ أن تفعله. أنا قادمة معك».

- «آن، لا يمكنك. الحرب نشبت هناك! لا أعرف ماذا سأجد».

---

1 - أريس هو إله الحرب عند الإغريق، وبعض المصادر في الميثولوجيا اليونانية تتهمه بقتل أدونيس عبر التحول إلى خنزير بري.

Twitter: @ketab_n

* «سأكتشف معك».

- «لا يمكنك الذهاب».

خرجتُ من السرير ورميت ملابس الليلة السابقة وأبعدتك عني ونزلت الدرج نحو شارع بلوري وصعدت الجبل. جلست بجانب البحيرة وراقبت عائلات الأحد، عشَّاق الأحد، معتزلي الأحد، حمائم قذرة. حاولت أن أتخيَّل مَن كنتُ بدونك. كان لديك الكثير لتفعله، أليس كذلك؟ لكن لا يمكنك فعل أيَّ شيء يوم الأحد.

جئت تبحث عني، وعندما رأيتك على الجبل أرقت جسدي الثائر وكنت أشرب جلدك فعلاً، أسرِّح شعرك الأسود الطويل، ألفُّ نفسي حول وركيك الضيِّقين. كانت عيناك عازمتين لكن مع ذلك تبتهلان. أردت أن تُغلق الحدود ثانية، لأتمكَّن من استعادتك. أردت أن تموتَ فلا يكون عليَّ أن أفكِّر فيك من دوني. أردت المال. أردت أن أكون أكبر سنّاً.

أردت أن تجد عائلتك كلَّها حيَّةً لأكون معك. أردت أن تجد عائلتك ميتة لتكون لي. أردت أن يتغيَّر كلُّ شيءٍ الآن، وأن يبقى كلُّ شيء على حاله إلى الأبد. أردت أن أمحو كلَّ خطيئة من قدري. كنت مالحاً وحلواً، كلَّ ما يرغبه جسدي. تحت صخب هديل الحمامات المُلحِّ الغريب في كلِّ مكان من حولنا، صدى كلمات والدي: «سيعود إلى وطنه». كان كلُّ ما أردته أن أسمعك تقول: «سأنتظرك. سأعود من أجلك»، لكنك قلت: «فُتِحت الحدود. عليَّ الذهاب».

لقد استدعتك الحرب.

Twitter: @ketab_n

- 13 -

بطاقتك جاهزة: باريس. بنوم بنه. أردت بطاقة مثل تلك. مارسنا الحب قبل شروق الشمس وغادرنا المنزل دون كلام. لم أستطع صبَّ غضبي في المطار.

- «أين ستقيم؟».

* «في منزل أهلي، بالوف 350. سأراسلك».

عندما اقتربت مني، دفعتك بعيداً. تراجعت ونظرت إلى ساعتك، قلت: «أنا خائف ممَّا سأكتشفه».

* «إذاً انتظر وسآتي معك».

- «أيَّتها النمرة الصغيرة، لا تكوني عنيدة. دعينا لا نفارق أحدنا الآخر دون قبلة على الأقل».

* «لست أنا الراحلة».

كنت تمسك بآلة التشابي وخطوت نحو ذراعيك ودفنت وجهك في شعري. لكن بعدها عبرت أبواب من الزجاج السميك والتفتَّ مرَّة لتلوِّح، وبعد وقت طويل تهيَّأت طائرتك للإقلاع واستدارت وسارت على المدرج واختفت في الهواء. عدت إلى مدينتي الفارغة وذهبت إلى شقَّة والدي وشعرت بالعمى والصمم. قال بابا وهو جالس في كرسي قراءته دون أن يرفع بصره: «رحل؟».

Twitter: @ketab_n

انتظرتك. في الأسبوع الأوَّل توقَّعت شيئاً كلَّ يوم، الأسبوع الثاني صار شهرين، ستة أشهر، سنة. ما من رسالة. ولا كلمة. أرسلت رسائل إلى عنوان والديك. حاولت أن أجد رقم هاتف. بلغت عامي السابع عشر، ثمَّ عاماً آخر ثمَّ آخر وآخر وآخر. كيف يعقل أني فقدتك؟ كيف مارسنا الحب في الضوء الرمادي الأوَّل قبل الفجر ثمَّ لن أراك ثانية أبداً؟

قال بابا: «ربَّما يظنُّ أن الأمر أسهل بهذه الطريقة».

قالت شارلوت: «كانت الأشياء رهيبة هناك. ربَّما يحتاج إلى الوقت».

قالت بيرث: «لا تقلقي، يا صغيرتي ستلتقيان ثانية».

ساعدَتْني لأجد عملاً بدوام جزئي في بيع الزهور في متجر يدعى الباريسي في شارع لورنت، وأصبح لديَّ مالي الخاص. التحقت بالجامعة ودرست اللغات. فتنت بأشكال الكلمات في فمي وعندما كتبتها على الورق كانت فجَّة ومعافاة وتشعُّ مثل رجل يقدم عرضاً على الخشبة. احتجت إلى ذاكرة وأمل، وطالما أني لا أستطيع إيجادهما في أيِّ مكان آخر، بحثت عنهما في تصريف الأفعال. ابتلعتني الكلمات مثل نهر عميق. حلمت باشتقاقات غير صحيحة. حلمت بأني اكتشفت بداية العالم في لفظ الكلمة الفرنسية "vraiment[1]" التي تجمع بين معنيي الصدق والكذب. تعرَّفت على أصدقاء جدد في مركز النساء اللاتي تحدَّثن عن الحرِّية والسلام، نساء تقاسمن الألعاب الجنسية وحبوب منع الحمل، أحببت تلك النساء وأحببت السير تحت الملصق فوق باب مركز النساء وقد كتب عليه: الحقيقة ستحرِّرك. لكنها ستغضبك أولاً.

أخبرتهنَّ عنك وقلن: «لم يكتب لكِ أبداً؟ انسيه، هناك الكثير من السمك في البحر».

---

1 – Vrai وتعني الصدق، وmentir تعني لكذب.

Twitter: @ketab_n

لكني درست الخميرية سرّاً كلَّ يوم. لغة الحب. خطٌّ متموِّجٌ وحروف الراء مدفونة صامتة، توازن جميل بين الأحرف الساكنة وأحرف العلَّة مع صوتين لكلِّ حرف منها، درَّبت لساني على لغة طفولتك، أحتضنك مع كلِّ كلمة جديدة. كانت لمدرِّسي ساق خشبية. كان اسمه فيثو، ودفعت له من أجري الذي كسبته من بيع الزهور. تمكَّن من الهرب عبر الحدود في بداية الحرب لكن ليس قبل أن يدوس على لغم أرضي. كان قد نضج مبكراً، ابناً لمزارع تعلَّم القراءة والكتابة في الدير. علَّمني مفردات وعلَّمني قواعد المحادثة. حاول أن يعلِّمني التواضع. قال: «إذا أخبرك أحدهم، أنت تطبخين أو تتحدَّثين جيِّداً، يجب أن تقولي: لست كذلك، وأخفضي عينيك. في كمبوديا المرأة الفاضلة تتحرَّك دون أن تحدث صوتاً على الأرض».

أحببت الحكمة الشعبية التي تدعى تشْبَاب. علَّمني فيثو: «لا تدع رجلاً جائعاً يحرس الأرز، لا تدع رجلاً غاضباً يغسل الصحون». علَّمني عن "خموك" والأشباح و"برت" و"بيساتش" وهي الأرواح الملعونة لمن ماتوا ميتاتٍ عنيفة. وعن "أراك" أي أرواح النسوة السيِّئات. وعن "نيك تا" أي أرواح الأحجار والأشجار. بمرور السنين أصبحت جيِّدة تماماً، وذات يوم بعد قراءة قصة عن أرنب وقاض بصوت جهوري، نظرت لأرى عيني فيثو اغرورقتا بالدمع. لمست يده وقلت: «أنت تشتاق إلى وطنك كثيراً». لكنه قال: «ليسَ إلى هذه الدرجة، آن جريفز، بل يعود ذلك أكثر إلى أن الأشياء التي علَّمتها لك قد اختفت بالتأكيد من وطني».

قلت له إن في وسع أبي أن يصنع له ساقاً أفضل، لكنه خبط على ساقه وقال: «لقد اعتدت على هذه». طلب مني ذات يوم أن أكتب قصة الخمير المفضلة لدي. كتبت عن ملك قديم يدعى نوكور بيرين سي الذي كان اسمه جليلاً مثل رعد يقصف من ثمانية اتجاهات. شاء حفيده أن يتفوَّق

Twitter: @ketab_n

على جدِّه ودمَّر كلَّ ما أنجزه، القلاع الملكية والمعابد، الأديرة والمدارس. وعندما انتهى الحفيد، كان كما لو أن إمبراطورية جدِّه العظيمة لم توجد قط.

عندما عرض عليَّ فيثو تصويباته، مسَّ ورقتي بيده برفق كما لو أنها أيضاً كانت أثراً تاريخياً متلاشياً وقال: «في البوذية نؤمن بأنه يمكننا أن نرى أنفسنا في الآخر. هل تعرفين قصَّة الأرنب في القمر؟ كان بوذا أرنبَ قبل أن يكون بوذا. أراد أن يُخلق من جديد على هيئة بوذا وهكذا عرض تقديم حياته لأيِّ شخص يحتاجها. ذات يوم حوَّل تيفادا الملاك نفسه إلى صيَّاد جائع ليختبر الأرنب. قال: أنا جائع جدًّاً. إذا لم آكل سريعاً سأموت. قال الأرنب: سأضحِّي بحياتي لمساعدتك. أوقد ناراً وسأقفز فيها وأطهو نفسي من أجلك. وافق الصيَّاد وأشعل ناراً متأجِّجة. قفز الأرنب في اللهب لكنه لم يصب بأذى. ثمَّ حمل تيفادا الأرنب إلى القمر ورسم صورته هناك ليذكِّر الناس دوماً بلطف بوذا وإيثاره». عندما انتهى قال فيثو: «كان اسم أختي تشاناري، ويعني فتاة لها وجه القمر».

- «أين أختك الآن؟».

* «ماتت».

Twitter: @ketab_n

- 14 -

ذات يوم وأنا أسير في شارع بلوري رأيت قطعة من ورق مقوى مكتوب عليها: للإيجار، ملصقة على نافذة شقَّتك القديمة. اتصلت بالمالك وقلت: «سآخذها».

مرَّت سنوات من المستأجرين من بعدك. صعدت الدرج الطويل المظلم سريعاً وفتحت الباب وتجوَّلت في الغرف الواسعة. استنشقت رائحة الخزائن، جلست على الشرفة، خطوت على أرضية المطبخ، وقفت في غرفة النوم حيث أصغيت مراراً وتكراراً إلى أغنية "حبيبي يا قصب السكَّر". كانت كلُّ غرفة مطلية. هناك صور متناثرة وأشباح، لكنها لا تخصُّك. شممت رائحة جبنة جودا الهولندية، وسمعت ضحك ست طالبات تخططن لحفلة، وشعرت بحضور ولد يدرس حالة الجو. نقلت سريري إلى غرفتك القديمة في المقدَّمة وأعدتُ طلاءها باللون الأصفر.

لم تمرَّ عليَّ حريات العصر مرور الكرام، موسيقى ومخدرات ونزعة استقلال. في مراقص لافال المحمومة كانوا لا يزالون يشغِّلون أحياناً أغنية باتي لابيل "حورية البحر". كان لي عشَّاق. عندما زرت بيرث قالت بحنان: «استمتعي بهذا الوقت، الحياة قصيرة، يا صغيرتي». راقبت المدينة تتشرَّب على نحو مربك الجزائريين والجنوب إفريقيين والفُرس والكوريين والصينين والسنغاليين والهايتيين. اكتشفت أماكن الكنديين من أصول

Twitter: @ketab_n

فرنسية وأطفال المهاجرين الأوروبيين ونادراً ما ذهبت إلى أماكن قدامى أثرياء الإنكليز في ويستماونت. رقصت على موسيقى الريغيه والديسكو وموسيقى هايتية في ازدحام الأجساد الدافئة في حانة "بورت أو برنس".

ذات ليلة صحبت إلى البيت شاباً مرحاً، أضحكني عندما قال إنه أراد أن يسمِّي الكتاب الذي كان يؤلِّفه "كيف تمارس الحبَّ مع زنجي دون تعب". رقصنا في المطبخ في شارع بلوري ثانية. نهضنا عن الأرض المفروشة بالمشمَّع نهمين وصنعنا الحليب المحلى المكثَّف والخبز المحمَّص ثم عدنا إلى السرير. كان صباح يوم الأحد ثمَّ أصيل الأحد وفي الغسق المفضي إلى اليوم الثالث، قال لي إنه أراد أن يكتب عن جدَّته في هضاب هاييتي. بعد أن غادر لم أره ثانية ولم أهتم. أتشوَّق إليك، تعلَّمت، بورنج ساملان، أننا نلتقي مرَّة في العمر، إذا كنا محظوظين، بالشخص الذي يعلِّمنا كيف أن حتى إيروس المتقلِّب يمكنه أيضاً أن يحرِّر حبَّاً أزلياً.

ثم ذات ليلة، بعد أحد عشر عاماً من رحيلك، شغَّلتُ التلفاز وومض الضوء أمامي. قرَّبت الكرسي من الشاشة كثيراً. كان رحَّالة أستراليون يركبون قطاراً إلى بنوم بنه لحضور يوم تذكاري، يوم للبقاء على صلة بالغضب. كان الفيتناميون ينسحبون والأمم المتَّحدة تشكِّل حكومةً انتقالية. شاهدت أفلاماً سينمائية عن الحرب وضحايا الألغام الأرضية ويأس الجوع وركام الجماجم الأجوف، غير أني لم أرَ يوماً صوراً لكمبوديا في محاولتها التماثلَ للشفاء. شاهدت امرأة باكية ترتدي البياض خلف الميكروفون تتحدَّث إلى حشد كبير في باحة مدرسة كانت تُستعمل كمركز للإبادة. كانت نحيلة وأمسكت منديلاً مبتلاً. خدش صوتها الأغنّ وجوه المستمعين المبعثرة: أنشدت أسماء والديها، زوجها، أطفالها، أخوتها وأخواتها الذين فقدتهم واحداً واحداً. سالت الدموع على وجهها، تعمَّقت

Twitter: @ketab_n

خطوط عميقة بين حاجبيها. عندما توقَّفت لتلتقط أنفاسها خلف الغصَّات في حنجرتها، غطَّت وجهها بمنديل أبيض يقطر دمعاً وعرقاً.

شاهد اللوعة.

كلمات وبكاء في صوت واحد. غطَّت فمها بجمال وجِل، تتمايل من خصرها، تتموَّج أصابعها الطويلة مثل أدغال من القمح. غنت:

أي حزن هناك ليس حزني ؟

وطن وزوج وأطفال فُقدوا.

أي حزن ليس حزني ؟

أشاحت الوجوه وجهاً تلو آخر، عيون تغضُّ أبصارها، دموع تنهمر. جاء دور امرأة شابة أخرى عند الميكروفون وسكبت من حنجرتها أغنية أذبلتها الكراهية. عيناها سوداوان متوهِّجتان. كانت دماً ومنديلاً نافداً منه الحب. غنَّت: أمِّي، ماذا فعلوا بك هنا؟

يقول الرهبان: ميين راااب ميين دتوك. مع الجسد يأتي العذاب.

رأيتك.

التقطت آلة التصوير صورة محورية بانورامية للجمهور وكنت واثقة من أني رأيتك بينهم.

لم يبدُ توقي كجنونِ عاشق في مدينة الثكالى هذه. كان كلُّ شخص في ذلك الحشد مفجوعاً. لم يبدُ أي شيء جنونياً بوجود التوق العاجز لهذا الحشد. تجمَّع الدم خلف عيني في لحظة العمى التي خبرتها دوماً كلَّما نظرت إلى صورتك. كنت واثقة من أني رأيتك حيّاً تتحرَّك بين الجمهور ولم يعد في وسعي التظاهر. أطفأتُ التلفاز. حزمت أشياء. حملت صورة أمِّي. أرسلت ملاحظة إلى مسؤولي شارع بلوراي وإلى الجامعة. ذهبت إلى مكتب الجوازات. حصلت على التأشيرة. في ليلة الأحد أخبرت بابا

Twitter: @ketab_n

بأني مغادرة خلال يومين، هزَّ رأسه وقال: «لم تسمعي خبراً منه خلال عقد من الزمن. أنت تظنين أنك رأيته على التلفاز. أنت تتركين عملك قبل أن ينتهي الفصل؟ يا للجحيم. لمَ لا يمكنك الانتظار؟».

جلسنا صامتين. كان للطعام مذاق الغبار. وضع شوكته وقال: «أنت تدمِّرين حياتك».

قلت: «لا أريد أن أغادر دون أن أودِّعك».

حدَّق في الطاولة صامتاً. نظر إليَّ بعد وقت طويل كما لو كنت شبحاً: «إنها حياتك. أمُّك كانت كذلك أيضاً. هي أيضاً تركت كلَّ شيء».

مدَّ يده ليمسَّ خدي، قال كما لو أنه يحدِّث نفسه: «إذا ما وجدته ربَّما لن أراك ثانية».

ضحكت، نظَّفت الطاولة وقلت: «بابا، لا تكن درامياً للغاية».

لكنه أصرَّ: «هناك أشياء لا تعرفينها».

Twitter: @ketab_n

- 15 -

سحبت نقودي من المصرف واشتريت بطاقة طائرة. إلى باريس ومنها إلى بنوم بنه. وصلنا بعد الفجر. أخذت سيارة أجرة لتُقلّني من مطار بوشنتونج على الطريق السريع نحو المدينة. أتذكّر الحرارة. الأسطح زرقاء وخضراء، وصفيح متموِّج ولدائن سميكة وقزميد أحمر. قمم القصر المحاذي للنهر الذهبية، وأقواس معبد بوذا الجميلة على تلّة بنوم بنه فوق فوضى الأسواق والشقق والأكواخ والحيوانات. أقام الناس على جانب الطريق أكشاكاً تحت مظلّات وسقائف، طهوا الطعام في قدور تغلي، وباعوا مشروبات حلوة المذاق من ثلاجات بيضاء وبرتقالية. حملت نساء حافيات أطفالهنَّ في جراب مربوط على صدورهنَّ وظهورهنَّ، شاهدت أطفالاً بمؤخّرات عارية وعيون محدِّقة وأصابع في أفواههم. انعطفت سيَّارة الأجرة عميقاً في الشوارع المتضيِّقة، وانطلقت نحو النهر في شوارع المدينة ذات المباني المدوَّرة التي بدت مثل باريس، مروراً بمتاجر شارع مركز المدينة ونحو حيِّ الشقق ذات المصاطب العريضة المهواة على طوابق علوية. توقف السائق أمام منزل عائلتك، بالوف 350، ترجَّلت ودفعت له مبلغاً كبيراً من الدولارات الأميركية. وقفت على الشارع أشعر بالحرارة وبخفقان قلبي. تساءلت فيما إذا كنت ستفتح الباب.

طرقت. فتحت امرأةٌ شابة تحمل طفلاً البابَ مصدراً صوت تصدُّع،

Twitter: @ketab_n

وكنت أتحطَّم. قالت بحزم: «لا. هو لا يعيش هنا. لم تسكن تلك العائلة يوماً هنا». ثمَّ نظرت في وجهي وقالت بلطف: «ربَّما سكنوا هنا سابقاً. أظنُّ أني سمعت باسمهم». أغلقت الباب وفكَّرت منهكة من السفر الطويل، ومن حرارة بنوم بنه: «ماذا فعلت؟».

جلست امرأة مسنَّة القرفصاء على الرصيف المجاور تراقبني. اقتربت منها وسألت: «هل تعرفين العائلة التي سكنت هناك سابقاً؟».

قالت: «أنت تتقنين التحدُّث بالخميرية جيِّداً».

قلت: «ليس بشكل جيِّدٍ جدَّاً، ولكن كان لدي مدرِّس جيِّد. هل تعرفين العائلة التي كانت تعيش هناك؟».

تضيَّق الجلد حول زاوية عينها اليسرى فارتعشت. قالت: «كان هناك أخوان، لعبا مع أطفالي. اذهبي، رحلوا جميعاً».

جلست القرفصاء إلى جانبها في العتبة. ناديتها ياي، أي الجدَّة.

- «أبحث عن الأخ الأكبر. هل سبق أن رأيته؟ لا بدَّ أنه أتى إلى هنا».

تفحَّصت عيني وقالت: «كان يأتي إلى هنا لكني لم أره منذ سنوات. لم يأت أحد سواه إلى هنا». نظرت نحو شارع الأشباح وقالت:

* «فقدت جميع أفراد عائلتي في أثناء حكم بول بوت».

لم أعرف ماذا أقول. صرخ طفل في الداخل، خلف الدرفات. سألتُ: «ماذا في وسعي أن أفعل؟».

أجابت: «أنا أريدك فقط أن تعرفي».

- «سأعود وأراك، يا جدَّة. عندما أجده سأقول له إنني التقيتك».

ارتعش عنقها:

* «نعم، قولي له إنك رأيت تشان. سأكون هنا».

هذا كان يومي الأوَّل في بنوم بنه، اليوم الذي التقيت فيه ماو.

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

بنوم بنه

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

- 16 -

عندما تقدَّم ماو تراجع السائقون الآخرون. أصغى، يخمِّن ويحسب، عندما أخبرته بأني أردت أن أبحث عنك في كلِّ نوادي بنوم بنه الليلية. دلَّني على عربته ذات الشرابة الصفراء في السوق المزدحم. كان رجلاً ضئيلاً له ندبة على خدِّه الأيسر. كان يرتدي قبَّعة بيسبول خاصَّة بفريق أشبال شيكاجو. رقَّت عيناه على نحو خاطف عندما نظر إليَّ وقال: «ربَّما سيستغرق ذلك وقتاً، ربَّما سيكون مثل البحث عن حبَّة أرز».

لم أكن واثقة كيف لي أن أجدك ولم أكن واثقة من أنك أردتني. تشابكت رائحة نهر باساك مع ذوبان مياه الجبال البعيدة في الهواء الندي، وثوم وياسمين ليلي وزيت الطهو وعرَقٌ ذكوري وبلل أنثوي. الفساد يحبُّ الظلمة.

في مونتريال عرفت الأبواب، الأزقة، وضفافاً ثلجية تخفي أكياس المخدِّرات، وفتيات بشفاه حمراء، وأولاداً مهزولين بأرداف ضيِّقة، الأشياء التي يظنُّ الرجال بأنهم يريدونها. لكن هنا لم أعرف مكان أيِّ شيء وكنت خائفة من الخروج وحيدة للبحث عنك.

انسلَّ ماو في حركة السير، وكنت مرتاحة للخروج من زحمة السوق. الجميع يحاول أن يكسب بعض الريلات. توقَّف ماو أمام مطعم "لاكي نمبر ون" على جادة مونيفونج ونادى نادلاً ليعطيني طاولة على الممشى.

Twitter: @ketab_n

طلبت من ماو أن يتناول الحساء معي لكنه لوَّح بيده أمام وجهه. قال: «يجب أن أحرس درَّاجتي. سأنتظر».

جلست عائلات على العتبات هرباً من الحر. عايناني الرجال في الشارع بعيون ماكرة عابرة؛ امرأة بيضاء وحيدة تحمل دولارات معها في مكان ما. مرَّت درَّاجة أمام طاولتي ودهست العجلة الأمامية ظهر جرذ. تلوَّى في حلقات ممزقة. حاول نادلان دفعه بعيداً عن طاولتي بطرفي ممسحتيهما المقلوبتين لكنهما كانا خائفين. أخيراً جلبا مكنسة وكنسا الجرذ المحتضر في دلو ورمياه وهو لا يزال حياً يتلوَّى في وعاء للقمامة في الزقاق.

كان "ذا هارت" مزدحماً ولم تكن هناك. لم أتوقَّع أن أجدك في أوَّل مكان بحثت فيه. لكني أملت. نظرت في بريق العيون التي لم تعرفني وتراجعت خارجة من الباب. توقَّف ماو وقال: «أعرف مكاناً آخر». استدار حول نصب الحرية نحو ناد صغير يدعى "نكسوس". جلس موزع الموسيقى خلف طاولة متداعية يشغِّل مجموعة من تسجيلات الجاز على فونوغراف وموسيقى الخمير على مشغِّل أشرطة.

كان هذا مكاناً قد تكون فيه، ما قبل الإبادة الجماعية إلى حدٍّ بعيد. لكنك لم تكن موجوداً. خرجت وقلت لماو: «ماذا لو كانت له صديقة؟».

قادني ماو ليلة بعد ليلة. عبرنا النهر نحو مطعم مزدحم ببائعات البيرة ورجال يلحقون بهنَّ وقلت: «لن يكون هنا». تململ ماو كما لو ليقول: «كلُّ شيء ممكن». كان شهر نيسان، تقريباً رأس السنة الجديدة، أكثر أيَّام السنة حَرَّاً، وكانت النوادي والبارات مزدحمة كلَّ ليلة. فكَّرت: «ماذا لو لم يعد يخرج ليستمع إلى الموسيقى؟ ماذا لو لم يخرج إلى المكان نفسه في الوقت عينه؟ ماذا لو كانت الآلهة صمَّاء وبكماء وتخادعني إلى الأبد؟».

مشيت في الصباحات على رصيف ميناء سيسواث، راقبت حركة

Twitter: @ketab_n

السير، عربة يجرُّها ثور والخشب مكوَّم عليها وعناقيد كبيرة من الموز مربوطة إلى سكَّة خارجية، درَّاجة تحمل خنزيراً ذبيحاً، عيون مفتوحة، لسان متدلٍّ، مثبَّت بشكل متعارض، سيَّارات صغيرة ودرَّاجات بخارية تمتزج في بنوم بنه، وهي تشقُّ على نحو مائل حركة السير القادمة. على الأرصفة العريضة حمل الناس سلالاً كبيرة منبسطة مملوءة بالفاكهة والخضار على رؤوسهم، حملوا مقاعد صغيرة ليجلسوا عليها. في كلِّ صباح كان رجل أبتر الساقين يقود درَّاجة بدوَّاسات يدوية على طول درب النهر شرقاً. وجدت عربة سوفيب لبيع النودل. حملَت سوفيب طفلاً مربوطاً إلى ظهرها ولعبت طفلة قرب قدميها. راقبت وجهها عبر بخار قدرها الذي يغلي، وأحببت الطريقة البارعة التي تحرِّك بها النودل ولطفها مع الطفلة. اقتربت منها وقلت لها بالخميرية: «قدر من النودل رجاءً مع لحم الدجاج».

قالت: «أنت تجيدين التحدث بالخميرية».

أجبتها: «لا، قليلاً فقط».

رفعت النودل الحارَّ من القدر وصبَّته في وعاء متصدِّع، غرفت بعض اللحم وناولته لي.

تجوَّل رجال في قمصان بيضاء طويلة الأكمام على رصيف الميناء في برودة الفجر الوجيزة، يشترون ويبيعون. تدافع الناس عند عربة في الشارع تبيع فاكهة البوميلو. كل من يملك المال في وسعه أن يأكل أرزّاً ساخناً ونودل، وقصب السكَّر، وحبَّاراً، وبيضاً مسلوقاً، وجذور اللوتس من العربات. سلال من الجنادب المقلية، ثم صوانٍ من الآيس كريم. مدَّ أطفال جوعى أيديهم النحيلة على الأرصفة. طعام. سجائر. بنزين. أولاد. فتيات. سُيَّاح.

Twitter: @ketab_n

لوَّح رجال شرطة المرور للناس لتفحُّص التراخيص. طلبوا الرشاوى. غيَّر السائقون اتجاههم حالما رأوا الشرطة. دخل أناس دون أذرع وأرجل ظلال العتبات، يتسوَّلون، أكمام مطوية ومثبَّتة بأناقة على بقايا الأذرع المقطوعة. التسوُّل بدون أذرع أكثر صعوبة، بعض المحظوظين على أرجل معدنية، أو ربَّما درَّاجة ميمونة بثلاث عجلات. ناولت سوفيب طبقي الفارغ وقلت لها: «واب خنية ثنجاي كروي».

ابتسمت:

- «هل أنتِ هنا منذ مدَّة طويلة؟».

* «منذ بضعة أيَّام».

- «كيف تعلَّمت التحدُّث بالخميرية؟».

* «درستها في بلادي. إنها لغة...».

بحثت عن كلمة. عرفت كيف أقول أخ، أب، زوج، لكن لم أتعلَّم يوماً كلمة حبيب.

* «إنها لغة الرجل الذي أحبُّه» قلت. «أنا أبحث عنه».

كان عادياً أن يُفقد الناس في هذا المكان. كما هو عادي أن تفقد يداً أو رِجلاً.

افترَّ ثغر سوفيب عن ابتسامتها المشعَّة وقالت: «آمل أن تجديه. قولي لي كيف هو شكله وسأراقب الزبائن بحثاً عنه. أرى الكثير من الناس كلَّ يوم».

بعد ذلك ذهبت كلَّ صباح لتناول الفطور عند سوفيب. قالت لي إنها كانت صغيرة في أثناء حكم بول بوت، واستطاعت أمُّها الحفاظ عليها، لكنَّ أخوتها الأكبر سناً قضوا نحبهم وكذلك والدها. التقت بزوجها في مخيَّم للاجئين على الحدود التايلندية. أرادت أمُّها أن تأخذها إلى الخارج لكنهما لم تُقبلا. وهكذا عادتا.

Twitter: @ketab_n

ذهبت في الأصائل إلى نادي المراسلين الأجانب. أحببت الآجر الباريسي الأصفر، صوت مراوح السقف، مفارش الطاولات النظيفة، المقاعد عند البار المكشوف المطل على النهر والجادة، ترف استعماري. يصل الغربيون مع بضعة دولارات ويعيشون كالملوك، وكانت هذه البحبوحة المجهولة أوَّل ما تقاسمته مع الأجانب في نادي المراسلين الصحفيين. هنا لم يكن عليَّ أن أكون وحيدة. هنا كان شخص ما دوماً يروي القصص. هنا كانت الراحة من الكفاح في الشوارع. بين الصحفيين وعمَّال الإغاثة الأجانب وعمَّال الأمم المتحدة والرحَّالة، بين جوَّالي الأرض المتبصِّرين، لم تكن هناك حاجة إلى شرح البحث عن عاشق مفقود. تحدَّث الرحَّالة عن البارات والماريجوانا في تايلندا، والشواطئ في الهند، الكاتدرائيات في أوروبا، عن أمَّهاتهم.

انساقوا عبر بنوم بنه، اكتشفوا الجنس والجماجم والمعابد، تحدَّثوا عن الذهاب إلى الشواطئ في الجنوب للاحتفال برأس السنة الجديدة. في الشارع، قذف الأطفال الكستناء في لعبة تدعى "آنكون"، وزيَّن الناس طاولاتهم ومتاجرهم من أجل الأعياد بزهور اللوتس. نظرت من سطح نادي المراسلين الأجانب في أحد الاتجاهات إلى القصر وتخيَّلت ما لا بدَّ من أن يكون عليه حال العيش في رغدٍ ملكي، حضور المواكب البوذية الذهبية والبرتقالية، الاحتفال بالحراثة عند اكتمال القمر، وفي الاتجاه الآخر راقبت الناس العاديين على مصاطبهم، امرأة تذبح دجاجة للعشاء، مراهقة ترضع رضيعها في أرجوحة شبكية.

Twitter: @ketab_n

- 17 -

كان نادي المراسلين الأجانب هادئاً يوم رأس السنة. فمعظم الناس كانوا إما مدعوِّين إلى مكان ما أو يزورون المعابد لشكر ملائكة السنة السابقة، والترحيب بملائكة السنة الجديدة. دخل رجل من الباب سبق لي أن رأيته كثيراً. كانت قامته طويلة للغاية بأكتاف عريضة وكرش صغير، وساعدين قويين، بشرة مسفوعة بالشمس. تتفحَّص عيناه البنِّيَّتان المكان، ولاحظت أنه يراقبني. اشترى بيرة، وتقدَّم وانزلق في مقعد بجانبي إلى البار الفارغ متفحصاً الشارع. قال: «هل يمكنني الانضمام إليك؟ المكان مزدحم هنا».

منذ البداية جعلني ويل ماراكل أضحك.

- «أنا ويل».

* «أنا آن جريفز».

- «أراك هنا كلَّ أصيل».

* «أعرف».

- «سنة سعيدة».

* «ولك أيضاً».

وضع كأسه حيث تعرَّق حلقة من الماء وقال: «ماذا تفعلين هنا؟».

Twitter: @ketab_n

* «أنا أبحث عن حبيبي».

- «هل أنت أمريكية؟».

* «أنا من مونتريال».

- «وأنا أيضاً، قرب مونتريال. رأس سنة مسلٍّ دون ثلج».

* «رأس سنة مسلٍّ في نيسان».

طرفَ بإشراقة عذبة. كان هناك إيقاع في إنكليزيته لم أتمكَّن من تحديده. سألت: «أين قرب مونتريال؟».

- «كاناواكي».

* «هذه في مونتريال؟».

- «لا ليست كذلك. إنها على ضفَّة النهر الأخرى».

أطلق العنان لضحكته الحاضرة دوماً، وسأل: «لماذا بحق أرض الله الخضراء تبحثين عن حبيبك هنا؟ ولمَ أضاع هو شخصاً في مثل جمالك؟».

شربت من كأسي وسألته:

- «ماذا تفعل بعيداً جدَّاً عن الوطن؟».

* «أجمع أدلَّة جنائية».

نظرت إليه.

* «إحصاء».

- «إحصاء؟».

* «هم يحاولون تقدير العدد».

استكشف ويل ماراكل مواقع المجزرة، وأخرج العظام. تحدَّثنا طوال الأصيل. سألته ماذا تعني كلمة ماراكل ولم يكن يعرف. سألني ماذا تعني جريفز وقلت له إنها كلمة صائد الحيتان، أو نفاية الشحم الحيواني. حدَّثته

Twitter: @ketab_n

عن البحث عنك في جميع بارات المدينة. تحدَّثنا عن الفرنسية والإنكليزية وكيف بدأ حفر أراضي المقابر الهندية، تدرَّب مع رجل اسمه كلايد سنو في الأرجنتين وانتهى هنا. سألته كيف يمكنه أن يحتمل عمله وقال: «الحقيقة قديمة قدم الله». هزَّ كتفيه وأردف: «شخص آخر قال ذلك، وليس أنا».

أجبت: «وسوف تدوم طويلاً بقدر طول قامته، شريكة في الأبدية».

ضحك ويل.

- «لا بدَّ من أنه عمل شاق».

* «هو ليس كسراً فخارية. أحبُّ البداهة اللازمة لجمع العظام معاً، لتمنح للمشهد معنى. إنه عمل إنساني. بأية حال، اعتدت عليه».

انجرفت عيناه بعيداً وقال: «أحلم أحياناً بأرجل مقطوعة تشاركني السرير». ثمَّ عاد بنظره وقال: «أنت مستمعة جيِّدة».

- «أحياناً. أين تعمل الآن؟».

* «لا شيء أبداً، أزجي الوقت كيفما اتفق، أهرش مؤخرتي. إن الأشياء تتوقَّف وتبدأ. ليس هناك إرادة سياسية. القادة لا يريدون أن يعرفوا. لكني أحبُّ المكان هنا».

تمايل فيل في الشارع. تفرَّقت حركة سير العطلة الخفيفة من حوله. قلت له إنني نهضت فجراً لأراقب الجبل واحتفال الرمل، خمس أكوام من الرمل في باحة المعبد، خمسة مواطئ لقدم بوذا، غرس الرهبان ركائز الأرز المزيَّنة بأوراق ملوَّنة في الرُكام وأشعلوا عصيَّ البخور ونثروا رمل الجبال بماء معطَّر.

قال ويل: «سمعتك تتحدَّثين بالخميرية. أنت محظوظة. تتابعين ما يجري». ران صمت، أصغينا إلى أنفاس بعضنا البعض. قال ويل: «هل ترغبين في الذهاب لرؤية بوذا يستحم؟».

Twitter: @ketab_n

سألته: «ما هذا؟».

أخذ يدي وسحبني من مقعد البار وقال: «من المثير للكآبة الجلوس هنا وحيدة في رأس السنة. لنذهب. سألتقي ببعض الأشخاص».

مشينا إلى معبد صغير مجاور قرب غرفة للتدليك تُسمَّى "الأيدي التي ترى"، مكان عمل لضحايا الألغام الأرضية. كانت امرأة مسنَّة مبتورة الساق من عند الركبة تنتظر على كرسي خشبي بجانب شابة بوجه أجفلني. لم يكن لديها عيون ولا أنف. كان مركز وجهها مستطيلاً مكوناً من رقعة جلد لمَّاعة. كان جلد جبهتها، فوق الرقعة، نديَّاً ونضراً. فجوة قرب مركز الرقعة تعمل كفتحتي أنفها. تحت الرقعة كانت شفتاها شهوانيتين وممتلئتين وكانت لها ذقن رقيقة وعنق جميل.

مسَّ ويل يدها، قال: «سينيث لقد جلبت معي صديقة، آن جريفز. هي تتحدَّث الخميرية».

ابتسمت بتلك الشفاه الكاملة الاستدارة ومدت يدها برشاقة نحوي. قالت بالإنكليزية: «مرحباً. هذه صديقتي بوبا، هل نذهب الآن؟».

وقفت وأخذت بذراع ويل وهبطت بجانبه الدرجات الثلاث. في فناء المعبد عدد قليل من الرهبان وبعض الشيوخ وشتات من الناس. نثر الناس الماء المقدَّس على الشيوخ والرهبان. شرحت سينيث أنهم كانوا يطلبون المغفرة على ما ارتكبوه من أخطاء ويعدون بأن يسعدوا الشيوخ في السنة القادمة. ترجمت لويل، ثم قالت بوبا إنه في مسقط رأسها في الشمال في رأس السنة كان الشبان يرقصون رقصة جوز الهند. فجأة صبَّ رجل في خريف العمر إبريق ماء على رجل بجانبه وضحك الجميع ورشُّوا الماء على بعضهم البعض وانسحب الرهبان. ابتسمت سينيث على الأصوات وهمست: «عندما كنت شابَّة كان هذا الاحتفال أكبر بكثير، الجميع يتبلَّل. كنت أذهب مع أختي وأمِّي وأبي وأخوتي».

Twitter: @ketab_n

لاحقاً، ونحن نمشي على رصيف الميناء سألت ويل: «ماذا حدث لسينيث؟».

قال: «مقلاة الأسيد. صديق غيور. مجنون لعين. في عالم آخر سأطلب من فتاة بشفتين مثل هاتين أن ترقص معي».

قلت: «لمَ لا؟ لمَ لا تحبُّ شفتيها؟».

أجاب: «أتمنى لو كان الأمر بهذه البساطة».

راقبنا الألعاب النارية على الرصيف ومررنا بالعربات التي تبيع الحلوى والسجائر والفاكهة والنودل. حدَّقنا في النهر، قال ويل: «سأتمنَّى أمنية رأس السنة من أجلك. آمل أن تجدي من تبحثين عنه. وسأتمنَّى أمنية لي. أتمنَّى أن يبدؤوا العمل ثانية، حتَّى يمكنني البقاء».

- «منذ متى وأنت هنا؟».

* «منذ وقت طويل يكفي كي أحبَّ المكان».

كان وجهه في انعكاس ضوء النار على الماء هادئاً. قلت: «آمل أن تتحقَّق أمنيتك. لا يمكنني تخيُّل كيف يكون نبش قبر». قال ويل: «هناك قبور قديمة. أسهل من القبور الحديثة». جرى ولدان صغيران بجانبنا وقذفا الألعاب النارية عند أقدامنا. قفزنا جانباً ضاحكين، وانعطفنا نحو شارع مظلم. سألت: «عندما نعلم، ماذا علينا أن نفعل؟».

فرقعت ألعاب نارية باللونين الذهبيِّ والفضِّي، انجرفت مثل بذار الصقلاب عبر السماء السوداء. قال ويل: «ربَّما يكون الأمل الوحيد هو أنَّ إنسانيَّتنا قد ترتقي إلى سوية أعلى، وأننا كلَّما اتَّسعت رؤيتنا، كلما آمنَّا أكثر بأننا لسنا مختلفين عن بعضنا البعض».

Twitter: @ketab_n

- 18 -

تخيَّل شارعاً، تخيَّل الاستيقاظ ذات صباح لتسمع أصوات صراخ مراهقين في الخارج: «أيُّها الرفاق، إنها السنة صفر». أولاد ريفيُّون لا يتقنون القيادة يتمايلون في الشارع على متن صهاريج وشاحنات. كانوا يختفون في الدغل. يزعقون بالمكابح، يفرقعون بالمقابض. يصرخون في مكبِّرات الصوت. يطلقون النار ويقتلون كلَّ من يناقش أو يطرح أسئلة أو -لا قدَّر الله- يرفض الخروج من بيته. ليس لديهم القدرة على محاكمة الأمور. لكن يمكنهم اختيار أيِّ شخص ليموت. أغلبهم أمِّيٌّ. تخيَّل الخروج إلى الشارع ومشاهدة رجل يُسأل عن السبب الذي يجبره على مغادرة بيته ومراهق يرفع مسدَّسه ويرديه قتيلاً.

فكِّر في الأم المسنَّة التي لا تستطيع المشي. ولا يمكن لأطفالها الوصول إليها. ارتدى هؤلاء الجنود الفتيان ذوو العيون القاسية بناطيل سوداء فضفاضة وقمصاناً وتجوَّلوا في المستشفى وقتلوا كلَّ من لا يستطيع النهوض. فكِّر في الناس يحاولون دفع أسِرَّة المستشفى على طول الطريق.

تخيَّل الخروج من المدينة. لا يعرف الناس أين سيباتون ليلتهم. ما من ماء صالح للشرب. ولا مكان لقضاء الحاجة. ما من أحد يعلم ماذا سيحمل معه. هل يحمل أحد أعواد ثقاب؟ قدراً للطهو؟ فنجاناً؟ يموت المسنُّون على قارعة الطريق ويمرُّ الناس بهم لأنَّ الجنود يلوِّحون بالبنادق. امرأة

Twitter: @ketab_n

تلد في خندق. أهل المدينة يعانون العطش، مخلوقات جاثمة. رؤوسهم تختلج جوعاً. الأمَّهات تهرع إلى أطفالها. الناس يسلبون الأطباق من الجثث. ماذا في وسعهم أن يفعلوا أيضاً؟ ماذا يمكن للمرء أن يفعل؟

السنة صفر. صار للبلاد اسم جديد. الجميع يعمل في المزارع. بذار. نبات. حصاد بالسكاكين. زريبة. مذراة. جِراب للجنود. الموسيقى ممنوعة. الحديث ممنوع. يضرم الجنود النار في المكتبات والأوراق النقدية. الجميع جائع. لا مصارف. لا بريد. لا هواتف. لا إذاعة.

المراهقون يخدمون "أنكا"، المنظَّمة. القائد هو الأخ رقم واحد. لا أحد يعلم بعد أنه يُدعى بول بوت. لا أحد يعلم أنه كان معلِّماً في مدرسة تدعى "سالوث سار". كيف حدث هذا؟ نام الناس وعندما استيقظوا كان كلُّ شيء قد تغيَّر. هل سيجازف أحد بمساعدة جاره إذا كان مراهقٌ عصبيُّ المزاج يصرخ مسدِّداً بندقيَّته؟

في السنة صفر لا يوجد ماض.

Twitter: @ketab_n

- 19 -

دخلت إلى حانة "غلوب" في جادة سيهانوك ورأيتك واقفاً إلى البار. كان شعرك الداكن لا يزال طويلاً، معقوداً إلى الخلف، وكنت ترتدي قميصاً قطنياً أبيض. استندت على البار، كنت وحيداً ومستغرقاً في الموسيقى. أنت. في بنوم بنه. أينما تذهبين، سأذهب. وعيناك مرقَّطتان بالذهب. داكنتان كالطين. تجمَّع الدم خلف عينيَّ واسودَّت الغرفة وطرفت وتنفَّست ورأيتك ثانية.

شغَّل موزِّع الموسيقى تسجيلاً قديماً لأوسكار بيترسن. أصغيت إلى تلك اللمسة المتطلِّبة اللعوب الملاطفة من معزوفة "المستحيل" على البيانو. الآن وقد وجدتك كان عليَّ أن أعتاد عليك ثانية. عندما انتهت الأغنية بدَّلت قدميك ونظرت من حولك، وعبرت عيناك بي، وحينها شاهدتهما تطرفان مجفلتين وتستقران عليَّ. حيثما تسكنين، سأسكن[1]. وحينها كنت تبتعد عن البار، رافعاً ذراعيك وكنت أطول ممَّا أتذكَّر، لا تزال نحيل القوام أهيف، جلد وجهك ليس بالغ الشفافية، وأحببت من جديد تلك الابتسامة ذات السنِّ المكسورة. حيث تموتين، سأموت، وهناك سوف أدفن[2].

1- سفر راعوث في العهد القديم من الكتاب المقدس 1:16.

2- سفر راعوث في العهد القديم من الكتاب المقدس. 1:17

Twitter: @ketab_n

مسَّت أصابعك أكتافي وشعَّ ضوء كالنجوم وسط عينيك وقلتُ لك بالخميرية: «وجدتك». شعرت بشدَّة ذراعيك من حولي وشممت رائحتك، كما لو أننا حيوانان. كنت في السادسة عشرة من عمري واقفة في لسعة الهواء البارد تحت ضوء صليب على جبل مثلج وكنت امرأة مسنَّة تتذكَّر ليلة وجدتك في رائحة السجائر والبيرة في بنوم بنه. كنتَ الشخص الذي أحببته، وكنت الشخص الذي فقد كل من له في هذا المكان حيث الأشباح تطارد الحزانى والفاسدين، وشعرت بشيء يقبض عليك، نشيج أو إجفالة، وغمر الضوء الغرفة المظلمة.

لم أعد خائفة أبداً. لن يكون عليَّ البحث في البارات المظلمة وحيدة بعد الآن. هرعت لأخبر ماو، كنت أضحك كما كنت أفعل منذ زمن، قبل أخفي الأمور بالضحك. قبل أن أفقد الحب. أحياناً مع عاشق قديم هناك إحساس سريع الزوال بخذلان الجسد. لكن لم أشعر بشيء من هذا. شعرت باليقظة اللانهائية التي هي الحب.

- «هل تعرفني؟».

* «أعرف عينيك».

مددت يدك ولمست شعري، سألتَ: «كيف وجدتِني؟».

- «لا أعرف».

* «منذ متى وأنت هنا؟».

- «لست واثقة».

* «أين تقيمين؟».

- «معك». ثمَّ ابتسمت ثانية.

قلت: «الآن أعرف بأنها أنت، آن جريفز». فجأة توقَّفت وقلت: «أنت تتحدَّثين الخميرية». وشعبك سيكون شعبي، وإلهك إلهي[1].

1- سفر راعوث في العهد القديم من الكتاب المقدس 1:16.

Twitter: @ketab_n

- 20 -

قال لي ماو بعد أشهر: «بورنج سري، بعد أن وجدناه ورأيتُه يذهب معك على درَّاجته ذات العربة الجانبية، ذهبت إلى البيت. لم أرغب في أن أُقِلَّ مزيداً من الأجانب تلك الليلة. أردت أن أذهب إلى البيت وأنام حتى الصباح بجانب آري لأني لم أفعل هذا معها منذ وقت طويل».

Twitter: @ketab_n

- 21 -

بنوم بنه. تأرجح المحرِّك المتمهِّل مع حركة السير، عربات ريكاشه يجرُّها رجال حفاة هزيلون جرياً على الأقدام أو على الدرَّاجات الهوائية، المقطورات رباعية العجلات التي تجرُّها الدرَّاجات النارية، مركبات الأمم المتَّحدة البيضاء، شاحنات "الصليب الأحمر"، سيارات جيب عسكرية وحافلات، فيل يحمل أخشاباً، الشوارع تتغضَّن صعوداً من الواجهة المائية، ينتهي الشارع 51 فجأة عند الشارع 392 ويتقاطع مع الشارع 254، كلُّ شيء موصول معاً دون منطق، مثل الحب بين أفراد العائلة. لافتات على طول الشارع لكلِّ ضروب الإنكليزية: إنكليزية تطبيقية، إنكليزية رسمية، إنكليزية لرجال الأعمال، إنكليزية للتصميم. طلاب بقمصان بيضاء يمشون في فرق صغيرة، وعائلات بأكملها تعود إلى البيت لقضاء الليل على درَّاجة بخارية، دوماً الرجل يقود والزوجة تحمل طفلاً والجدَّة تمسك بالطفل الأكبر سناً، ونادراً جداً ترى امرأة متضرِّرة من الضرب أو الأسيد تجري عارية وتجنُّ في الشوارع.

وهكذا، في بنوم بنه بين الشحَّاذين والمعوَّقين والعاهرات وأطفال الشوارع، في وسط كل ذلك الكفاح القاسي، كنا معاً من جديد. الظلمة فاتنة في كمبوديا بالفعل.

غرفتك البسيطة الصارخة. ضجَّة الشارع، الليل يضغط على مغاليق

Twitter: @ketab_n

عريضة. لمست طاولتك المرتَّبة. جلست على حافَّة السرير. لن يلزم سوى بضع دقائق للحزم والاختفاء. عشت لسنوات في رتابة. كانت صورة عائلتك مثبَّتة بالقرب من الطاولة. كانت صورتانا مثبَّتتين قرب السرير. مروحة عريضة مثبَّتة على السقف. ما زلتَ تستعمل نفس مشغِّل الأشرطة ولقد ثبَّتَّ رفَّين فوق طاولتك، واحداً يحمل بعض الكتب بالخميرية وواحداً صففتَ عليه علب أشرطة صغيرة لموسيقى مقرصنة. كانت آلتك التشابي القديمة ملفوفة في قطعة قماش في الزاوية. استحلَّ حضوري مساحة كبيرة من المكان. ماذا توقَّعت؟ بيت استوائي ينبسط، عائلة، صديقة، مراوح سقف إيقاعية فوق طاولات من خشب السَّاج ومكتبة تملؤها كتب بلغات عديدة؟

سألتُ: «عائلتك؟».

- «لماذا لم تجيبي يوماً على رسائلي؟».

* «أية رسائل؟».

- «هناك الكثير. لاحقاً. سنتحدَّث أكثر لاحقاً».

للجسد ذاكرة. جعلت نفسي في متناولك كما لو أني كنت مكشوفة تماماً. لمستني في اللحظات الأولى مثل أرض مجهولة، على مهل، تتذكَّر طراوة أظنُّك نسيتها. ذراعاك، طعم جلدك، عيناك. بالكاد تمكَّنت من أن أتنفَّس. تعرَّفت لمستك، وتعرَّفت انفراجي كما لو أننا كنا نلد أحدنا الآخر ولادة مؤلمة. لكن لم أتمكَّن من البقاء خجلة، أردتك، لقد أردتك لمدَّة أحد عشر عاماً وأصبحنا أكلة لحوم بشر نبتلع اللحم ونتنفَّس الصلوات. لم أكن خجلة، ولم أهتم حتى لو أنك لن تكون لي سوى هذه الليلة.

قلت فيما بعد وأنت تسرِّح شعري بأصابعك: «لأوَّل مرَّة أشعر بالسعادة منذ أن غادرتك. هذه هي الحقيقة». ثمَّ بابتسامتك الساحرة: «آن جريفز، أنا جائع». قلت: «أعرف».

Twitter: @ketab_n

ظلَّت بصمات يدينا وأفواهنا على جلودنا، ذهبنا إلى مطعم لنأكل "فنم بلونج"[1]، نقلِّب قطع السمك فوق مشواة صغيرة على الطاولة، جائعين، وتناولنا جذوع زهرة مجد الصباح الخضراء مع الأرز. لم نتمكَّن من الكفِّ عن النظر، نتلامس الآن بعيوننا. جاءت طفلة تحمل غمراً من زهور "بكا ماليس"[2] واشتريت جميع طاقات الورد منها وأهديتَها لي، هرعت الطفلة تبتسم لرجل يقف متراخياً عند الزاوية. رفعت ياسمينة إلى أنفي لكنك قلتَ: «القمر بدر اليوم. لا تشمِّيها الآن، فأل سيِّئ. تعالي بها إلى البيت لنقدِّمها لأرواح المنزل».

تحت الطاولة تلامست أقدامنا. تفحَّص نادل اللهب وتحدَّثت معه بسرعة كبيرة فلم أفهم، ثمَّ ابتعد.

قلتَ: «أرى ثلجاً على أهدابك. وأستمع إلى الفرنسية والإنكليزية. أستمع إلى بادي جاي. لكن لم أعد مع فتاة. أنتِ مختلفة الآن، أكثر قوة».

قلت: «الناس لا يتغيَّرون حقَّاً، نحن فقط لم ننهزم لأننا واصلنا المحاولة».

ابتسمتَ وقلت: «ربَّما يتغيَّرون، أيَّتها النمرة الصغيرة».

لم أكن أعرف بعد كيف تغيَّرت، سألتك: «كيف تعيش؟».

* «أُترجم».

- «كانت دراستك في الخارج مفيدة».

أمسكت يدي على الطاولة، وقلت: «ولأمور أكثر من اللغات، أون ساملان».

عرفت بأني سأبقى معك إلى الأبد. أكلنا ببطء وعاد النادل مع رزمة

1- المشاوي التقليدية في كمبوديا.

2- الياسمين.

Twitter: @ketab_n

أوراق صغيرة مربوطة بقطعة من عود أسنان. وضعتها في يدي: «هذه "بكا تشامبا"[1]، من أجلك».

عطر يشبه عطر زهرة الماغنوليا تضوع من ثلاثة براعم رقيقة ملفوفة في ورقة نبات. قاومت وضعها إلى أنفي. نادراً ما وصف الشعراء القدامى الحبَّ المتبادل. كيف أمكنهم مقاومة ذلك؟

- «هل كان لديكِ عشَّاق؟». كنتَ أوَّل من سأل.

* «لم أحبَّ يوماً سواك».

كنا نتجوَّل ممسكين بأيدي بعضنا البعض ومغادرين الحديقة.

* «وأنت؟ لا بدَّ من أنه كان لديك كثير من الحبيبات».

- «ولا واحدة».

قلنا لبعضنا البعض تلك الأكاذيب عن الحب. جلبت حقيبتي من غرفتي الفارغة وأعدتها إلى غرفتك التي كانت تضوع بأريج الياسمين والماغنوليا الآن. وبعد أن مارسنا الحبَّ نمت وحلمت، بعيون مسعورة تندفع إلى الأمام والخلف تحت أجفان مطبقة. وعندما فتحت عينيك ثانية قلتُ: «احكِ لي».

- «لا أرغب في أن تعرفي. في أحلامي كان سوخا يوجه إليَّ الإتهامات دائماً. والداي واقفان خلفه، يحدِّقون إليَّ بعيون متَّسعة صامتة. لكنَّ أخي الأصغر يقف بمواجهتي ويكرّر: لماذا لم تفعل شيئاً؟».

---

1 - الوردة القومية في كمبوديا.

Twitter: @ketab_n

- 22 -

صعقتَ في البداية ممَّا رأيته، أناس من هياكل عظمية يكافحون خدرين عائدين إلى المدينة الصامتة. استولت عائلة على بيت عائلتك القديم. خدراً، وجدت هذه الغرفة في رصيف ميناء سيسواث. انكسر صمت المدينة البكر بصوت شاحنات المساعدات الأجنبية جيئة وذهاباً وبصرخات الجنود الفيتناميين.

بغتة في الشارع قد يتعرَّف شخصان على بعضهما البعض فجأة وينفجران بحديث متقطع، يُنقِّبان في الذكريات عمَّن رأوه مؤخراً وأين، ومن مات ومتى. يقفان في الشارع، أحياناً يمسكان أحدهما بالآخر، ثمَّ يبكيان ويتحدَّثان، مرتاحين لأنهما وجدا شخصاً على قيد الحياة، ويرويان قصَّة النجاة، كلُّ دمعة مثل عود ثقاب صغير مرمي في برميل من البنزين. في السنة الأولى كانت هناك غراس قليلة عندما كافح الناس ببطء عائدين إلى بيوتهم في أنحاء البلاد. ثمَّ تلتها سنتان من المجاعة. عندما وصل عمَّال الإغاثة الأجانب ولم يكن أحدهم يتحدث بالخميرية كان عليك أن تنغمس في عمل الترجمة بشكل متواصل.

قلت: «طوال عهد بول بوت لم يتمكَّن الناس من التكلُّم بحرِّية. الجار يراقب جاره. دُرِّب الأطفال على الإبلاغ عن عائلاتهم. حاول الناس الاختباء بالطريقة نفسها. تظاهروا بأنهم ليسوا من أبناء المدينة، تظاهروا

Twitter: @ketab_n

بعدم فهم اللغات الأجنبية، حاولوا إخفاء الأيدي الناعمة، حاولوا التجول كمزارعين، سائقي تاكسي، بائعين متجوِّلين».

- «من وجدت؟ هل وجدت تيين؟».

* «الموسيقيون كانوا الأعداء. الطلاب أعداء. سكَّان المدن والمتعلِّمون». كل ما كنت عليه كان معادياً.

الروح تحمي نفسها ممَّا لا تستطيع احتماله. لم تتحدَّث عن عائلتك. قلتَ: «لكني وجدت مدرِّس تشابي جديداً. نجا بعض الناس».

نهضت عندئذٍ ثمَّ أخذت التشابي من ركن في الغرفة وفضضت عنها الغطاء. جلست على السرير مصالباً ساقيك ووضعت الآلة في حضنك ونقرت الوترين. غنَّيت أغنية فلكلورية قديمة عن التوق إلى زمن الرياح الموسمية، أون ساملان، مشتاق إلى الذهاب إلى المهرجان مع حبيبك، ترتدين باومونج جديداً، أوه أيَّتها العزيزة، ذاهبان معاً إلى المهرجان مع حبيبك. نظرت إليَّ لترى إذا كنت لا أزال أحبُّ غناءك.

في الأيَّام الأولى لعودتك عبرتَ المدينة متَّجهاً إلى شارعك القديم، مررت بباب منزلك القديم باحثاً عن عائلتك. لا أحد. بحثت في قوائم الأسماء في مركز "الصليب الأحمر". لا شيء.

«التقيت بتشان»، قلتُ لك.

- «هل ذهبت إلى بيتي؟».

* «نعم. كان أوَّل مكان بحثت فيه».

- «كان البلد مثل لوح كتابة متشظٍّ. قبل أن يفكِّروا في الرسم عليه، كان عليهم أن يجدوا القطع ويعيدوا جمعها من جديد».

فتحت دُرجاً وأخرجت دفتراً مدرسياً وقلَّبته لتريني صفحات من كلمات الأغاني مكتوبة بالخميرية بخطِّ يدك الدقيق. «كنت أتعلَّم الأغاني

Twitter: @ketab_n

القديمة». قلت، «أعرف الآن عدداً أكبر بكثير ممَّا كنت أعرف عندما تعرَّفت إليك. لقد انفصلت عن التراث بتدوينها».

ثم أغلقت الكتاب وأعدته إلى الدرج وأخذتني في ذراعيك وقلت: «يبدو أشبه بالحلم، أنت هنا». سرعان ما ملأ ضوء الفجر الخطوط بين المصاريع ولم أرغب في ضوء النهار والحر. استلقينا في السرير نتلامس ونهمس.

- «ماذا فعلتِ؟».

لم أخبرك عن الألم الناجم عن عدم تلقِّي أيّ خبر منك. لم أخبرك كيف تساءلت إذا كان في وسع الإنسان اختراع الحب. لم أخبرك كيف بدأت ألحظ أنَّ الناس يتزوَّجون كلَّ يوم ليس حبّاً بل لأنهم على قدر جيِّد من التوافق، أو بسبب الوحدة. قلتُ: «أوَّلاً حاولت الاتصال بك لكن كان ذلك مستحيلاً. أرسلت رسائلَ إلى بلوف 350. درست، ولاحقاً درَّست».

كانت عيناك زاخرتين بالحياة. ضحكتُ وقلتُ: «استأجرتُ شِقَّتك القديمة. طليت غرفة النوم بالأصفر ثانية. لسنوات حاولت أن أقول لنفسي إنَّ كلَّ شيء انتهى. لكن منذ بضعة أسابيع، رأيتك على التلفاز. كان حفلاً تكريمياً للموتى في مدرسة هنا. ظننت بأني رأيتك بين الحشود».

قلتَ: «لم أذهب يوماً إلى تلك الاحتفالات».

ضحكت: «إذاً لم يكن هناك من داعٍ لكي آتي على الإطلاق».

تظاهرت بالنهوض للمغادرة لكنك أعدتَني وكنت سعيدة بأنه لا يزال في وسعك العزف.

قلتُ: «في الليلة التالية، بعد أن ظننت أني رأيتك، هبَّت عاصفة ثلجية ربيعية متأخِّرة. مشيت من شارع بلوري وعبرت بحانتي يلو دور ولا بوديجا، حيث تذوَّقت أوَّل سانغريا[1] معك، وقرب الحانة التي كنت تغنِّي

1- مشروب اسباني.

Twitter: @ketab_n

فيها. صعدت إلى قمة الجبل مروراً بالجامعة، حيث تجادلنا بشأن رحيلك، ثمَّ مشيت نحو كنيسة "سان جوزيف". هل تتذكَّر كيف شاهدنا الناس يصعدون الدرج على ركبهم؟ لم أرغب في الذهاب إلى البيت ومشيت مباشرة نحو محطة القطار مروراً بكنيسة "ماري ريني دو موند". كنت متعبة لكني واصلت المشي، نحو الحي القديم في مونتريال، مروراً بحانة "لير دي تومب"، وتذكَّرت سوني وبراوني. أخيراً ذهبت إلى البيت. كلُّ المدينة وكلُّ خطوة ذكَّرتني بك».

انزلقت دمعة واحدة على حافَّة أنفك ومسحتها. قلت لي: «لنخرج ونتمشَّ».

- «لا، انتظر. قل لي ماذا حلَّ بعائلتك».

* «ما أعرفه يخصُّ أشخاصاً آخرين. من الأفضل أن نقفل عليه في صندوق مطبق. لنخرج».

تبعتك، بالتأكيد. عبرنا الشارع إلى متنزَّه فسيح بمحاذاة النهر. رأيت عربة سوفيب لبيع النودل وتوقَّفنا لنأكل، وعندما رأتك برقت عيناها وسألت: «هذا هو؟».

أومأت وضحكَت وناولتنا وعاءين من النودل، قالت: «مجَّاناً اليوم. اليوم احتفال». بعد أن انتهينا من تناول الطعام مشينا على طول النهر في حرارة الصباح المتصاعدة وقلت: «ومن تعرفين هنا أيضاً؟ نسيت كم أنت متحرِّرة!».

مشينا أمام القصر الملكي وقلت: «هل زرته؟». مررنا عبر سرادق تشان تشايا حيث سبق أن رقص الراقصون، صعدنا السُّلَّم الرخاميَّ فوق البلاط الفضِّيِّ لمعبد بوذا الزمرُّدي بودجا متعدِّد الأدوار. نظرنا إلى بوذا الزمرُّدي المصنوع من كريستال البكاراه وبوذا الذهبي المغطَّى بالألماس وتذكار

Twitter: @ketab_n

فضّي وذهبي صغير يحتوي على رفات بوذا من سريلانكا. كان نصب بوذا البورمي المصنوع من الرخام أكثر ما أحببت، وأريتني مكتبة النصوص المقدَّسة المنقوشة على أوراق النخيل. راقبنا طفلين يلعبان لعبة تشبه "إكس-أو" في الرمل، ونظرنا إلى أسطح القصر الذهبية بذراها التي تشبه اللهب وأفاعي الناجا والموزاييك الأزرق الزاهي، وراقبنا السحالي تندفع تحت جرار ضخمة مزروع فيها النخيل. قلت: «تذكرين كيف زرنا جميع كنائس مونتريال؟». عدنا سيراً على الأقدام إلى مقهى على الرصيف يقع تحت نادي المراسلين الصحفيين وشربنا قهوة إيطالية ثقيلة وتحدَّثنا عن أحد عشرة سنة من الأيّام. قلتَ ضجراً: «لنذهب ونسمع بعض الموسيقى».

Twitter: @ketab_n

- 23 -

اعتقدت أننا كنا ذاهبين إلى مقهى، لكن بدلاً من ذلك تبعتك إلى مخيَّم أكواخ يدعى "دي كروهوم". اشتريتَ كيس أرزٍّ من أحد المتاجر. صفٌّ من أكواخ مصنوعة من حديد مضلَّع وكسوة بلاستيكية وخيزران مجدول. قشور ثمار جوز الهند المكسورة على الأرض. رائحة فحم نباتي ومواقد الحطب. قدتني عبر الدروب الضيِّقة إلى منزل يسكنه رجل تكسو بشرته الندوب، غافٍ على سرير خشبي يضع نظَّارات شمسية سوداء. ناديتَ برفق: «عمّي، إنه أنا»، ووضعت الأرزَّ تحت سريره المضلَّع الخشبي.

في الحال قسمت ابتسامة عريضة وجهه نصفين وهو ينهض، انحنيت على شعري ومزحت بالإنكليزية: «قابلي راي تشارلز»، وقلتَ له باحترام بالخميرية: «المعلِّم كونج ناي، بصحبتي صديقة تحبُّ موسيقاك». صافحته. ابتسم ناي لي وعصر يدي في راحته الدافئة. قلتَ: «هلَّا عزفت؟». نادى لامرأة شابَّة في المنزل، عادت بآلته القديمة.

ثنى ساقيه جانبياً تحته وعزف وغنَّى قصصاً عن عمالقة وحصاد وغنَّى اسمه. ظهرت فتاتان صغيرتان من الحافَّة الخارجية لبيته ورقصتا، برسغين محنيين إلى الخلف، أصابع رشيقة تنفرد، وانسلَّ الكبار مبتعدين عن مواقد الطبخ ليستمعوا. شعر كونج ناي بأنَّ زوجته تقترب والتفت نحوها بتلك الابتسامة المشرقة. عزف الموسيقى التي سمعتها على مسجِّلتك في غرفة

Twitter: @ketab_n

شارع بلوري، تأوَّهت الأوتار والصوت البشري على نغمة البلوز. نظرت نحوي ونحو أصابع المعلِّم وطالعت الحشد الصغير من المستمعين.

مات أغلب الموسيقيين وأغلب الراقصين وأغلب الرسَّامين. بعض ممَّن نجا اختفى بعيداً وغرق في الثمالة. كان على البعض التظاهر بالجنون لينجو، ولم يتمكَّنوا من التخلُّص من جنونهم المزعوم بشكل كامل. قال البعض: قُتل فنَّانون أفضل مني، لكنهم وجدوا القوَّة لمتابعة العمل. عندما انتهى ناي، قال لي: «تعالي في أي وقت. أحبُّ العزف».

خرجنا عبر الدروب الضيِّقة وقلت: «ناي هو من أردت أن آتي به إلى "لير دي تومب"».

عرق مالح ودخان خشب يحترق والنهر. ضوء نيران صغيرة، رائحة طهو الأرز والسمك المقلي. ظلمة مدينة لا تزال غير مُنارة.

- «كيف نجا؟».

* «حصد محاصيل الذرة والفاصولياء. صنع حبالاً من النخيل. غنَّى أغنيات ثورية. مع دنو النهاية، أُدرج اسمه على قوائمهم أيضاً».

Twitter: @ketab_n

- 24 -

كتبت لي. رسالة زرقاء في البريد الجوِّي مرَّةً أسبوعياً. فكَّرت مراراً وتكراراً عندما أخبرتني: «كيف استطاع بابا أن يفعل هذا بي؟».

- «كم استمررت في الكتابة؟».

* «أرسلت لك رسالة الأسبوع الماضي. الرسائل لم تعد أبداً. كانت تصل إلى مكان ما. اعتقدت أنَّ واحدة منها قد تنجو. أحياناً لم أفكِّر في شيء. كتبت فقط».

- «لِمَ لمْ تتَّصل؟».

* «أون ساملان، فعلت، مرَّة. أجاب والدك وقال: لا تتَّصل ثانية. لديها شخص آخر».

خيانة. أبعدك والدي عني باسم الحبِّ ومع ذلك وجدتكَ. لم أقرأ كلماتك التي روت -الآن وقد رحلت- حبَّك الذي لا يموت.

يكتم الناس الأسرار عن بعضهم البعض طوال الوقت. يخفي الناس عشَّاقاً. تخفي النساء الأطفال. يخفي الأهل ضعفهم عن أطفالهم. يخفي الأطفال حقيقتهم عن والديهم. من نهينُ بأسرارنا؟ لماذا نصبو إلى الحبِّ عند الهجر؟ الحبُّ الذي لا يمكن أن يدوم. العالم هو خارج الحديقة. نغطِّي أجسادنا ونواصل العيش والأمل حتى نهاية الحبِّ في الهجر.

مرَّة أخرى.

Twitter: @ketab_n

- 25 -

بعد بضعة أيَّام رنَّ هاتفك صباحاً.

أجبت: «مرحباً؟... بات... بات... بان... حسناً، وداعاً».

عندما أغلقت الهاتف قلتَ: «عليَّ أن أعود إلى العمل».

وهكذا استقرَّت أيَّامنا في إيقاع مريح. باكراً كلَّ صباح كنتَ تخرج إلى العمل وتعود منتصف الأصيل. تجوَّلتُ في المدينة، الأسواق، الأزقَّة الصغيرة، المعابد. زرتُ تشان في حيِّك القديم. تحدَّثت مع سوفيب. وجدتُ موقف سيَّارات الأجرة حيث ينطلق ماو كلَّ يوم قبيل الفجر. عندما كان الجوُّ حارَّاً جدَّاً ذهبتُ إلى حوض السباحة في الفندق الكمبودي وسبحت وراقبت الأجانب. قلتَ إنك تعمل مترجماً وصدَّقتك. لم ترغب في التحدُّث عن عائلتك. وثقتُ بك. اقتنعتُ، كان هناك ألم كبير. عندما رنَّ الهاتف، التطفُّل الوحيد في غرفتنا، قلتَ إنك تنظِّم مواعيد العمل وبالتأكيد صدَّقتك.

تغلق الهاتف وتقول: «سأعود في وقت مبكِّر اليوم، بعد ساعتين تقريباً، أون ساملان. علينا الليلة الذهاب إلى الغلوب. استمعي إلى الموسيقى، أراك لاحقاً».

حديث أسري. أكثر غرابة من حديث العشَّاق، عشت طويلاً بمفردي. أحببت وعدك العابر في كلِّ مرَّة عند مغادرتك، أراكِ لاحقاً. لم أطلب

Twitter: @ketab_n

المزيد. لم أسأل عن مكان عملك أو لصالح من تعمل. فكَّرت: لدينا الأبد.

انتظرت هذا طويلاً. مارسنا الحب في الأصائل المتأخِّرة الباردة، وفي المساءات تجوَّلنا في المدينة سيراً على الأقدام أو على درَّاجتك البخارية ذات العربة الجانبية. كثيراً ما كنت صامتاً. لكنك لا تزال تحبُّ عزف الموسيقى وتعلَّمت ثانية أن تمازحني. أكلنا من عربات الطعام وجلسنا على مقاعدَ ننظر إلى النهر، وحدَّثتك عن أصدقائنا القدامى في مونتريال، كيف أن شارلوت تزوَّجت وأصبح لديها ثلاثة أطفال، وكيف أصبح لـ"نو إكست" إدارة جديدة، ثمَّ انجرفنا بعيداً عن الموسيقى إلى مكاتب وزيجات وأطفال، حدَّثتني عن السفر شمالاً إلى قرية أجدادك وإيجاد صديق.

قلتُ ذات صباح: «أريد الذهاب إلى شونج إك. هلا قدتني هذا الأصيل؟ أريد أن أرى ميادين القتل».

- «لماذا الذهاب إلى شونج إك؟ أنت تعرفين ما حدث فعلاً».

* «أريد أن أرى بنفسي. تعال معي. أريد أن أعرف ما تعرفه».

بدت على وجهك علامات الرفض وقلت:

- «لا حاجة إلى الرؤية. أنت تعرفين».

* «لكن أريد أن أرى».

- «لا داعي إلى ذلك، أيَّتها النمرة الصغيرة».

بعد أن غادرت عبرت المدينة نحو "بسار تول توم بونغ"،السوق الروسي، ووجدت ماو وطلبت منه أن يُقلِّني.

ابتعدنا عن المدينة وسلكنا شُعْباً في الطريق الذي يفضي إلى بستان قديم من أشجار اللونجان[1]. كان العشب نامياً في الحقول، وأوى ضريحٌ في ميادين القتل ثمانية آلاف جمجمة. تدفع الذاكرة في شونج إك جوفها

1 - فاكهة استوائية.

Twitter: @ketab_n

القاتم إلى السطح مثل خنفساء ماء تختبئ في أرض منبسطة. نما عشب كثير في وهاد الأرض. أضرحة الجماجم والعظام. السماء. اقترب منا شابٌّ يرتدي ثياباً أنيقة، قميصاً نظيفاً وبنطالاً قطنياً خفيفاً. كانت عيناه باردتين جدًّاً فلم أستطع تحمُّل النظر فيهما، وقال: «سأروي لكما ما حدث».

جلسنا معه وقال: «رأيت بأمِّ عيني كيف قتلوا. في سريَّتي دعوا إلى اجتماع كبير. جرجروا رجلاً وزوجته وعصبوا أعينهما وربطوهما إلى شجرة. طلبوا من سريَّتي المجيء لترى الناس الذين وقعوا في الحب دون تصريح من أنكا».

«ماذا علينا أن نفعل؟». صرخ القادة.

صرخت سريَّتي بدورها: «اقتل! اقتل!».

«صرخت بهذا أيضاً. تقدَّم الفتى الواقف بجانبي بعصا مصنوعة من الخيزران وضرب الرجل على رأسه. نفر الدم من أنفه وأذنيه وعينيه. أزالوا العصابة عن عيني المرأة وامتقع وجهها وأغلقت عينيها وضربوها أيضاً. بعد ضربات كثيرة قضوا عليها. فعلت هذا أيضاً. ضربت إنساناً على قيد الحياة بقسوة على الرأس والعنق والمعدة».

- «لماذا صرخت: اقتل، اقتل؟».

حرَّك يديه في حلقات أمام صدره وقال:

* «لم أشعر بأيِّ شيء ذلك الحين. خرجت مني الكلمات مع كلِّ الأصوات الأخرى».

استعمل الخمير الحمر كلمات لقتل الناس. "توك مين تشوم نين دورك تشين كور مين كات. سام آت كمانج". قالوا هذا مراراً وتكراراً، الإبقاء عليك عديم الفائدة، خسارتك ليست خسارة. تخلَّص من الأعداء.

تلك كانت عبارات لم أتعلَّمها أبداً.

Twitter: @ketab_n

رفع الشابُّ يديه على شكل قمع مفتوح أمام وجهه ونظر من خلالهما. قال: «أنا ميت حي. لديَّ جسدي، يمكنني الحركة، والكلام، وتناول الطعام، لكني لا شيء».

ثمَّ غرق في الصمت.

قال ماو: «يا أخي الصغير، ما نفكِّر فيه نؤول إليه».

راقبنا ولدين صغيرين يلتقطان الضفادع من أخاديد الحقول، يركضان خلف حقول الأرز وقصب السكَّر وملابس وعظام. فعل العشب فعله.

عدنا إلى الدرَّاجة وسألت ماو: «كيف نجوت؟».

مرَّر مفتاح درَّاجته فوق راحة يده. قال: «بورنج سري، لا أحبُّ أن أتحدَّث عن ذلك الوقت. كنت ابناً لصيَّاد سمك. تظاهرت بأني لا أعرف القراءة وساقوني لبناء سد. عندما انتهى، كان رأس السنة البوذية. انضممت إلى حلقة من الأجساد التي رقصت وصفَّقت حول النار تحت ضوء القمر. شعرت بأني حرٌّ أخيراً. نظرتُ إلى الآخرين عبر الحلقة وكانوا جثثاً راقصة، ونظرت تحت إلى جسدي وكان أيضاً مجرَّد جلد مبسوط على العظام. لكني واصلت الرقص. كنا سعداء جدَّاً. عندما وصلنا إلى بنوم بنه، تمكَّنت آري من استئجار قطعة من الأرض لزراعة الفطر، وبالأرباح اشتريت درَّاجة لأعيش حياة كريمة. هذا ما حدث لي».

بصمت التفت ماو عني. «تعالي، بورنج سري»، قال. «لقد رأيت بما فيه الكفاية».

عندما عدت، كنت جالساً مصالباً ساقيك على السرير تعزف على غيتارك وجلست قربك ووضعت ذراعي حولك وقلت: «بورنج ساملان، زرت اليوم شونج إك».

لم تنبس بكلمة ولم تضع غيتارك جانباً. راقبتك تزلق أصابعك المتصلِّبة

Twitter: @ketab_n

على عنق الآلة وتعزف مزيداً من الألحان. وضعت يدي على يدك اليمنى كي تتوقَّف عن العزف وقلتُ: «لا يمكنني التعايش مع صمتك».

ومع ذلك لم تتكلَّم. ولأوَّل مرَّة منذ أن اجتمعنا ثانية تحدَّثتُ بكلمات باردة، بصبر نافد، بالكاد أحتمل تذكُّرها. «أنت مثل روح عرفتها سابقاً»، قلت. «تحدَّثْ إليَّ. قلْ لي ماذا حدث».

ساد هدوء وجِل. بعد وقت طويل رفعت يدك لتمسَّ شعري بأصابعك، ومددت يدك عبر الغيتار وجذبتني إليك وضغطت خدَّك على رأسي، ثمَّ قلت: «دوماً تتضوَّعين برائحة شذية جدّاً».

ثمَّ أعدت يديك إلى غيتارك وابتسمت بخفَّة وقلت: «أتساءل إذا ما كنتِ تتذكَّرين هذه». غنَّيت، لا يمكنني أن أنال ما فيه الكفاية من عذوبتك، ورأيتك على المسرح منذ وقت طويل، عندما كنت لا تزال طالباً تدرس الرياضيات سحَر الجمهور من بعيد، لكني لم أغنِّ معك.

قلتُ لك:

- «أحياناً الأشياء التي تجذب الناس إلى بعضهم البعض هي الأشياء نفسها التي تفرِّق بينهم».

* «هل تريدين أن نذهب إلى النهر لزيارة المعابد قرب المكان الذي كان يعيش فيه أجدادي؟ سوف أريك من أين أتيت».

Twitter: @ketab_n

- 26 -

كانت المياه منخفضة قبل الرياح الموسمية، مع ذلك انطلقنا برحلتنا في مركب شركة رويال إكسبريس الذي له شكل حبَّة دواء رحلة الأربع ساعات من رصيف ميناء سيسواث.كان التلفاز يعرض المسلسلات التايلاندية المزعجة والتسجيلات الموسيقية المصورة من هونج كونج. حالما ابتعدنا عن الأرصفة، خرجنا من الباب ومشينا على الحافَّة العلوية الضيِّقة لنجد مكاناً على سطح المركب. ربطنا كرامات1 على رؤوسنا وراقبنا القرى المرفوعة على ركائز عند حافَّة النهر. جلسنا كتفاً إلى كتف، الريح في أذنينا، مرتاحين معاً، كما لو أننا كنا نقود درَّاجتك على طول شاطئ سان لورانس. قلتَ: «ستتذكَّرين هذا النهر طيلة عمرك».

تعطَّل مركب الرويال إكسبريس وانتظرنا على الشاطئ مركباً آخر أصغر حجماً، نراقب الأطفال. تحدَّثتَ عن بيت أجدادك في بوم قرب معبد "أنكور"؛ قرود تتنازع فجراً، مغنو التشابي عند الغسق، أصوات أجراس تتردَّد عبر القرية. قلتَ لي بصوت يرقُّ بالعاطفة إنَّ رجلاً عزفت معه في صباك سيكون في استقبالنا. نظرت في الماء الذي يبرق بالذهب ورأيت عينيك في التموُّجات.

---

1 – Krama: وهو رداء تقليدي كمبودي له عدة استعمالات. منديل أو وشاح أو غطاء للوجه.

Twitter: @ketab_n

مرَّت أسراب من طيور البلشون الأبيض على سطح البحيرة العظيمة وارتفعت أشجار سامقة من المياه الضحلة. عندما تلجلجت دعامة المركب الصغير عند الوحل، توقفنا ثانية، تدلى السائق من على المركب حاملاً مفتاحاً إنكليزياً. تحركنا نحو الداخل لنهرب من الشمس القاسية، وسرعان ما دار المحرِّك ثانية واندفعنا عبر السبخات الضحلة عندما انبسط النهر في البحيرة، قدنا مروراً بالأشجار النامية من الماء نحو رصيف عائم حيث تنتظر القوارب الصغيرة. نادى الرجال بعروض رحلة بالمركب نحو الممر الضيِّق الوثَّاب على ركائز فوق السواحل الموحلة.

ناديت ولوَّحت منفعلاً: «آ-ليب!»، إلى رجل في مركب هلالي الشكل بمجذاف طويل نصف متآكل بمحاذاة الماء. قفزنا إلى مركبه وقادنا نحو مجاري القرية المائية العائمة، صفوف من المنازل العائمة رُبطت على طوَّافات من براميل النفط، متاجر عائمة تبيع السجائر وزجاجات الصودا بمحرِّك نفط خارجي، مدرسة من ألواح خشبية أرجوانية عائمة وعيادة طبيةٍ عائمة. ربَّما كان رسماً ساحراً في كتاب للأطفال لكن عن الفقر والكفاح. عمل أهل القرية العائمة في زرائب سمك مسوَّرة بالخيزران، ومركب الشرطة الرمادي ورشاش منصوب على جانبه كان راسياً قرب مكتب عائم موسوم بـ"مكتب شرطة فلوفيال". دوَّم ولد صغير عار بابتسامة عريضة في سطل عائم.

انزلقنا مروراً بالمنازل العائمة المغلقة بمصاريع زرقاء وشرفات عائمة وأصص زهور معلقة. نقلنا ليب بمجذافه الوحيد إلى منزل صغير يطلُّ على البحيرة وكانت مواعين صيد سمك راسية بالقرب. راقبت شمس الأصيل المتأخِّر تضيء وجه ليب الهادئ نحاسياً وأرجوانياً.

قلت لي بالإنكليزية: «كان جدُّ ليب على معرفة بجدِّي. لعبنا معا في

Twitter: @ketab_n

طفولتنا. عندما عدتُ أوَّلاً رآني في قرية أجدادي وقال: هذا أنت؟ وقلتُ: «هل أنت حي؟».

غادرنا ليب عند منزل عائم عندما غابت الشمس وجلسنا على حصر من الخيزران على الشرفة ننظر إلى البحيرة. سرعان ما ظهرت زوجته من خلال فجوة في الظلمة تقرفص في مقدَّمة مركبه. ناولتنا الأرزَّ الساخن ملفوفاً في أوراق وسمكاً منقوعاً في حليب جوز الهند ومخبوزاً في ورقة موز. تحدَّثنا عن الصيد وعن الرياح الموسمية القادمة وقلتُ: «تعالي انضمِّي إلينا».

لكنها أومأت إلى جدران الخيزران وأجابت بصوت ناعم: «الآذان في كلِّ مكان. عيون كثيرة بعدد عيون الأناناس». ثمَّ اختفت ثانية في أزقَّة القرية المائية.

«لماذا هي خائفة من الجلوس معنا؟» سألتُ.

قلتَ ممازحاً: «ربَّما بسبب لكنتك».

لم أفهم حينها أنَّ الناس في كلِّ مكان يراقب واحدهم الآخر. وأحياناً يبلِّغون وأحياناً لا يفعلون في هذا المكان الذي لم يكن حُرَّاً.

أكلنا وعبَّأنا زجاجات مياه كبيرة. أصغينا إلى عائلات الصيَّادين عند أفول النهار، الأطباق والقدور، ألعاب الورق، بكاء طفل، الدمدمة الخفيضة للثرثرة المسائية. كانت البحيرة واسعة وناصعة البياض. الناس الذين ينامون مع حلول الظلمة ويستيقظون قبل انبلاج الفجر تناهوا إلى الصمت توَّاً. راقبوا طوال اليوم السماء والماء، قرأوا علامات الساعات المتغيِّرة والفصول، كرَّموا الآلهة بلا تصنُّع كما يتنفَّسون، انتظروا ارتفاع براميل النفط ثانية لتعوم القرية في البحيرة. دارت النجوم في السماء. كلُّ شيء ينجرف ويعود.

Twitter: @ketab_n

أخرجت مرجانة بوذا زهرية اللون صغيرة على سلسلة فضِّية رقيقة من جيبك وعقدتها حول عنقي. لم أكن أملك شيئاً لأعطيك إيَّاه سوى ميدالية القدِّيس كريستوفر القديمة التي أعطاها والدي لأمِّي ولي من بعدها، وحللتها وعقدتها حول عنقك.

تبادلنا العهود بيننا بأجسادنا. في الظلمة وحيدين معاً، قلنا إننا سنعتني ببعضنا البعض حتى الممات. لم يكن من شاهد علينا وهكذا كنا مشهودين فقط بالفقد المجهول وبالأجيال القادمة. وتلك كانت الليلة التي حبلت فيها بطفلتنا، روح تغادر سماء الأسلاف الجافَّة لتعيش من جديد في عظم ولحم.

Twitter: @ketab_n

- 27 -

أقترب منك أكثر. أنا منهكة. ألم هذه الحكاية عظيم للغاية حتى أني نسيت أن أتنفَّس. أتشوَّق إلى حنوِّك. طوال ثلاثين سنة كنت أتشبَّث بكلمات ربَّما تمنحني قدراً من الراحة.

«أرغب في إسعاد الموتى أكثر ممَّا أرغب في إسعاد الأحياء»، هذا ما قاله سوفوكليس.

«الحبُّ يحمي دوماً، يُطَمئِن دوماً، يأمل دوماً، ويعتصم بالصبر دوماً»، هذا ما قاله القدِّيس بولس.

قال بوذا: «ما نفكِّر فيه نؤول إليه».

Twitter: @ketab_n

- 28 -

كنا جالسين إلى البار في نادي المراسلين الأجانب نتطلَّع إلى الشارع وجاء ويل من خلفي. قال: «آن جريفز، أين كنت؟ هل وجدته؟».

ضحكتُ وقلت: «أعرِّفك بويل ماراكل. من مونتريال».

عاينك ويل وقال: «أتذكَّركَ. رأيتك في فرقة موسيقية في مونتريال».

قلتَ: «مضى على هذا وقت طويل».

تململ ويل قائلاً: «لقد جئت للتوِّ من "سيم ريب". يعرض هناك مشهد تمثيلي. هل سبق أن انتشيت في معبد؟ هل تعلم فيمَ أفكِّر؟ إنَّ للناس دماغاً علوياً وآخر سفلياً. الدماغ السفلي هو للنجاة والغواية. أحبُّ الدماغ السفلي. هل يودُّ أحدكما أن يشرب كأساً؟».

شعرت بأنني في الوطن؛ بملاقاة الأصدقاء القدامى، ومتابعة المجريات، والنكات، والحديث. كما يمكن أن تكون الحياة.

قال ويل: «فنٌّ خاصٌّ بالمعابد، أجساد تسقط في الجحيم، قصبات من الضوء على بحر من الحليب المخيض. السجود لشيفا[1] في الملك. كان كبارهم متناغمين للغاية مع حياة الدماغ السفلي. هل رأيت النقوش؟ إذا كان في وسعك أن تلتقي بأيِّ فنَّان، بمن تحبُّ أن تلتقي؟».

---

1 - شيفا المدمر وهو أحد أهم الإلهة في الديانة الهندوسية.

Twitter: @ketab_n

سألتَه: «حي أم ميت؟».

* «لا يهم».

- «تشارلي مينجوس».

نظر ويل إليَّ فقلتُ له: «بادي جاي، لا، ويل كيمب».

* «من؟ لا يهم. أودُّ أن ألتقي بنحَّات معبد. أحبُّ أن أعرف ما الذي جال في فكره وهو يعمل، ما جال في فكره عندما نقش فيلاً يقذف شخصاً في الهواء، أو كاما[1] تموت بين ذراعي حبيبها. ربَّما كان مجرَّد عامل ذي مهارة خاصَّة مثلي. ربَّما نهض في الصباح ونحت طوال النهار حتى تعبت عظامه ولم يفكِّر كثيراً إلا في مصدر نبيذه المصنوع من النخيل. أريد أن أعرف ما الذي أحسَّ به عندما نقش جميع نهود الأبسارا[2] تلك. أريد أن أعرف إذا ما تعفَّف كما أفعل وأنا أعمل. الوقت يزول. هؤلاء النقَّاشون لا يجب أن يخطئوا. تخيَّل جداراً نُقشت عليه صورة الإله فيشنو[3] مضاءة بالانقلاب الشمسي، أو برجٌ من مئات الأبسارا، وأنت تنحت بعد أن أمضيت ليلة سيِّئة ولا تستطيع العمل بثبات فتنحت بطريقة خاطئة وتخرب واحدة من ابتسامات الأبسارا التي تشبه ابتسامة الموناليزا. سُيقضى عليك حينها».

ضحكنا.

* «هكتارات من النقوش، ما من زلَّة، كلُّ نقش مختلف. كلُّ نهد يختلف عن الآخر بفوارق طفيفة. لا بدَّ من أنَّ النقَّاشين فكَّروا في هذا. عندما أحدِّق

---

1 - وتعني الرغبة أو الشهوة وهي واحدة من أهداف الحياة الأربعة عند الهندوس، وهو اسم إلهة الحب.

2 - apsara: وهي الأرواح الأنثوية للغيوم والمياه في الميثولوجيا البوذية.

3 - فيشنو أحد الإلهين الرئيسين عند الهندوس الذين يطلقون عليه اسم الحافظ لطبيعته العطوفة.

Twitter: @ketab_n

في وجوه الملوك الحجرية أشعر بحركة عيونهم، أحسُّ بأنفاسهم. ينظرون في الاتجاهات الأربعة، ينتظرون حلول الظلام ليمسكوا بواحد من راقصي المعابد، ينتظرون الصباح ليفقدوا صبرهم ويحكموا على فلاحٍ فقيرٍ أبلهَ بالموت. تلك العيون المغرورة، في منتصف الطريق إلى الله، المقيِّدة بأعناق حجرية. أحبُّ الطبقة السفلية للدماغ من الأشياء».

قلت: «لا بدَّ من أنك كنت نقَّاشاً في حياة أخرى».

قال ويل: «أنا أؤمن فقط بهذه الحياة. ولا أؤمن بها في كثير من الأحيان أيضاً».

ويل دوماً يضحكني.

قلتَ: «نحن لا نعرف أبداً في أي حياة نعيش».

Twitter: @ketab_n

- 29 -

كان الجميع يتحدَّث في الخارج عن الديمقراطية في كمبوديا. لم يتحدَّثوا عن القتال والمعسكرات المخفية في الأدغال، وتهريب الأسلحة والناس، أو عن حقل ألغام يدعى ك 5 الذي يمتدُّ من خليج تايلندا إلى حدود لاوس.

قال الناس: «سوف تراقب الأمم المتَّحدة الانتخابات الأولى». قالوا: «يجب على منظَّمات الإغاثة أن تساعد في إعادة الإعمار». قالوا: «تعب الناس من الحرب». قالوا: «اتفق القادة في باريس على الانتقال السلمي».

الأدغال بعيدة جدًّا عن الشانزليزيه. كلُّ قائد يخفي قوَّاته: فونسينبيك[1]، سون سان[2]، الخمير الحمر، القوى المسلَّحة الثورية. كان الناسُ لاجئين في بلادهم، يتضوَّرون جوعاً، يُقتلون بالرصاص، يُقذفون مثل أعواد ثقاب صغيرة على طول حقل الألغام المسمَّى ك-5.

تمدَّدتَ على السرير تقرأ صحيفة، وجلستُ إلى طاولتك أدرس الخميرية. مرَّرت إصبعي تحت الخطِّ المتموِّج وقرأت: إذا انحنى النمر، لا تقل إنَّ النمر يُبدي احتراماً. إذا شككت بخيانة زوجتك، لا تدعها تمشي

1- الحزب الملكي في كمبوديا.

2- Son Sann (1911-2000): سياسي كمبودي بوذي شغل منصب رئيس الوزراء وفيما بعد أصبح رئيساً للجمعية الوطنية.

Twitter: @ketab_n

خلفك. سألتك: «لماذا هناك الكثير من الأمثال عن الشك؟»، وضحكتَ: «لأنه لا يمكن لأحد أن يثق في أيِّ شخص». تناولتُ صحيفتك وفككت شيفرة العنوان الذي يحكي عن قدوم المزيد من المراقبين من أجل الانتخابات. قلت: «ربَّما يمكنني الحصول على عمل في الترجمة معهم. أو مع الأمم المتَّحدة. أحتاج إلى العمل أيضاً». أجبتني: «إنهم عديمو الفائدة».

تقلَّبت خارجاً من السرير تدفع الصحيفة على الأرض، قلت: «الكلاب تنبح والقافلة تسير».

- «ماذا يعني هذا؟».

* «يعني أنَّ الأجانب يأتون وينبحون لكنَّ كلَّ شيء يستمرُّ على حاله».

- «لكن على شخص ما أن يرى».

* «آن، أنت لا تفهمين. إنهم يحاولون دخول القرى بشاحناتهم البيضاء وقبَّعاتهم الزرق لكن الجنود يوقفونهم بقوَّة السلاح. ليلاً يُرغَم الناس في الأرياف على ابتلاع الرصاص، ويقول لهم الجنود إنهم إذا لم يصوِّتوا كما يأمرونهم فستنفجر هذه الرصاصات في صدورهم. إنهم يُجبِرون الناس على القسم ببوذا ويضربونهم لتذكيرهم بذلك. يرمون القذائف على منازل أعيان القرية. يذهب الأجانب إلى فنادقهم المريحة ولا يرون شيئاً. هنا مثل آخر: المانجا والبرتقال متشابهان، كلاهما حامض المذاق».

تذكَّرت خوفك واقفاً في المطبخ في شارع بلوري، ممسكاً بالبرقية الأخيرة التي أرسلها والدك. اعتقدت أننا كنا مجرَّد شخصين عاديَّين يُحبَّان بعضهما البعض بأفضل ما استطاعا. لم أعرف أنك كنت تعمل مع المعارضة، تلتقط صوراً، تكتب خطابات، تترجم قصصاً للغرب. لم أستوعب ما رأيته بأمِّ عيني، أن جميع من يعارض الحكومة يمكن أن يقتل

Twitter: @ketab_n

لأي سبب. هل فكَّرت في السبب الذي جعلك تخفي الأشياء عني؟ هل كان هذا ديدنك في العزلة الطويلة؟ هل كانت هناك قصَّة حبٍّ عتيقة عن محاربين يعودون إلى نساء بعد الحرب؟ هل كان اغترابي؟

قلت: «يستغرق الأمر قروناً لإرساء نظام حر. حصل هذا في الغرب، ويستغرق الأبد لحمايته». رفعت يدك ولوَّحت لي مبتعداً. تفادت عيناك عينيَّ. كيف تهيننني بحياتك السرِّية؟ شعرت بذهولك عندما لمستك. افتقدتُ ابتهاجك السابق بي. قلتُ: «قل لي ماذا تفعل كلَّ صباح. أريد أن أرى أين تعمل».

- «إنه لا شيء. مجرَّد ترجمة».

* «ترجمة لمن؟».

- «لمن يحتاجها. الكثير من الناس».

* «أين؟».

أجبت بقسوة: «كفِّي عن طرح الأسئلة! ما أفعله هو ما أفعله. أنت تخنقينني».

التقطت حقيبتي كما لو بنيَّة المغادرة. «عليك اللعنة»، قلتُ. قلتَ بصوت رقيق: «أون ساملان، تعالي إلى هنا. حسبي أنني أحاول المضيَّ قدماً. لا تقيمي في الماضي، لا تحلمي بالمستقبل، ركِّزي العقل على اللحظة الراهنة». حينها وضعت ذراعيك حولي. جسدك يذيبني دوماً، وعرفت هذا واستعملته ضدِّي.

قلتُ: «هل تذكر كيف كنتَ عندما عرفتُكَ في البدء؟ هل تذكر كيف تحدَّثتَ عن كلِّ شيء؟».

- «لم نتحدَّث عن كلِّ شيء. كنتِ صغيرة جدَّاً».

* «أنا لستُ صغيرة الآن».

Twitter: @ketab_n

ثمَّ جذبتني إليك. قد أسامحك على كلِّ شيء لأشعر بملمس جلد أصابعك الخشن على جلدي. كنت حيواناً. تناولت حقيبتي لكن إلى أيِّ مكان في العالم يمكنني الذهاب؟ أيُّ يأس حملك على كتمان أسرارك؟ أيُّ خوف جعلني أتخلَّى عنك؟ لمَ لمْ أحملك على البوح؟

Twitter: @ketab_n

- 30 -

بعد مغادرتك صباحاً، كثيراً ما كنت أزور العجوز تشان. جلستُ في العتبة هادئة جدّاً لولا بعض هزّات طفيفة من رأسها، بصمة مميَّزة نتيجة إصابتها في رأسها. جلبتُ لها أكياس الأرزّ والخضار الطازجة والسمك. تلألأت عيناها لمرآي. كان الجنود الأطفال يسمُّون تشان بالجدَّة السَّماد. فعلت كلَّ شيء لمنع الجنود من إعدام عائلتها لكن لم ينجُ أحد. جلستُ في العتبة وأصغيت إليها. أعدَّتْ لي الشاي الخاصَّ بالحمل ونصحتني بتناول البيض المسلوق من أجل طفلي. ذات يوم جلبت لها الموز الطازج، وبدأت تتحدَّث.

«في البداية جعلتني رائحة الجثث أتقيَّأ»، قالت. «كان عليَّ أن أسلخ اللحم عن الجثث. وأن أجمع العظام، وأحرقها وأصنع السماد من الرماد. سحبت الجثث ولم أحاول أن آخذ اللحم في الحال، كانت الرائحة كريهة للغاية. فعلت ما أراده الجنود. أحياناً طبَّقت في الليل علاجات بديلة قديمة الطراز عليهم. فقد بعضٌ منهم أمَّه. فعلت كلَّ ما طلبوه مني. قُتل جميع أطفالي وأبناء وبنات أخوتي. قُتل أخوتي وأخواتي قرب شجرة كبيرة في بو بنه».

عرفتْ تشان جميع سكان شارعك عندما كنت تكبر. قالت: «أعددت لهم العقاقير الطبِّيّة وتقاسمت معهم طعامي. كنت أصغي إلى سيري وهو

Twitter: @ketab_n

يغنِّي من النوافذ. كان سوخا الصغير ظلَّه. جعل سوخا يؤدِّي دور الكورس من أجله وضحكنا كيف رغب سوخا في أن يرضيه. كان لوالده طموحٌ كبير بهما».

قالت: «في الصباح الذي غادر فيه سيري إلى مونتريال كانت عيون أمِّه شمساً وغيمة. لم ترغب في أن يرحل بعيداً جدًّا».

سألت: «هل رأيت سوخا بعدما انتهت الحرب؟».

هزَّت تشان رأسها: «رحل جميع أطفالي». نظرت عبر الطريق المتهدِّم وقالت: «كان الناس يتبادلون التحية تحت حكم سيهانوك قائلين: كم من الأطفال لديك؟ تحت حكم لون نول، قال الناس: هل أنت بخير؟ تحت حكم الخمير الحمر: كم من الطعام تحصِّل من جمعيَّتك التعاونية؟ الآن نقول: كم بقي من أفراد عائلتك على قيد الحياة؟».

أخذت بيدها وفكَّرت في أنك اعترفت لي مرَّة في السرير بأنك تمنَّيت لو أنَّ تشان اختفت بدلاً من والديك.

قالت تشان كما لو أنها استرقت السمع إلى أفكاري: «لا يوجد شيء لي هنا. لا شيء يمكنني فعله. كان الرهبان الكبار يقولون: ذات يوم سيكون هناك حرب، تأتي الشياطين وسيصعد الدم إلى معدة الفيل. المعذَّب يظل معذَّباً. بعد أن أزيلت الجثث، تخيَّلي ما كان يجب على الناس فعله. تخيَّلي تلك الرائحة الكريهة التي تتشبَّث بنا».

Twitter: @ketab_n

- 31 -

«ويل، أريد أن أعرف ماذا يفعل كلَّ يوم... ماذا حدث ليدك؟». كان يرفع إبريقاً من الشاي المثلَّج ليملأ كأسي. جلسنا إلى طاولة خفيضة تحت مروحة كبيرة في نادي المراسلين الأجانب. مدَّ ويل أصابعه المتورِّمة وتفحَّص اللحم. قال: «لقد انخرطت في شجار عنيف».

وضع الإبريق وغرف قطعتين من مكعَّبات الثلج بيده الأخرى. رمى واحداً في كأسي وواحداً في كأسه. وبعد تفكير طويل قال: «عادة يكون العار سبب كتمان الناس للأسرار».

راقبت الثلج يذوب.

قال: «تخيَّلي كيف يكون عليه الشعور عندما تنحدرين من مكان تجذب خزائن الجماجم السيَّاح إليه. قال لي هذا الرجل في معبد "أنكور": هل سترغب في أن تعرض جمجمة أمِّك على الغرباء؟ أيُّ بلد يعرض الجماجم؟ ما الفائدة من التذكير بالماضي؟ سيجعل الناس راغبين في الانتقام».

راقبتُ ضوء الصباح الصافي على وجه ويل وقلتُ: «لكن أن تضع حدَّاً للهروب من العقاب ليس انتقاماً. إنه دعوة إلى العدالة».

قال ويل: «ذلك خطاب الغرباء».

Twitter: @ketab_n

- «حقّاً؟ هل يمكنك أن تقول لي كيف يشعر الناس بعدئذ، عندما قدمت وبدأتَ بالتنقيب؟».

حدَّق ويل في وجهي لكنه لم يكن ينظر إليَّ. اختفت قطعة الثلج في الشاي.

«بالخدر». أجابني.

ثمَّ تحرَّك في كرسيه وقال: «لا أحد يتحدَّث عن الرائحة الكريهة والتفسُّخ والتحلُّل اللاحق. يدور الذباب في أسراب خضراء، يستقرُّ بأعداد كبيرة على زجاج مكسور وجدران مهدَّمة، يزحف عبر التصدُّعات، يئزُّ بصورة مريعة عند الفجر. اليرقات بسماكة أصابع الرجال. الجرذان منتفخة باللحم البشري. آخر الأشياء التي تتحرَّك ليلاً هي حفنة من النجوم وشتات من الهوام. الناس خدرون.

لكن عليهم المضيُّ قدماً. هناك قوافل من الشاحنات مكتوب على جانبيها بلغات أجنبية: "يونيسيف"، "أوكسفام"، "الصليب الأحمر". تنقل الأرزَّ من كومبونج سوم والجنود الفيتناميون يقرفصون على قارعة الطريق يدخِّنون. هناك شائعات. يقول الناس إنَّ بول بوت أمر باعتقال والده لأنه تناول قطعة من سكَّر النخيل وأجبره على العمل في حقل ألغام وانفجر فيه. يقول الناس إنه ربَّما قد يعود. هو لا يزال حيّاً يحشد جيشاً جديداً على الحدود التايلاندية. نُسفت الجسور. قُصفت الطرقات بالقنابل. كان الناس في كلِّ مكان يتضوَّرون جوعاً ويحاولون أن يعودوا إلى بيوتهم سيراً على الأقدام. كان الهدف فقط العودة إلى البيت. مات مليونا شخص. تخيَّلي أنك تمشين في شارعك في الوطن وكل جيرانك موتى».

نظر إليَّ وقال: «تخيَّلي عودة أول ضحكة حقيقية. تخيَّلي أوَّل مرَّة تعود إلى العيون ابتسامتها».

Twitter: @ketab_n

راقبنا أستراليين دخلا من الباب يحملان حقائب الظهر، رمياها على الأرض بجانب البار وطلبا كأسين من البيرة.

قلت: «لا أفهم لماذا تحصون الآن».

قال ويل: «في البدء لم يكن أحد يعرف حقاً ماذا كانوا يفعلون. استكشف مجموعة من الإحصائيين موقع مجزرة، قاسوا محيطها وعمقها، حسبوا كيف أنها تتَّسع للكثير من الأجساد المتوسِّطة الحجم ووضعوا تخميناتهم. لم يعرفوا بأمر الانتفاخ والانهيار وتسرُّب الغازات. كان تخمين مدَّة وجود الأجساد هناك أمراً صعباً. كان هناك عدد كبير من مواقع المجازر، كامبونج سبو، بري فينج، كامبونج تشام. الآن يوجد حسابات أفضل: ثلاثمئة وتسعة قبور جماعية، سبعة مواقع، من ثلاثين إلى سبعين ألف جثَّة في كلٍّ واحد، سبعة وعشرون موقعاً وعشرة آلاف جثَّة أو أكثر، مئة وخمسة وعشرون موقعاً بألف جثَّة أو أكثر. هم في المعابد وملاعب المدارس والأدغال. أسأل نفسي: ما معنى هذه الأعداد؟».

تفحَّص وجهي.

لم أعرف. تخيَّلت ملعب المدرسة قرب منزل والدي. حاولت تخيُّل ألف جثَّة هناك، أو سبعين ألفاً. حاولت تخيُّل أني ميتة في مقبرة جماعية تحت جثَّة أبي، أو تحت جثَّة بيرث.

استقام ويل وقال: «بوصولي إلى هنا كانت القبور منبوشة. خنازير، كلاب، حيوانات برِّية، نهب، اجتياح، ذهب فلاحون يبحثون عن الذهب الذي اعتقدوا أنَّ أهل المدينة أخذوه إلى قبورهم. نثر الناس العظام. أو جمعوها ووضعوها في الأضرحة البوذية، أو أعادوا ردمها. من الصعب أن تحصلي على معلومات كافية. ذهب فريقي إلى قرية "لا" وكانت هناك تلك المرأة القروية التي تجيد الطبابة. قالت إنها لم ترَ يوماً أي عملية قتل.

Twitter: @ketab_n

لكن ذات يوم أثناء حكم بول بوت تسلَّلت لتتفقَّد منزلها وكانت بئرها مملوءة بأجساد الموتى. ردمتها بالتراب، وعندما انتهى القتل عادت إلى البيت وزرعت شجرة جوز الهند عند البئر، لكنها وقعت لأنَّ الأرض كانت تموج بكثير من الأجساد من تحتها. ظلَّت تملأ البئر بالتراب والقمامة إلى أن تلاشت الغازات أخيراً وفعلت الديدان فعلها واستقرت الأرض. ثمَّ زرعت البابايا. قالت إنها حلمت أحلاماً سيِّئة عندما نسيت تكريم الموتى. قال زوجها إنها كُوفئت على تفانيها لأنها حلمت مرَّتين بأعداد من بطاقات اليانصيب الرابحة. سألت إذا ما كان في وسع فريقنا إحصاء عدد الجثث في البئر، لكنها قالت: دعني أفكِّرْ في هذا مليَّاً.

جلبت الأسرار القديمة للناس الكدر. لم تخبرنا إنَّ زوجها كان هناك توَّاً يبحث عن الذهب ولم يحصل سوى على سنٍّ ذهبية. أخبرنا المترجم إنَّ الزوج قال إنَّ هناك سبعاً وعشرين جمجمة. عندما عدنا صباح اليوم التالي أحرقت المرأة العجوز عيدان البخور على البئر وقالت لنا إنَّ الضحايا ظهروا في أحلامها ووافقوا على الحفر.

قالت: رجاء أعطوني المال لأستأجر رهباناً ليتلوا الصلوات على البئر.

قال قائد فريقنا: سندفع للرهبان بأنفسنا».

ثمَّ استند ويل إلى الوراء: «اللعنة. كان عليهم أن يملؤوا الآبار ويزرعوا ثانية أو أنهم سيموتون جوعاً. كلُّ شيء يأكل كلَّ شيء. في كامنبونج تشام يأكل الناس الأمعاء والضفادع والعناكب وعجينة السمك كما فعلوا لأجيال. هنا يذهب الأجانب إلى مطعم "دوفيل" ويأكلون كبد البط أو الأوز مرتفع الثمن كما فعلوا لأجيال».

ابتسم ورفع يديه: «لا أحد يفكِّر كيف أنَّ كلَّ هذا الطعام هو على قمَّة سلسلة غذائية مسمَّدة باللحم البشري. لكن علينا أن نأكل».

Twitter: @ketab_n

قذفت منديلاً مكوَّراً إليه وقلتُ: «لا أزال راغبة في معرفة ما يفعله سيري عندما يقول إنه ذاهب إلى العمل. ولم يقل لي ما حلَّ بعائلته يوماً».

جلس ويل باستقامة، صالب ذراعيه على الطاولة، وقال بلطف: «لكي تعرفيه تحتاجين إلى أن تفهمي هذا المكان».

Twitter: @ketab_n

- 32 -

تذمَّر سجانو "تول سلينج" من طول ساعات العمل في التعذيب ومن الإرهاق. اعترفوا إنه كان من الصعب عليهم منع أنفسهم من القتل في نوبة غضب. لكنهم لم يشكوا من العنف. قالوا: «لو لم نقتل، كنا لنُقتل».

لم ترغب في المجيء معي إلى "تول سلينج"، شارع 103، تلَّة الشجرة السامة.

قلتُ: «إذا لم تأتِ أنا ذاهبة بأية حال. لكني أريدك أن تأتي معي».

قلتَ: «لا فائدة».

– «بورنج ساملان، تعال. أريد أن أعرف ما تعرفه».

أحطتك بذراعي ولم تبعدهما وقلتَ: «رائحتكِ شذية جدًّاً».

"تول سلينج" مكان قاسٍ.

من السهل أن تتخيَّلي هذا المكان وقد تحوَّل من متحف سابق إلى مركز إبادة خلال ساعة. ترُك كلُّ شيء على حاله. الجدران المحروقة. الأرضيات الملطَّخة بالدماء. هياكل أسِرَّة حديدية وأصفاد وأسلاك كهربائية. برميل ماء لغمس الرؤوس. الناس يمشون على الساحة المليئة بالقبور قبل أن يعرفوا على ماذا يمشون. هناك إشارات مرسومة باليد، غرف إسمنتية، جدران من الصور وخزائن زجاجية مملوءة بالجماجم. لوحات للمعذبين، أظافر

Twitter: @ketab_n

مقتلعة، رجال ممدَّدون في صفوف على أرضيات القاعات الدراسية، أصفاد في رسغ الأقدام، سجناء مضروبون ومتروكون في زنازين صغيرة. عيون هؤلاء الذين اختفت أسماؤهم تحدِّق من الجدران. أرواحهم لم يُصلَّ من أجلها لأنَّ جميع أفراد عائلاتهم الذين في وسعهم أن يصلُّوا لهم ماتوا. خمسة آلاف صورة فوتوغرافية لموتى "تول سلينج". كلُّ صورة ترفض أن تُسجَّل لمجهول. الولد رقم 17. لم يكن يرتدي قميصاً فدبسوا رقمه على جلده. امرأة ضئيلة رقمها 17-5-78 مثبَّت على قميصها الأسود تحدِّق في آلة التصوير وفي أسفل الصورة يد طفل صغير تتشبَّث بكمِّها الأيمن.

الأسى يبدل أشكاله لكنه لا ينتهي.

كان نهاراً حارّاً، وكانت جبهتك ندية. قلت: «جئت إلى هنا عند وصولي لأرى إذا كان في وسعي إيجاد صور لأيٍّ من معارفي. اختفت عائلة تيين بكاملها. لم أجد أي شخص يعرف ما الذي حلَّ بهم أبداً. كتب الناس في الأشهر الأولى أسماء هؤلاء الذين تعرَّفوا إليهم في الصور. لم أجد صورة لأكتب عليها».

في "تول سلينج" يُطلب من المرء أن يحدِّق، أن يتخيَّل ضرب شخص بهراوة حتى الموت، ربط الأسلاك بأعضائه التناسلية، جرَّ طفل من كاحليه بعيداً عن أمِّه الصارخة وتحطيم رأسه على شجرة.

كنت خدرة بهذه الصورة عن الكائن البشري. وقفت بجانبك وكنت بعيداً جدّاً فلم أتمكَّن من لمسك. يمكن للشخص في "تول سلينج" أن يكون معذَّباً أو معذِّباً، يمكن للشخص أن يتخيَّل نظاماً صافياً.

قال الخمير الحمر: «من الأفضل قتل البريء على ترك خائن حيّاً». هذا هو قلب النقاء.

عندما كنت أكتب هذا حلمت بامرأة مسنَّة جاءت إليَّ وقالت: «ساعديني لأرى في الظلمة».

Twitter: @ketab_n

احتججت في الحلم: «كيف؟».

* «انظري الطفل».

كان لها فكٌّ عريض، لكنَّ عينيها عينا طفل. انظر في بؤبؤي عينيها. هذا جسد هش. هذه فتاة من السهل إيذاؤها. لا تملك حتى رقماً. لم تكن لها أي قيمة حتى يكون لها رقم. هذه حرب. هذه ظلمة.

هذا الطفل أيضاً قُتل في "تول سلينج".

Twitter: @ketab_n

- 33 -

نجا سبعة سجناء فقط.

جلسنا في شمس الساحة لنرتاح، محاولين أن نتلَّمس هذا اليوم ثانية. لمست يدك ولم تفلتها.

كان يوماً جميلاً. بائعون متجوِّلون على درَّاجات هوائية يبيعون الجوز والآيس كريم خارج الجدران. قُرعت النواقيس معلنة عن زواج بوذي. كان سائقا تكسي يلعبان المصارعة بجانب البوَّابات، أحاط الآخرون بهما، يمزحون ويضحكون. رفع واحد الآخر رأساً على عقب وشقَّ بنطاله فانفتح. التفتوا جميعهم ليروا إذا ما كانوا على مرأى من أحد، وعندما أخفيت ابتسامتي بيدي هرعوا بعيداً. أصغينا إليهم ينفجرون ضَحِكاً خلف الجدران.

كان فان ناث واحداً من الناجين السبعة. اختير ليرسم الصور ويشكِّل تماثيلَ نصفيَّةً لبول بوت. كان إذا انكسر تمثال عليه أن يبدأ مجدَّداً، دفن قطع التمثال المكسور بحذر، كي لا يُظهر الازدراء. عندما طلى بشرة بول بوت، حرك الفرشاة برقَّة كي لا يُظهر الازدراء. بعد أن انتهى بدأ برسم المعذَّبين، صور "تول سلينج".

أفكِّر في "تول سلينج" وأسمع "آلام المسيح" لباخ وأسمع الإيقاعات

Twitter: @ketab_n

الضخمة في قصيدة "متتالية الموت[1]" وإنشاد الكورس المروع في مسرحية "أنتيجون". أسمع صوت بكاء متفجِّع، ماذا لو كان هذا صوت رجل؟ تحوَّلت الوحشية البشرية إلى نوتة موسيقية، إيقاع جملة. لقد اخترع البشر كلمة لهذا: السمو.

لا تكرهني لقولي مثل هذه الأمر، بورنج ساملان. لا تظن بأني حمقاء. راقبت عينيك المسعورتين تحت جفنيك عندما نمت، راقبت الغضب والتسليم في حرب في داخلك. بورنج ساملان، دعني أنظر بدلاً منك لفترة. لا تكرهني لأني أكنِّي سجن "تول سلينج" بالسمو. لا تكرهني لأني أريد أن أنقش اسمك، سيري، على إيقاع كلماتي.

بجانبك على المقعد في الشمس الساطعة ذلك اليوم في "تول سلينج" قلتُ: «يجب أن نتحدَّث بما نشعر به، وليس بما يجب علينا قوله».

قلتَ: «لا أشعر بشيء».

---

1 - Todesfuge: قصيدة للشاعر بول تسيلان.

Twitter: @ketab_n

- 34 -

كان طفلنا ينمو، ووجدت قطعة قماش في المتجر الروسي وإبريق شاي، أطباقاً زرقاء اللون وعيداناً جديدة للأكل وسلَّة لمهد الأطفال. في الصباحات جلبتَ لي القهوة من مخبز فيتنامي وتناولتَ عصيدة الأرزِّ معي لكن لم نعد نمارس الحبَّ كالعادة قبل أن تغادر. أحببت عينيك الداكنتين في الصباح.

الناس يعيشون سهواً طوال حياتهم. والصمت يتحوَّل إلى أكاذيب.

هنا، الآن، أصغِ إلى همسي بالعار. بينما طفلنا ينمو، تعبت من كوابيسك. أتمنى الآن لو أني اعترفت لك بهذا، بورنج ساملان. أتجوَّل في مدينتك، أتمرَّن على لغتك، أتحدَّث مع سوفيب وتشان وماو، أحلم بالتدريس ثانية، أحلم بالمستقبل. وضعت ذات يوم يد تشان على بطني لتشعر بطفلنا يركل. أصبحت هادئة للغاية، تصغي بأصابعها المسنَّة الخبيرة.

قالت: «تحتاج المرأة إلى امرأة أخرى لتستند عليها وتستمد منها القوة. سأصنع لك شاياً جديداً. موعدك يقترب».

جرَّت يدا تشان الكثير من الجثث. سلخت لحمها. لكني أردتهما أن تستريحا. الغبار هو الغبار هو الغبار. تشقُّ العظام طريقها نحو سطح الأرض مع كلِّ موسم ماطر. أردت أن أتغذَّى بالفرح مثل الآلهة البهية.

Twitter: @ketab_n

أمام أبوابك الموصدة لم أرغب في أن أعترف بأنَّ ألمك وصمتك سيكونان جزءاً من طفلنا. حاولتُ أن أتظاهر بأننا نستطيع أن نصنع شيئاً جديداً. صباح "بشوم بن"[1] قلتُ: «لنذهب إلى المعبد ونقدِّم القرابين من أجل أمِّي، وأمِّك وأبيك وأخيك». بالرغم من فتورك وضعتُ يدكَ على بطني ولأوَّل مرَّة شعرتَ بحركة طفلنا في داخلي. راقبتُ دهشتك، كان شعرك مرخىً وعيناك مشعَّتين. كنتَ جميلاً للغاية. عندما توقَّف الطفل عن الركل استندت إلى الوراء وقلت: «ساملان، سأذهب إلى المعبد معك لتقديم الأضاحي من أجل أهلنا، لكن لا يمكننا أن نقدِّم أضحية من أجل أخي. إنه حي».

1 – Pchum Ben: يوم تكريم الأسلاف.

Twitter: @ketab_n

- 35 -

وجدتَه عند باب بيتكم القديم. لم تكن واثقاً.

- «سوخا، هل هذا أنت؟ ألا تزال حياً؟».

كنت غريباً بالنسبة إليه.

- «سوخا، هذا أنا، أخوك. سوخا، ماك؟ بابا؟».

عندما قلتَ ماك تعرَّف إليك. ومع ذلك لم يستطع الكلام، وكنت قد وضعت ذراعيك من حوله وهمست: «جدَّتنا؟ جدَّانا في سراس سرانج؟».

شعرت بأصابعه النحيلة على ظهرك ورأسه يهزُّ بالنفي أمام عنقك. قلت: «لم أشعر يوماً بجسد آخر مثل هذا على جسدي. كان عظماً وجلداً، لكنَّ قلبه كان يخفق مثل صخرة أمام قلبي. ولم أرغب أبداً في أن أتركه».

مشى سوخا من باتامبانج، عبر بأكوام الجثث على طول الطريق. أصغى إلى الطنين المتواصل للذباب الزاحف على الجثث المتورِّمة بشكل مشوَّه. لم يعد يرى السماء الزرقاء أو الزهور المكافحة، فقط بُسُطاً من اليرقات تموج على اللحم البشري. شرع يجري كلَّما رأى كومة جديدة من الجثث، لكنَّ رائحة تحلُّل الموتى لطَّخت جوف منخريه. أجفلته الروائح.

جفل الناس في جميع أنحاء كمبوديا من روائح دخان السجائر والنفايات الفاسدة والبنزين، روائح بديلة عن روائح أجساد المعذَّبين

Twitter: @ketab_n

والموتى والقذائف. الرائحة السيِّئة تجعلهم يقفزون، كما يفعل الناس في أماكن أخرى عندما يجفلون من صوت ضجة مفاجئة. يسمُّون هذا رومسيو، يسبب دوخة في الدماغ. يعاني الناس من التخشُّب في أعناقهم بسبب الانتفاض نحو الجهة التي تصدر عنها الروائح. يعانون من الدوار والغثيان وقلوبهم لا تتحمَّل هذا الإزعاج.

قلتَ: «لم يعد أخي يحتمل رائحة طهو اللحم».

لكنَّ المدينة كانت تحاول النهوض من جديد. قرب القصر والنهر، بدأ بائعو الطعام بدفع عرباتهم المكسورة على امتداد الأرصفة، ربط سائقو عربات الريكاشة الدرَّاجات القديمة بالأسلاك. اكتشف الناس ثانية حبَّ الكلام. بدأوا بالتخلُّص من الأقنعة التي استعملوها للنجاة. كان هناك هؤلاء الذين لم يتمكَّنوا مْن كشف أنفسهم، الجلَّادون، السجَّانون، الجنود. بالنسبة إليهم لم يكن للغة أي متعة. الفضيلة ذعر، فضيلة الذعر. من دون الشعارات، وجدوا أنفسهم عاجزين عن الكلام.

Twitter: @ketab_n

- 36 -

منذ وقت طويل في غرفة النوم الصفراء المطلة على شارع بلوري أصغيت بلهفة إلى قصص طفولتك المبهجة.

في رأس سنة من كلِّ عام كانت عائلتك تسافر من بنوم بنه عبر النهر إلى المعابد لزيارة أهل والدك في سراس سرانج. طيَّرتَ طيَّارات ورقية منزلية الصنع مع ليب وأطفال القرية على طول شاطئ البحيرة. حفرتَ رسائل على الصخور. صدحت صيحات ثرثرة القردة من المعابد وقلتَ إنَّ أرواح "نيك تا"[1] و"سراماي"[2] كانت في كلِّ مكان. كان هناك قصة عن عروض سينمائية في الهواء الطلق؛ لكني أظن بأنَّ أجدادك هم من ارتادوها، وليس أنت. جاءت السينما الجوَّالة إلى القرية بأفلام من الصين وروسيا، عُلِّقت ملاءة قرب المعبد وجلبت العائلات حُصُرها.

قاتل جدُّكَ مع لون نول، وكان لديه بوذا عاجي مخاط تحت جلد كاحله. جعلك أنت وسوخا تمسَّان النتوء القاسي من خلال تغضُّنات جلده المُسِنّ. حكى لك عن فيلم قصير كان يُعرض دوماً عند افتتاح السينما. يعرض الفيلم ثائراً معصوب العينين قبل شروق الشمس تماماً. رفع اثنا عشر جندياً من جنود سيهانوك بنادقهم وأطلقوا الرصاص عليه.

1- الأرواح الحارسة وتقيم في الجماد.

2- أرواح المفقودين من العائلة.

Twitter: @ketab_n

أحد الجنود رصاصته فارغة فلا يمكن لأحد معرفة القاتل. عُرض هذا الفيلم القصير سنوياً قبل الفيلم الرئيس. مات الثائر معصوب العينين مراراً وتكراراً، سنة بعد أخرى، انتفض رأسه، تلطَّخت الأرض بالدم، انطوت ركبتاه تحته.

جلست عارياً في السرير لتروي هذا الجزء. رفعت ذراعيك كما لو أنك تطلق النار. وضعت ذراعيك خلف ظهرك كما لو أنك الثائر. سقطت صريعاً وقفزت فوقك وأعدتك إلى الحياة ثانية. لعب أخوك هذه اللعبة قبلي.

كنت دوماً الأوَّل. أوَّل من طيَّر طائرة ورقية، وأوَّل من ذهب إلى المدرسة، وأوَّل من عزف على آلة موسيقية، وسافرت إلى الخارج. درس سوخا بجدٍّ في المدرسة وأثنت أمُّك عليه. لكنَّ والدك قال له: «هل أنت الأوَّل مثل أخيك؟».

كانت حياتك وحياة سوخا نهراً واحداً انقسم حول صخرة، جزء يسقط في هواء واهٍ من أعلى الجرف والآخر يتمعج على طول الأرض في اتجاه مختلف.

عندما دنت الحرب، ترجَّت أمُّك لإرسال سوخا إلى مونتريال، لكنَّ والدك قال: «لا! كيف يمكن لسيري أن يواصل الدراسة ويهتمَّ بأخيه الأصغر؟».

قال لك سوخا: «تظاهرت بأني لا أعرف القراءة. قال قادتنا إنَّ القراءة والكتابة غير ضرورية لرعاية الأرض بعناية. أنكا على صواب، ألمعي ورائع. عُيِّنت في فريق كانج تشلوب للتجسُّس. اختبأنا تحت ركائز أرضيات المنازل وأصغينا وأرسلنا الأخبار. سررت لأنه لم يكن لي أهل أبلغ عنهم. قال أنكا: سَريَّتك هي أمل الأمَّة. كرَّرنا: نحن أمَّل الأمة. غنَّينا: نحن الأطفال حظينا بأن نعيش بقيَّة عمرنا في انسجام نفيس في ظلِّ العناية العطوفة للثورة الكمبودية، الوسيعة، الأكثر صفاءً وإشعاعاً.

Twitter: @ketab_n

كانت كلماتهم تحترق في داخله. كرَّر سوخا عبارات لم تسمعها أبداً: عشْ أو متْ فداءً لعظمة الثورة. اطردْ جميع الأعداء».

- «من كان الأعداء؟».

* «هؤلاء الذين تحدَّثوا لغة أجنبية. الذين عزفوا الموسيقى. الذين قرأوا ودرسوا. سكَّان المدن. الرهبان».

أخبرك سوخا بأنه أوصل رسالة من وحدته إلى المعبد الذي يقع خلف معسكره. كانت امرأة مقيدة في الفناء، عارية من أعلى الخصر، بعيدة عن ابنها الذي بكى يريد أن يرضع من ثديها. لم يكن الطفل قوياً بما فيه الكفاية ليجلس، ولم تتمكَّن من الانحناء لتقترب منه بما فيه الكفاية لتجعله يرضع. همست المرأة لسوخا: «ساعد طفلي».

صرخ جندي: «تحرَّكْ! لا تقلق بشأنها. قريباً ستُستدعى إلى الجبل».

المبادرة الثورية سيِّدة نفسها.

لم يكن هناك مذياع، لا أخبار من خارج الغابة. طريق الجنود كان الطريق الوحيد.

قلتَ لي: «بينما كانت تلك الأمور تحدث لسوخا، كنت أعزف في فرقة وأمارس الحبَّ مع فتاة بعمر السادسة عشرة».

أنكا لا يرتكب خطأً أبداً.

مرَّ زمن طويل منذ أن نام سوخا في غرفة لها باب وسقف. أعطيته فرشاة أسنان وكان عليه أن يتعلَّم ثانية كيفية استعمالها. كان عليه أن يتعلَّم الابتسام ثانية، بشفتيه، وعينيه. كان مفتوناً بروائح منسية، بمطر نقي، جلد نظيف. لكن في داخل منخريه عبق الهواء برائحة الجثث الكريهة والشعر المحترق والإسهال. حديد في روحه.

من الأفضل أن تقتل البريء على أن تترك العدوَّ حيّاً.

Twitter: @ketab_n

- 37 -

أرى صمتك الطويل كأني أرى الحرب، إصرار على الانتصار. استخدمت الصمت لتحمي خصوصيتك، وقلت لنفسك إنك كنت تحميني. كنتُ خارج الجدار، أرضاً غريبة تغريك باحتلالها. تساءلت أي أسرار أخرى أخفيت. كان مفقودونا في كلِّ مكان، لا يقاومون، في اليقظة والنوم، سبباً للعنف، للغفران، يدمِّرون السلام الذي حاولنا الحصول عليه، يزحفون بيننا في أحلامنا، يتركوننا مسكونين بمعرفة أن التاريخ لا يفتدى بالسلام ولا بالحرب، لكنه يشير فقط إلى المِزق وما تركناه لأطفالنا. لكني لم أستطع هجرك، ولم أتمكَّن من النسيان، ولم أعرف ماذا أفعل، وأحببتك دوماً أكثر من الحب.

Twitter: @ketab_n

- 38 -

انتقلت عائلتك في اليوم الأوَّل من أيَّام إجلاء بنوم بنه مسافة نصف كيلومتر عن البيت فقط، كانت الحشود هائلة. وكان ما زال في وسع سوخا رؤية باب بيتكم الرئيس، وتوسَّل والدَك عند حلول الليل كي يسمح له بالعودة لينام في سريره. أغلق والدُك فمَه قائلاً: سنذهب إلى سراس سرانج وستنام في منزل جدَّيك. نام سوخا في مقعد السيَّارة الخلفي بجانب جدَّتك. عند الفجر طلب الجنود أخذ السيارة، وخرج الجميع منها ما عدا جدَّتك. صرخ جندي على والدك ليعطيه المفاتيح وقال: «باونج[1]، دعنا نحتفظ بها لنوصل والدة زوجتي. إنها مُسنَّة».

نظر الجندي داخل السيَّارة وقال: «إنها فيتنامية!»، وأطلق عليها الرصاص. صرخت أمُّك وتقدَّمت نحوها فقتلها الجندي أيضاً. سحب والدك سوخا وهمسَ: «لا تقِفْ حتى لو نادوا عليك»، ورماه في خندق من عشب طويل. صرخ الجنود على والدك: «أين الفتى؟». وأشار والدك إلى الجهة المقابلة من الطريق. قتل الجنود والدك وهُرعوا إلى الاتجاه الذي أشار إليه. تمدَّد سوخا طوال اليوم في العشب وأصغى إلى وقع خطوات الناس المتثاقلة على طول الطريق وصراخ الجنود، وليلاً زحف خارجاً من

1 - تعني يا أخي.

Twitter: @ketab_n

الخندق. كان عمره عشر سنوات. كانت المدينة بكاملها ترتحل ومشى إلى حينٍ خلف عائلة أخرى متظاهراً بأنه برفقتهم.

بعد أن رويت لي هذه القصَّة، نظرت من النافذة وقلتَ: «طوال تلك السنوات في مونتريال بعد أن أغلقوا الحدود، كنت أحلمُ بأهلي. لكنهم ماتوا منذ اليوم الأوَّل. طوال تلك السنوات كنت أحلم بالموتى».

Twitter: @ketab_n

- 39 -

نمت نوم الحُبلى العميق. مرَّرت يدك على جلدي ووضعت أذنك على بطني. سألتَ بصوتك الناعم: «هل يتحرَّك؟».

الموعد هو اليوم، أو غداً. الآن وقد تحرَّك الجنين، أردت الاتصال ببابا، لأقول له إنه قريباً سيصبح لديه حفيد، ولكي أسمع صوته، وأطلب الغفران، وأمنح الغفران. لكني تلكَّأت، أفكِّر: غداً، سأتَّصل به غداً.

حلمت بأني كنت أحاول أن أطعم الطفل أفعى صغيرة. طلبت منك أن تقتل الأفعى وخبطتها بعصا، لكن عندما التقطها الطفل ليأكل ثانية كانت لا تزال حيَّة.

استيقظت وراقبت الضوء المبكِّر الذي ينقر أغاني المدينة المليون وصرخات الأطفال الجائعين الذين لم يعرفوا بعد عن قصص هذا المكان. أردت كلَّ شيء لطفلي. أراد والدك كلَّ شيء لك. أراد والدي كلَّ شيء لي، ما عدا الشخص الذي أحببته.

Twitter: @ketab_n

- 40 -

انتُزع الأطفال من والديهم ليعيشوا في وحدات الأطفال. أرسلهم قادتهم إلى السرير قائلين: «ناموا كالموتى».

نسي الأطفال أحياناً وضع أداة في مكانها أو سرقوا الطعام. اعترفوا في حلقات "رين سوت" كلَّ ليلة.

قال القادة: «أيُّها الرفاق الشبَّان، الآن سنراجع ما حدث اليوم ونُصحِّح أخطاءنا. بهذه الطريقة نطهِّر أنفسنا من الأخطاء التي تعوِّق الثورة».

اعترف أحد الأولاد بأنه نام بعد الغداء ولم يعد قضيب الخيزران إلى المخبأ بسبب تكاسله. عبس القائد، لكن لم يكن الأمر خطيراً لأنَّ الولد كان لا يزال عاملاً قوياً. ثمَّ أشار القائد إلى الولد التالي في الحلقة وقال ذلك الولد: «لم أنظِّف لوازم المخبأ اليوم». قال القائد: «أطع أنكا. أنكا يختار فقط هؤلاء الذين لا يتعبون أبداً».

قال سوخا: «ذات مرَّة لم يكن لدي ما أبلغ عنه. عملتُ بجدٍّ طوال اليوم. أكلتُ فقط نصف علبة من الأرز. كان عليَّ أن أفكِّر في شيء، لذا أشرت عبر الحلقة إلى واحد من أضعف الأولاد وقلت: سمعت هينج يغني أغنية مضادَّة للثورة.

نظر القائد بقسوة لكنه لم يقل شيئاً، ثمَّ أرسل الأولاد إلى النوم.

Twitter: @ketab_n

بعد بضع ليال سُحب هينج من كوخه. فجر اليوم التالي كان الأولاد يزرعون الأرزَّ وجاء جنديان ورميا أشلاءً من جسد ولد في حقل الأرز حيث يعملون.

«سماد». قالا.

استند سوخا إلى الوراء وأغلق عينيه. انفتحت شفتاه الجافتان وغنَّى بصوته الهادئ العذب:

نحن الأطفال نحب أنكا حبًّا لا حدود له
ضوء الثورة، المساواة والحريَّة
يشعُّ بتألُّق.
أوه، أنكا، نحبُّك حبًّا عميقاً.
نعتزم أن نتبع طريقك الأحمر.

Twitter: @ketab_n

- 41 -

كانت الطائرات الورقية حمراء وخضراء وذهبية اللون تُحلِّق فوق النهر، تكريماً لروح الريح بريه بي، تُعِدُّ الرياح لتجلب الرياح الموسمية. في الأزمنة القديمة كانت الطائرات الورقية تسمَّى طائرات طفل-أم لكنهم يسمونها الآن كلينج إك لأنَّ لها زمَّارة تلتقط الريح وتتأوَّه وتصفر، تغزل في أقواس والتواءات. كانت هياكل الطائرات أشكالاً بيضوية كبيرة مرفقة بطائرات أصغر على شكل سطح معبد، وركض الأطفال بسيقان قاسية نحيلة بينما روَّض الرجال الأكبر سنَّاً خيوط الطائرات بأيدٍ صبورة.

غادرنا جموع الطائرة الورقية ومشينا إلى معبد بنوم حيث أطعمت القردة مع جدَّتك، عبر أكشاك الطعام وسوقاً مفتوحاً يبيع أشرطة موسيقية مقرصنة وشرائط مصوَّرة ومنحوتات وملابس، ومروراً بنزهة الفيل عند أسفل التلة على الدرج نحو المصطبة الأولى للمعبد. وقف راهبان يرتديان حُلَّتين برتقاليتي اللون على الدرج يدخِّنان. وضعنا حقيبتنا التي تحتوي على الماء والخبز والشوكولا واستندنا على الجدار لنستريح. ضحكت مجموعة من الطلاب كانوا يتلون الصلوات من أجل امتحاناتهم ونادوا علينا: «حقيبتكما! حقيبتكما!». كان قردان يسرقان طعام نزهتنا.

قفزت من جنب إلى جنب وصفقت بيديك وطردت الحيوانين الجريئين كي يعودا إلى ظلال الغابة. ظهر رجل ببقايا ساقين وذراع واحدة وطفل

Twitter: @ketab_n

أيضاً أبتر الذراع صامتين عند أقدامي. نظرت أسفل متفاجئة وناولتهما بعض النقود من جيبي، وسألتهما عن اسميهما لكنهما ابتسما فقط قائلين: «رجال الشرطة»، وانطلقا عائدين إلى الظلال.

جلست عند المصطبة الصغيرة الأخيرة أمام المعبد امرأة تبيع الطيور في أقفاص مصنوعة من الخيزران، حساسين صغيرة وسنونوات وطائر الحبَّاك المشؤوم. قالت بالإنكليزية: «هل تشترين؟». تابعنا السير، لكن طفلة بعينين لعوبين غنَّت: «إذا لم تشترِ، سأبكي. إذا لم تشترِ، سأبكي». وهكذا قرفصت قرب الفتاة الصغيرة وقلت بالإنكليزية: «من أجل ماذا هذه الطيور؟». ابتسمت، كانت جميلة، وفي غضون سنة أو اثنتين لن تكون في مأمن أبداً. قالت: «من أجل الصلوات».

أعطيتها بعض النقود وقلتُ: «ساعديني كي أختار واحداً»، لكنَّ الفتاة الصغيرة لم تفعل، لذا أشرت إلى حسُّون كبير في المقدمة. أطلقت جدَّتها الطائر وراقبناه يتردَّد قبل أن يطير فوق قمَّة المعبد وبعيداً نحو الأشجار. لم يكن لدي أمنية أو صلاة. ستأكل الطفلة تلك الليلة. قد يعود طائر الصلاة إلى المرأة المسنَّة. أمسكتَ بيدي. تحرَّك طفلنا في داخلي.

لو كنا نظرنا من حولنا لربَّما رأينا آثار أقدام بوذا على الدروب المظللة.

في طريق عودتنا إلى البيت سيراً على الأقدام بعد حلول الظلمة، توقَّفت لتصغي إلى عويل غريب قادم من السماء وأشرت قائلاً: «اسمعي. إنه يبدو مثل موسيقى البلوز». فوقنا وفوق النهر حلَّق عنقود صغير من طائرات ورقية مُنارة، أضواء آسرة تومض، "إك" تتأوَّه وتغنِّي في الظلمة. أحسست بشيء عجزت كلماتي عن وصفه. الآن، مع أني أشعر بالحيرة، قد أسمِّيه صلاة.

Twitter: @ketab_n

- 42 -

هرب سوخا. عثر عليه جنديان في الدغل وقال لهما إنه أراد أن يكون جندياً. ضحكا وجرَّاه إلى معسكر في ساحة صغيرة فيه عدد من مصاطب قاسية للنوم، نار للطهو ومخبأ للمؤونة. صعد قائد الوحدة الولد ببصره وأمر الجنديين أن يوثقاه. كانت قدماه صغيرتين جدًّاً على أصفادهما لذا ربطا حبلاً حول عنقه. تركاه في الشمس الحارَّة طوال اليوم، وعند حلول الليل فك جنديان جديدان وثاقه، واحد يحمل فأساً صغيرة، والآخر لا يحمل شيئاً، وقاداه إلى الدغل الكثيف.

اعتقد سوخا أنهما سيقتلانه عندما جاءا إلى الساحة الصغيرة التي بُجثا فيها رَجُل بأيدٍ موثقة خلف ظهره، مستند إلى الأرض. حالما رأى الجنديين راح يتضرَّع: «لا تقتلاني، لا تقتلاني!». دونما كلمة رفع أحدهما الفأس الصغيرة ووارى حافَّتها الحادَّة في صدر الرجل. تأوَّه الرجل وسقط جانبياً على الأرض. نظر الجنديان إلى سوخا وضحكا. كانت تفوح منهما رائحة منتنة من ويسكي الأرز.

«حاول سوخا أن ينجو فقط». قلت. كانت عيناك قاتمين وجافَّتين.

فتحا صدر الرجل وغمس الرجل الأكبر سنًّاً يده في الداخل وقال: «كبد رجل هو طعام الآخر». وضعاه على جذع قديم، وقرفصا ليشعلا ناراً صغيرة. شربا المزيد ثم نخسا الكبد بعصا الخيزران، شرَّحاه وشوياه.

Twitter: @ketab_n

فاحت من دم الجثة رائحة قوية جدًّا جعلت سوخا يتقيَّأ، وكان خائفاً من أنهما قد يقتلانه لهذا السبب، لكنهما قالا إنهما كانا يختبران إخلاصه لأنكا. أكلا الكبد وأعطياه القليل ليأكل أيضاً، بعد ذلك تمَّ تجنيده.

سفعتني بالعار عيناك المتَّقدتان. ربَّتُّ على بطني المكوَّر وحاولتُ أن أحمي طفلنا.

Twitter: @ketab_n

- 43 -

ثلاث سنوات. ثمانية أشهر. واحد وعشرون يوماً. غزا الفيتناميون وفرَّ بول بوت شمالاً إلى معسكر في غابة على الحدود التايلاندية. مجاعة. أناس يمشون. أناس يحاولون إيجاد أي شخص باقٍ على قيد الحياة. أناس يحاولون العودة إلى الوطن.

هرب بعض الجنود إلى الغابة، إلى بيلين والحدود. بدأ بعض القادة بإعادة بناء قوَّاتهم لمواصلة المناوشات لعشرين سنة قادمة، يتاجرون بنقوش المعابد، بالمجوهرات والأخشاب للأذرع، يأكلون طعاماً مسروقاً من اللاجئين. دفن بعض الجنود بزَّاتهم الرسمية وعادوا إلى قراهم. اختفى بعضهم مع المبشِّرين، وتحوَّلوا إلى الدين المسيحي. حاول البعض أن يختفي بين القسم الذي نجا من البلاد في مخيَّمات حدودية. هدَّد قادة بالعودة إلى فوضى بول بوت وانفصال المقاطعات الشرقية. كانت معسكرات الغابة تعجُّ بالشبان الذين لم يعرفوا سبيلاً إلى الحياة بل الحرب، ضجرين ومترقِّبين.

Twitter: @ketab_n

- 44 -

في الليلة التي غادر فيها سوخا، لم تكن قد رأيته منذ ثلاثة أيام. جاء بعينين محمرَّتين تفوح منه رائحة نبيذ الأرز.

- «أنا عائد إلى الجيش في بيلين».

* «لا تذهب الآن. ليس بهذه السرعة. ابقَ مزيداً من الوقت».

أخرج سوخا زجاجة النبيذ وبعد أن ارتشفتَ منها ابتلع هو البقية. قال: «أنت لم تساعدنا».

حاوطته رائحة الكبريت والعطن كجلد غير مرئي. ناولته صورة العائلة ومسح الحافَّة السفلية بإبهامه. قلت: «يا أخي الأصغر، ماذا كان في وسعي أن أفعل؟».

أسدل سوخا الصورة نحو الأرض، قال:

- «لو لم أخضع كنت لأموت».

* «ماذا عن الناس الذين ماتوا؟».

- «كانوا ضحايا هامشيين. إذا لم أقتلْ، كنت لأُقتل. أنا مثل شخص تعرَّض إلى حادثة».

وقف سوخا جامداً وقلتَ: «كيف اعتدت على هذا العذاب؟ لا تعدْ إليهم».

Twitter: @ketab_n

قال سوخا دون تعابير على وجهه: «دعانا الحزب قلب الأمَّة. قال الحزب إنهم عندما يوقفون شخصاً لا يرتكبون خطأ أبداً».

- «حتى الأطفال؟ ألم تفكِّر في نفسك على الإطلاق؟».

* «طلب الحزب منا أن نكرِّر: هذا هو العدو. وكرَّرت: هذا هو العدو».

- «ابقَ معي. كنتَ مجرَّد فتى. ليس عليك أن تقاتل بعد الآن».

* «ليس لديَّ ما أفعله هنا. أحبُّ الجنود».

- «اسكنْ معي. اذهبْ إلى المدرسة».

* «كلُّ المدرِّسين موتى. أنت لا تعرف شيئاً. لم تكن هنا».

ثمَّ رمى الزجاجة على الأرض وغطَّى عينيه.

قلتَ لي: «لم يتعافَ ممَّا حدث. كرهني».

- «أين هو؟».

* «ذهب شمالاً».

- «علينا أن نجده».

* «أون ساملان، لم يكن لدي ما أقوله له على مدى سنوات. رأيته مرَّة واحدة. كان في الشارع مع جنود الحكومة. أطول قامة، وجهه هرم، مثل وجه أمِّي. ناديته، رفع بصره والتفت مبتعداً. هل في وسعك أن تتخيَّلي كيف كان الوضع؟ عندما عدتُ، فقدتكِ، ثمَّ وجدتُ سوخا وفقدته أيضاً».

- «لمَ تظنُّ بأنه يكرهك؟».

أشحت ببصرك وقلت: «لم أرَ والدينا يموتان. أتقنت الإنكليزية. جعلته يقوم بواجباتي المنزلية. كنت الأكبر سنّاً. لم أقتلْ أحداً يوماً. لم يرسله والدنا بعيداً أيضاً. ربَّما كرهني طوال الوقت».

اعتقدتَ بأنَّ سوخا يكرهك، لكني أظنُّ بأنك كنت مجانباً الصواب. الكراهية الغريبة بين الأخوة هي شبكة ملتفَّة بالشكِّ والغيرة والحبِّ

Twitter: @ketab_n

الدفين. أنت لم تعرفْ، لكنَّ سوخا راقبك. عرف مَن تقابل، وأعطى لويل رسالة مكتوبة بحبر أحمر تحذِّرك لتكون متيقِّظاً، ولكي تبتعد.

كان اسمك مدرجاً على قوائمهم.

كنت تلتقط صوراً لأجساد الموتى وتنسِّق الأمور للمعارضة، محاولين إيصال المعلومات إلى الغرب غير المهتم. لم أكن أعرف لكنَّ ويل كان يعرف والحكومة كذلك.

كنت أفكِّر في طفلنا. أكلتُ كلَّ ما أشتهيه. نمتُ عندما كنت تعبة. كانت مفاصلي مرتخية. أعطيت جسدي ما كان يرغب فيه. كان ذلك الحمل بسيطاً جدًّاً. اقتربت منك، قلت: أريدك، ووثقت بجسدي أيضاً.

حلمت برائحة قطن دافئ. تخيَّلت أنَّ أمِّي ضغطت يدها على بطني لتحسَّ بطفلي. ربَّما دلَّكت جلدي بمراهم معطِّرة. تخيَّلت كيف قد يكون الأمر إن طلبتُ منها أن تحكي لي كيف شعرت عندما كنت في رحمها، أن أجلس معها بينما أقوم بالإرضاع.

في كل مساء كنت تقرأ المقالات التي تحذِّر الناس من معارضة الحكومة، مهدِّدة بالعنف. تكتَّم الناس على الأشياء. تمَّ إبعاد عاملين من عمَّال الأمم المتَّحدة حاولا أن يلتقطا جثَّة من على ضفَّة النهر. رميت الصحيفة مشمئزًّاً.

سألت: «هل تظنُّ إذا جرت محاكمة، لجنة تقصِّي الحقائق، هل يمكن للبلاد أن تتقدَّم؟».

قلت مستَفزًّاً: «إذا لم يتغيَّر القادة، فمن واجبنا نحن محاكمتهم، وليس مسامحتهم. لا يمكننا أن نبني على الأكاذيب والعنف. هل كنت لتقبلي حدوث هذا في مونتريال؟».

كانت الانتخابات تزدأد إثارة. رأينا جميعاً شاحنات تحمل جنوداً شباناً مع رشاشاتهم تتجول في بنوم بنه.

Twitter: @ketab_n

عرفنا كلنا عن قطاع الطرق ليلاً خارج البلدة، الجنود المعوَّزين الذين أقاموا الحواجز وأوقفوا الأجانب ومنعوهم من الدخول إلى القرية. عرف ويل بأنهم يستهدفون أناساً مثلك ممَّن عملوا مع المعارضة.

لاحقاً، عندما اتَّهمتُه بالصمت، قال هازّاً كتفيه: «أنا لا أتدخَّل مطلقاً بين عاشقَيْن».

Twitter: @ketab_n

- 45 -

لا يزال في وسعي رؤية ذرَّات الغبار العالقة في شعاع الشمس قرب خدِّك وأنت نائم.

Twitter: @ketab_n

- 46 -

انطلقنا يوم عيد الميلاد نحو المعبد في أندوغ على طول الطريق إلى تَل باتي. فكَّرت في أعياد الميلاد مع أبي وكيف كنا نعلِّق دوماً نجمة أمِّي على رأس شجرة عيد الميلاد عشيَّة العيد، ونصعد الجبل ونتزحلق على بحيرة بيفر صباح العيد، ونذهب إلى منزل بيرث لتناول إوزَّة معدَّة على الطريقة القديمة في الأصيل المتأخِّر. يشتري بابا دوماً البسكويت الدانماركي والغريِّبة بالقرفة وحبِّ الهال والكعك الدانماركي لتحلية ليلة عيد الميلاد، وتقدِّمها بيرث مع كعكة الميلاد وفطائر السكَّر. أرسلت إلى بابا رسالة دون عنوان المرسل، تمنَّيت له عيد ميلاد مجيد وأخبرته عن الطفل. فكَّرت في أنني قد أتَّصل به ذلك اليوم لكني لم أفعل. لم أحتمل سماع صوته.

عندما كانت أمُّك تنتظر ولادة سوخا، صحبك أهلك إلى أودونج. كانت فرقة "بينبيت" تعزف خارج المعبد، كان كل عضو من أعضائها إما كفيف بالولادة أو فاقد لطرف من أطرافه. عزف شابٌّ بعيون مفتوحة كفيفة إيقاعات بسيطة على طبلة سامفور، عزف رجل أبتر الساق له تغضُّنات غاضبة بين حاجبيه على صنوج صغيرة، عزف رجلان أكبر سنَّاً على آلتي إكسيلفون مصنوعتين من خشب الخيزران وتمايلا فوق آلتيهما الطويلتين. صوت هذه الموسيقى طبيعي كالريح في الأشجار. أخرجت قطعاً نقدية

Twitter: @ketab_n

من جيبك ورميتها على قطعة من القماش أمام الفرقة الموسيقية. تلك كانت حيوات تنقسم إلى جزئين، قبل أن يدوسوا على اللغم الأرضي وما بعد ذلك. دخلنا المعبد وقدتني إلى نقش بارز لزوج وزوجة يركعان أمام قابلة.

- «لماذا تضع صندوقاً على رأسها؟».

* «يحتوي ذلك الصندوق على الخلاص، يجب عليها أن تضعه على رأسها لأنها لم تقدِّم للقابلة الاحترام الواجب».

- «حمداً لله أنه ليس لدي قابلة».

* «أعرف. أنت لست من هنا».

- «هل كانت لأمِّك قابلة؟».

* «لا. كانت آراؤهما عصرية. أراد أبي أن تذهب إلى المستشفى».

- «إذا لم تكن لدينا قابلة، فسنكون قد اتَّبعنا تقاليد عائلتك».

وضعت ذراعك حول خصري وتحدَّثت بصوتك الناعم الدافئ: «التقاليد لا تهمُّ الآن. يمكننا أن نفعل الأشياء على طريقتنا لأنهم ماتوا جميعاً».

Twitter: @ketab_n

- 47 -

خاطرت بحياتك وحياتي وحياة طفلنا، لكنك لم تقلْ ما الذي كنت تفعله، ولم تستطعْ منع نفسك عن الاستمرار.

ثمَّ لم أعد أكترث.

Twitter: @ketab_n

- 48 -

أحبُّ كآبة الحمل المريحة، انتظارٌ عنيفٌ وهشٌّ في آن. كثيراً ما مشيت في السوق، وعندما كنت ألتقي بماو كنت أدعوه إلى مشروب محلَّى وأجلس معه تحت شُرابة درَّاجته الصفراء. ذات يوم شاهدت فتى يحاول بيع البطاقات البريدية لسائح أوروبي يرتدي حذاءً جلدياً. تبع الفتى الرجلَ المسنَّ ودفع البطاقات نحوه. أخذ الرجل بطاقة ونظر إليها وأعادها له هازّاً رأسه. ظلَّ الولد يتبعه. التفت الرجل ثلاث مرَّات مبتعداً وأخيراً مدَّ يده إلى جيبه وناوله بعضَ النقود المجعَّدة ليتخلَّص منه. رماها الفتى بغضب على الأرض وقال بالإنكليزية: «أنا لا أستجدي. أنا أبيع. أريد الذهاب إلى المدرسة». رمقت ماو لكنه تظاهر بأنه لم يرَ شيئاً.

- «ماو، هل لديك أطفال؟».

* «ولدان، بورنج سري».

- «كم يبلغان من العمر؟».

* «الأكبر تسع سنوات والأصغر خمس سنوات. تأخذهما زوجتي إلى المدرسة كلَّ يوم. يجب أن نحميهما من الخطف».

- «الخطف؟».

* «مقابل فدية»، أجابني. كان في صوته نبرة تفاخر لأنه يملك المال.

Twitter: @ketab_n

- «لِمَ أتيت إلى بنوم بنه؟».

* «أنا من كيب، وعائلة زوجتي من آنج تاسوم. جئنا بعد الحرب إلى هنا لنجد عملاً».

انغلق وجهه. لا مزيد من الأسئلة.

تحرَّكت لأريح ظهري وراقبت الناس يتناولون وجبة الظهر في علب صغيرة أو ملفوفة بأوراق. قلت: «هل تأتي مع عائلتك لمشاهدة عرض بيك الراقص الليلة؟».

سُرَّ ماو وقال: «بورنج سري، لديَّ عمل الآن. سآتي وأقلُّكما لاحقاً».

وصل في المساء الباكر، يرتدي ولداه قمصاناً بيضاء نظيفة. وابتسمت زوجته آري لي وقالت: «أنا لا أتحدَّث الإنكليزية»، ودفعت ابنها الأكبر نيون إلى الأمام، وقال الولد بالإنكليزية: «أنا مسرور لرؤيتك»، وتقدَّم أخوه الأصغر فوي دون أن يدفعه أحد وقال بالإنكليزية: «أنا صديقك». قال ماو: «ربَّما تعلِّمينهما المزيد من الإنكليزية عندما يكبران».

صعدتَ العربة بخفَّة مع الولدين وسحبت خيطاً من جيبك لتلعب لعبتك القديمة. جلست آري معي على المقعد المقابل. انطلقنا مروراً بالقصر وانعطفنا على طول الجادة المظلَّلة عبر بوَّابات الجامعة الملكية. كانت الجدران مثقوبة بآثار الرصاص. دفع ماو لسائق يعرفه ليحرس الدرَّاجة. قدتنا على طول الممر المتصدِّع، ليس إلى مسرح لكن إلى استديو كبير حيث كان يتدرَّب الراقصون. وقفنا عند حافَّة الأبواب المفتوحة لنشاهد امرأة مسنَّة تُدرِّب مجموعة من الفتيات اليافعات على رقصات تقليدية غزليَّة. انخفضت الراقصات الشابات الحافيات ونهضن على أفخاذ قوية، يمرِّنَّ أذرعهنَّ وأيديهنَّ ورؤوسهنَّ وعيونهنَّ على حركات يبلغ عمرها قروناً من الزمن وكادت أن تندثر. تحرَّكت المرأة

Twitter: @ketab_n

المسنَّة بينهنَّ بخفَّة، تلمس يداً لتحنيها إلى الخلف عند الرسغ، تشكل الأصابع، تصحِّح بلطف، تطلب كمالاً غير منقوص. كانت ضئيلةً وترتدي قميصاً بسيطاً ورداء سامبوت بسيطاً ملفوفاً حول خصرها المسن، وانتقلت بخطوات سريعة نشطة، تخرُّ على الركبتين، ذراعان متموِّجتان وأيدٍ تنفتح وتنغلق مثل الزهور. قلت: «عاشت إم تياي في القصر عندما كانت طفلة وكانت أثيرة عند الملكة. تعلِّم ساعات كلَّ يوم محاولةً الحفاظ على هذه الرقصات».

كان شعرُها الرماديُّ مشدوداً إلى الخلف ببساطة تحت عصابة للرأس. وعندما أدَّت حركة ارتفع وجهها الذي له شكل قلب نحو السماء، انفرجت التجاعيد العميقة في وجهها المسن، ارتفع ذراعاها قليلاً من كتفين منخفضين، انبسطت أصابعها إلى الخلف، إبهاماها في الاتجاه المعاكس، تلتفت يداها عند رسغيها مثل بتلات على ساق.

تركنا الراقصات ومشينا عبر حرم الجامعة نحو المنصَّة حيث جلس مؤدُّو رقصة بيك في نصف حلقة يغنُّون معاً أغنية توآب سوداتشان. أجلست آري ابنيها، قائلة لهما إنَّ ديفادا ستأتي قريباً.

معاً شاهدنا المسرحية القديمة التي عرضت سابقاً قرب باحات المعابد وحقول الأرز. قصَّة ديفادا الإلهة التي أُجبرت على القدوم إلى الأرض بهيئة بشرية. حُكم عليها أن تخدم عبداً سرقت منه وردة. ساعدت ديفادا-الفتاة العبد في نيل حرِّيته. راقبنا بأنفاس متقطِّعة اللحظة التي عبَّرا فيها عن حبِّهما لأوَّل مرَّة، وولادة طفلهما، ثمَّ راقبنا بغضب وحزن عندما طُلب من ديفادا أن تغادر عائلتها الأرضية لأنَّ عقوبتها السماوية انتهت. أمسكتَ بيدي وداعبتها بينما كان الثنائي الحزين يفترق، طفلهما بين ذراعي الزوج. فتح الرجل حنجرته وغنَّى سائلاً السماء أية عدالة إلهية

Twitter: @ketab_n

تلك التي تفصل أُمّاً عن طفلها؟ همست لي: «سمعت مرّة سين سيساموث يغنّي هذا المقطع».

بورنج ساملان، كان طفلنا يتقلّب في رحمي وأنا أشاهد المؤدّي واقفاً وحيداً يغنّي لوعته إلى السماء، وانتظمت تلك الذكريات مع عيون "تول سلينج"، مع صور لأطفال انتزعهم الجنود من أمّهاتهم، ومع صور أطفال قُذفوا وقُتلوا في الهواء. تساءلت ما الذي حلّ بي كي لا أستطيع التوقّف عن مشاهدة مثل تلك الأمور. نظرت بين الجمهور ورأيت أناساً يجفّفون دموعهم، ونام فوي الصغير وحمله ماو وعدنا إلى الدرّاجة.

تبعته آري ممسكة بيد نيون في ليل غير مضاء. قادنا ماو إلى البيت عبر الشوارع المظلمة، مروراً بالقصر حيث حلّقت الوطاويط في الغيوم السوداء باحثة عن طعامها الليلي. عندما قلت وداعاً، قال بهدوء: «بورنج سري، سوف تساعدك زوجتي عندما تلدين طفلك».

ونحن نصعد الدرج إلى غرفتنا قلتَ: «لم أعاودْ زيارة المسرح طوال تلك السنوات. كنت أذهب مع عائلتي دوماً».

قلتُ لك:

- «بعد ولادة الطفل، دعنا نبحثْ عن سوخا».

* «لا أظنُّ أنه يريد أن يُعثر عليه. هو لم يعدْ أخاً بعد الآن».

- «بورنج ساملان، العائلات تسامح وتذهب وتأتي بكلِّ الأشكال. هو كلُّ ما لديك».

لكنك جعلت من قولي دعابة بابتسامتك الساحرة: «نعم، ساملان، وأنت عائلتي الآن وأنت كبيرة بحجم فيل. ربَّما هناك طفلان في بطنك».

Twitter: @ketab_n

- 49 -

حلَّ الموسم الجافُّ الحارُّ علينا، وكنا في نهايات الأسبوع نغادر المدينة عبر طريق متضيِّق إلى كيين سفاي. كانت فاكهة البوميلو والكاكايا الطازجة تُباع على بسطات الطعام. علَّق بائعو الآيس كريم ضيافات لها شكل أزهار اللوتس على عصيٍّ من الخيزران. ضحك البائعون ورفعوا حواجبهم ونظروا بعضاً إلى بعض عندما سمعوني أتحدَّث بالخميرية. سألتني فتاة ريفية: «من أيِّ مقاطعة أنت؟».

صرخت امرأة مسنَّة على شابٍّ قاد درَّاجته النارية قريباً جدَّاً من بسطتها. مروراً باللافتة إلى كوكي رأينا أكواخاً مجدولة محمولة على ركائز ترتفع من المياه حيث كان أهل المدينة يتنزَّهون في النسيم العليل. لم أرغبْ في الذهاب ذلك اليوم، شعرت بسخونة شديدة وببعض الاعتلال. لكنك قلت: «تعالي، ستكون البرودة على النهر جيِّدة من أجلك». اشترينا كركند نهر مطهوَّاً وفاكهة وربطناها بقطعة قماش. استأجرنا كوخاً نهرياً ومراكبياً ليُقلَّنا. جلس الناس على مصاطب نهرية مستأجرة يأكلون ويلعبون الورق ويتحدَّثون. نزعنا الصدف عن الكركند ورميناه في الماء. أنت دوماً تأكل ببطء، كما لو أنَّ هناك الكثير من الطعام. قشَّرت بعض الفاكهة بمديتي ووضعتها على قطعة من ورق. تقلَّبت على الحصيرة وأخيراً تمدَّدت على

Twitter: @ketab_n

جانبي وأنت تنظر إلى السماء. كنت أزداد سخونة وجسدي يتألَّم، وقلتُ: «ربَّما علينا العودة».

نظرت عبر المياه كما لو أنك لم تسمع، قلت: «عندما التقيتك أوَّل مرَّة، لم يكن لديَّ وزر عائلة. لبست وأكلت ونمت على هواي. عزفت الموسيقى التي أحب. حلمت بالعودة إلى الوطن. لكني لم أتبعْ طريق أسلافي. كنت أصبح شخصاً جديداً. فكَّرت في التخلِّي عن كل ذلك، يفكِّر المرء في ذات، ذات وُجدت. لكنَّ ذلك تغيَّر منذ أن عدتُ إلى هنا. لا يمكنني التوقُّف عن التفكير في ما خسرته». لاطفت قساوة بطني المكوَّرة، قلت: «قالت لي جدَّتي، لا تطارد الماضي. ولا تضعْ نفسك في المستقبل».

ضغطتُ يدك على طفلنا الذي يتحرَّك وقلت: «لن نكفَّ عن الاشتياق لمن خسرناهم».

نظرتَ نحو النهر وقلتَ: «يمكن للإنسان أن يعتاد أيَّ شيء. أحبُّك، آن».

ركعتُ تلك الليلة على السرير ووجهي إلى الأسفل، بركبتين متباعدتين، ومنحت نفسي لحبِّك. كان جسدي ملْكاً لك. وثقت بك. عندما استلقينا منفصلين جنباً إلى جنب، كنت لا أزال أشعر بآثار يديك على نهديَّ، غلظتك وأنت تحاول أن تولد من جديد بين ساقيَّ. غفوت وتقلبت يقظة وشعرت بالطفل يتقلَّب في الداخل واضحاً ككلمة. كنت لا أزال متوعِّكة وبدأت أتعرَّق.

كنتَ مستلقياً وصاحياً. وعندما أمسكتُ بيدكَ قلت لي: «يقولون إنَّ أرواح الموتى تبقى هائمة إذا لم يُصلِّ الرهبان على الأجساد. لكني أظن أنَّ أرواح الأحياء هي التي تهيم عندما تفقد موتاها».

سرى ألمٌ عميقٌ في مفاصلي. عصرتُ ذراعك، قلت: «هل يمكنك أن تجلب لي بعض الماء؟ أنا أحترق».

Twitter: @ketab_n

- 50 -

هناك أنواع رهيبة من الحمَّى وإعياء مرضي فريد خاصَّ بالمناطق المدارية. أرسلني السُّبات في أحلام عن الغرق في مياه كريستالية، نظيفة، بحيرات شمالية باردة تبقبق فوق رأسي وأنا مستلقية على القاع أنظر إلى السطح لكني لم أتمكَّن من الحركة. عرفت بأني إن لم أنهض سأغرق، لكن ذلك لم يكدِّرني في الحلم. أسوأ الآلام كانت خلف عيني وأنفي. نزفت لثتي وتألَّمت ركبتي وأكتافي وارتجفت في الحرارة كما لو أني أتجمَّد حتى الموت. في اليوم الثالث ظهرت جزر صغيرة من طفح جلدي على جسدي، دثَّرتني بالأغطية ووضعت مقادير صغيرة من المياه على شفتي. أخيراً في اليوم الخامس قلت: «يجب أن أجد طبيباً». كان هناك عددٌ قليلٌ من الأطبَّاء.

قدتني في العربة الجانبية إلى مستشفى كالمتيي. مررنا بجنودٍ يستقلُّون شاحنات مكشوفة وأدرت وجهك بعيداً عنهم. فحصني الطبيب وتجهَّم. «هذه حمَّى الضَّنك». قال، «حمَّى تكسر العظام، عدوى». وضعوني في جناح كبير لأني كنت حُبلى، وفقدت الوعي كما لو أني أعاني من صدمة، وعندما استيقظت أخيراً بعد يومين كنت جالساً بجانبي وكان الطبيب يصغي بسمَّاعات إلى بطني. ذلك المساء هبطت الحرارة أخيراً وأطعمتني الحساء وعاد الطبيب. تحدَّث بنبرة محايدة لشخص يحمل أخباراً سيِّئة.

Twitter: @ketab_n

أردت أن أخبطه بعصا الخيزران. أردت أن أجعله يرتجف ويزحف، وأجعله يستجدي حياته.

أردت أن أصرخ لا لا لا، لأجعل الزمن يعود إلى الوراء. علَّقت ملاءاتي المبلَّلة بالعرق كي تجف. بلَّلت شفتيَّ بقطعة قماش وسرَّحت شعري. وضعت يدك على بطني وببطء سلَّمت بالسكون غير المألوف في الداخل. كم من الأيَّام لم يتحرَّكْ طفلنا وأنا مستلقية في الحمَّى؟ حاولت أن أحمل نفسي على التصديق بأنَّ الطبيب كان مخطئاً. تمنَّيت لو أنَّ طفلنا كان ميتاً فيمكنني الموت معه. وعندما قال لي الطبيب إنهم سيخرجونه في الصباح، وإنني سألده ميتاً، تظاهرت بأنَّ هذا لن يحدث، وبأنهم على خطأ. أردت طفلي حيَّاً، أردت أن نكون بعيداً معاً، أردت، أردت. جلبت لي الحساء وقلت: «سأذهب لآكل شيئاً ما وسأعود قريباً».

اصطحبك ويل إلى إحدى حدائق البيرة على الضفة الشرقية للنهر. لم أذهبْ يوماً إلى تلك الأماكن حيث ترتدي الفتيات زيَّاً ملوَّناً خاصَّاً بكل نوع بيرة من ستيلا أرتواز وبيكس وكارلسبيرغ. جلس الرجال الثملون تحت أسلاك من الأضواء الملوَّنة، الفتيات كُنَّ يتفادين لمسات أيدي الرجال العابرة وقرصاتهم، قائلات: من فضلك يا عم، جرِّبْ بيرَتي، يملنَ آذانهن مقتربات من شفاه الرجال لتحضير طلباتهم الخاصَّة. كنت عائداً إليَّ عندما سمعت صوت إطلاق نار على جانب الطريق.

حدَّق الناس عندما انهار الرجل على الأرض. ابتعدت درَّاجة بخارية ببطء، وعلى مقعدها الخلفي رجل يحمل بندقية. بعد أن قطعت مسافة مئة متر في الشارع، استدارت الدرَّاجة وعادت للمرَّة الثانية. بدأ الناس يتفرَّقون، لكنَّ ويل ظلَّ وجثا عند الرجل المحاط بالدم دون أن ينظر إلى الدرَّاجة. لم يبذل القتلة جهداً لإخفاء وجوههم بنظَّارات شمسية أو خوذات. عادوا

Twitter: @ketab_n

وتمهَّلوا ونظروا ليتأكَّدوا من أنهم أصابوا مرماهم. بثقة هلعة عرفتَ حينها وقلت لويل: «السائق».

تجاهلك ويل، قال: «أظنُّ أنه لا يزال حيَّاً».

احتضن رأس الرجل، ووضع يده الأخرى على الجرح، وتمتم له. صرخ شخص ما على ويل بالخميرية: «لا تلمسه».

تقدَّمت بخطوات واسعة نحو ويل وقلت بالإنكليزية: «ابتعدْ عنه».

انحنى ويل أكثر وزلق راحة يده على وجه الرجل، قال دون أن يزيح بصره عن عينيه: «الرجل يموت».

راقبت الدرَّاجة البخارية تلتفُّ عائدةً للمرَّة الثالثة، كانت قارعة الطريق خالية، وتلاشت الأصوات في حديقة البيرة. تصدح موسيقى البوب التايلاندية من سمَّاعات صغيرة. حبال من أضواء حمراء وزرقاء وخضراء فوق طاولات فارغة. توقَّفت الدرَّاجة وتبطلتَ بجانب الرجل المحتضر، رفع ويل بصره وقال فوق ضجيج المحرِّك: «أيُّها الملاعين!». صرخ السائق: «تشوهب!». قلتَ له بالخميرية: «هو لا يفهمك. أرجوك، سوخا».

رآك سوخا أخيراً والتقت عيناه المجفلتان بعينيك. انحنيت ببطء نحو ويل وقلت بالخميرية للرجال على الدرَّاجة: «موايِ سوام، دعوا الغريب بعيداً عن هذا، هو لا يفهم ما تقولان. سآخذه بعيداً». انحنيت دون أي حركة مفاجئة نحو كتف ويل، وأمسكت بقميصه.

كان ويل بالفعل يترك رأس الرجل برفق على الطريق، وقف بصلابة ومسح يديه المدماتين ببنطاله. قال دون أن يتوجَّه بكلامه إلى أحد: «إنه ميت».

كان سلاح الرجل على المقعد الخلفي للدراجة لا يزال مرفوعاً وأدار سوخا المحرِّك، زاد السرعة وانسحب مبتعداً.

Twitter: @ketab_n

قلتَ: «لنذهب».

عدتما معاً إلى المستشفى. كانت تفوح منك رائحة الهواء في الخارج. رأيت البقع على بنطال ويل، سحبت نفسي إلى الأعلى، ونظرت إلى وجهك الشاحب. قال ويل: «إنهم يقتلون الناس في الشارع».

نظرت إلى أظافره المتَّسخة، سألت: «هل رأيته؟».

أجبتَني: «صحفي».

جلس ويل على حافَّة سريري ومهَّدتَ الملاءة قرب يدي، سحبت الغطاء المجعَّد وفردته فوق نهدي المتورِّمين، قلتَ: «كان أخي يقود دراجة المسلَّح».

- «سوخا؟».

* «كان اللعين ينوي قتلي»، قال ويل.

كان الجلد حول عينيك مغضناً.

«لا، لم يكن ليفعل»، قلت. «لقد نالوا من الذي يريدونه». مسَّدت زوايا أسفل الملاءة في ثنيات مشدودة ومتقنة.

تقلَّب ويل ودفعني على السرير: «ليذهبْ إلى الجحيم.إنه أخوه!».

شممت رائحة عرقهما. نفرت من الإثارة التي أحسست بها في خوفهما. المشاحنة بينهما. فكَّرت: «لدي هذا الطفل الميت. لماذا يأتون إليَّ بهذا أيضاً؟».

أمسك ويل يدي وعصرها كأنه رآني للمرَّة الأولى. قال: «يجب أن تستريحي. ما الذي نفعله؟».

أدرت ظهرك لنا ووقفت تنظر نحو الجناح. قال ويل: «يجب أن نذهب».

لكنك هززت رأسك: «سأبقى هنا الليلة».

Twitter: @ketab_n

ناولت ويل مفاتيحك ورافقته للخروج من الجناح، وعندما عدت جلست قربي على السرير وأمسكت يدي وتحدَّثت برفق لوقت طويل. تحدَّثت عن سوخا، عن عينيه المذعورتين اللتين قستا مثل قطع نقدية قديمة، قلت: «كنت خائفاً للغاية». ثمَّ حدَّثتني عن الرجل المحتضر في الشارع. كانت عيناك حلقتين قاتمتين. همست بالإنكليزية حتى لا يفهم أحد في الجناح، همست باسمه، عن أنه كتب ضدَّ الحكومة، قلت إنك عملت معه. راقبت الظلال على وجهك التعِب وقلت: «لم أخبرك شيئاً، آن. كان عليَّ أن أفعل».

- «ما الذي لم تخبرني به؟».

كانت يداك باردتين على يدي. قلت: «يجب أن أفكِّر».

- «تفكِّر؟».

* «أرجوك، أون ساملان. يمكننا غداً أن نتحدَّث، بعد أن تنتهي».

- «سيري، لمَ تفعل هذا؟ الليلة؟».

لكنك تململت فقط، واستدرت عني. وجدت بعد جهد حشية مهترئة، استقررت على جانبك على الأرض قرب سريري، ونمت نوماً عميقاً كرجل مذنب عندما يُتَّخذ القرار.

Twitter: @ketab_n

- 51 -

كانت عملية جراحية قديمة الطراز، بدائية بمجرفة معدنية، وسرعان ما تحول جسدي إلى موجات متتالية من ألم عكِر لا أكثر. أنجبت هذا الجنين الميت. أنجبت طفلي الأوَّل. عمل الطبيب عملاً حثيثاً، دلَّكني، كما لو أنه يمزِّقني مزقاً، ودفعت ووجَّه رأس طفلي ودفعت.

حاولت أن تمسك يدي لكنَّ قبضتيَّ كانتا مطبقتين حول كرات من ملاءات قطنية خشنة. لم يكن سوى الألم. أنا حيَّة، وطفلي ميت خارجاً. إلى هذا استعمل الطبيب مهاراته. لاقت عيناك عينيَّ ورأيت في انعكاسهما حيواناً عاجزاً يحاول النجاة. دفعت وواصلت الدفع وكنت تائهة في الألم وأحاول أن أنجو غرقاً في عينيك، وبعد أن قطعوا الحبل كان عليَّ أن أدفع ثانية لإخراج المشيمة بعد الولادة لكن هذه الكلمة خاطئة لأنها كانت: «بعد الموت».

نشَّفوها وأعطوها لك لتحملها. كانت فتاة صغيرة رائعة لها فمك. رأيتها بين ذراعيك، ابنتنا الميتة. قرَّبتها مني لأراها، داعبت خدها بيدي، وكان لا يزال دافئاً. ثمَّ بسلام لا مثيل له رأيتك تناولها للممرِّضة وتعود إلى الفوضى على سرير الولادة، دم، براز، السائل الأمينوسي، أنا.

أحسست بالحليب يملأ صدري، وأبكاني الألم الواخز المجفل من

Twitter: @ketab_n

ثديَّ المتورِّمين. علَّمتْني ممرِّضةٌ كيف أُفرغ الحليب في وعاء حديدي. سألتني بلطف: «هل يمكنني استعماله لطفل آخر؟ هناك حاجة إليه». أومأتُ باكية، فكَّرت: «كم من الوقت سأرضع طفلاً آخر؟ كيف يتوقَّف الحليب؟». دموعي كمعدن منصهر. عندما أفكِّر الآن في ذلك الوقت أذهل كيف استعاد جسدي قوَّته ثانية وتعافى مخلِّفاً روحي وراءه.

وضعوا رباطاً على ثديَّ وأخرجوني لأنهم احتاجوا إلى سريري. وقَّعتَ على أوراق وسُمح لنا أن نأخذ ابنتنا المتوفَّاة لترمَّد في معبد قرب غلوب. في المقعد الجانبي حملت ذلك الجسد البارد الصغير ملفوفاً بمربَّع من قطن أبيض، دفعنا لأربعة رهبان من أجل أداء الصلوات. وبينما كنت واقفة معهم أفكِّر في طفلتي، ابتلَّت أربطتي وقميصي بالحليب. وعندما انتهت الشعائر قلتَ: «لنذهبْ إلى البيت».

سألتك: «أي بيت؟».

ثدياي المتألِّمان. الريح الحارَّة في المقعد الجانبي. عرجت على المقام تحت شجرة قرب نصب الاستقلال، وضعت بعض الفاكهة هناك وقلت دون أن تنظر إليَّ: «أنا أعمل مع المعارضة، ساملان. أنا آسف لأنك كشفتِ ذلك لك بهذه الطريقة. أردتُ أن أقول لك».

عندما تلاقت عينانا رأيت في عينيك ضوءاً لم يبتغيني. كانت في عينيك نظرة مسيَّرة تعرفتها، نظرة لا تزال ترغب في أن تُحب، لا يعيقها أي عقبة، تساوم. قلت: «هذا بلد فوضوي. أريد أن نبتعد سويةً، لكن لا يمكنني حمل نفسي على المغادرة. ماذا الذي فعلته؟».

أبعدتُ يدك وقلتُ: «أنت تعرف ماذا تفعل. لا تتظاهرْ بالأسف».

– «سنحاول ثانية. سأكون على ما يرام. لا تقلقي».

لم أرغبْ في المغادرة دونك. ولم أرغبْ في البقاء. لففتني بذراعيك

Twitter: @ketab_n

ولم أمانع. غنَّيت هامساً وكنت أذوب تماماً من جديد، أصغي إلى الصوت الذي أحببته أمام مقام لم أؤمن به، تشابكت شهوتانا نحو الفقد والأسى. وتساءلت من كنت، وكنا منهارين، منهارين.

Twitter: @ketab_n

- 52 -

جاء ماو إلى غرفتنا برفقة آري. كانت ترتدي تنُّورة ملفوفة عادية وقميصاً قطنياً أبيضَ، دخلت دون أن تُحدث صوتاً على الأرض، ولم تنظرْ إلى شيء سواي. بقي ماو في الخلف عند إطار الباب وسحبت نفسي ونهضت في السرير. سألت: «كيف حال نيون وفوي؟».

تقدَّمت آري في الحال إلى جانبي وقالت بلطف: «مشاغبان جدًّاً. جلبنا لك شاياً خاصًّاً، إنه مفيد جدًّاً من أجلك».

أعطاها ماو توجيهاتٍ حاسمةً بالخميرية تمتمها بسرعة فلم أستطعْ فهمها. صبَّت الشاي من وعاءٍ حافظٍ للحرارة ووضعتْه على طاولة صغيرة بجانب السرير، ثمَّ تكلَّم ماو فالتقطَت الفنجان وقرَّبته من شفتيَّ. كانت يداها باردتين. أخذتُ الفنجان وأمسكته بنفسي. كنست آري الغرفة وسوَّت الأغطية. أدارت ظهرها لزوجها وجلست على حافَّة السرير، ملَّست شعري ومسحت وجهي بقطعة قماش باردة، وأخذت يدي بين يديها. لاقت عيناها عينيَّ فقالت برقَّة بالخمير: «ستتماثلين للشفاء سريعاً. لقد أجهضت لكنك ستحاولين ثانية. المرأة قوية».

حملت عيناها أساي، وجمع جسدها ألمي وحاكه في نفسها كما لو أنها مخلوق عجوز في مستنقع يحوك سلالاً من الأسَل.

Twitter: @ketab_n

وجه ابنتنا الميتة الصغير. فمك. عيناك. فقدت بعضاً من الذكريات لكن ليس هذه.

Twitter: @ketab_n

- 53 -

كانت بنوم بنه حيث فُقدتَ مكاناً فاسداً كالجحيم. يمكن لأي شخص شراء كيس مخدِّرات بعشرين دولاراً، أو فتاة أو فتىً بسعر وجبة طعام. أصدر القضاة أحكاماً بعد تلقِّيهم مغلَّفاً. أعطى رجال الشرطة تذاكرَ بعد تلقِّيهم الرشوة.

عيد الفصح، 31 آذار. اقتراب الانتخابات. هدرت شاحنات محمَّلة بجنود مسلَّحين عبر الشوارع. انكفأ الأجانب في شققهم وتوجَّهوا نحو المطارات. كان بعض القادة يتحدَّثون بهذا الأمر، الديمقراطية، وكان المنفيون بجلدهم الشاحب وأموالهم وتفاهماتهم غير التامَّة يصرُّون ثانية بكلمات غير مألوفة، الحرِّية والعدالة، بلغات مختلفة.

تحدَّثوا عن مراقبة الانتخابات، لكنَّ أحداً لم يرَ الاجتماعات في القرى بعد حلول الظلام، عندما كان يتمُّ تلقين الناس اسم مَن يصوِّتون له، وكان من يطرح الأسئلة يُضرب حتى الموت. قال الأجانب: «أبقوا أنظار العالم هنا»، لكن الناس عرفوا أنَّ الحدود والمصارف تُغلق، والأجانب يغادرون، والاتصالات تُقطع، والأجساد تختفي، والتعطُّش للقوَّة ينتشر مثل رائحة العفن، مُخضعاً الجميع خوفاً. من يحمل سلاحاً يمكنه أن يُجبر طفلاً على القتل. لا أحد يمكنه أن يفرض الرحمة، لكن يُمكن محوها.

أحد الفصح. خطاب في المجلس الوطني.

Twitter: @ketab_n

جاء الناس العاديون لسماع المعارضة. أظهر الناس شجاعة خاصَّة، بالتجمُّع، بالإصغاء، مفتونين بإمكانية حياة مختلفة. مشوا أمام الأسلحة. وقفوا في العلن. كان رئيس الوزراء هون سن، يحدِّق بعين واحدة سليمة منهكاً. كان الوقت قد حان لإظهار البراعة في تسجيل النقاط.

لا بدَّ من أنك كنت على علم. أحببت عينيك في الصباحات. قلت عندما غادرتني ذلك الصباح: «أراك لاحقاً». لمَ كنت هناك؟ كان المكان محاطاً براجمات الصواريخ B40. كانت تحمي منزل هون سن.

دفعت سوفيب بسطة النودل إلى حافَّة التجمُّع. نام طفلها في حمَّالة على ظهرها وأمسكت يد طفلتها الأكبر سنَّاً. كان الناس في التجمُّعات يشعرون بالجوع دوماً بعد الخطابات. يمكنها أن تكسب مالاً كثيراً هنا. وقف سام رينسي على كرسي خشبي وتحدَّث عن المستقبل. ارتدى بذلة وربطة عنق صفراء وبدأ رجل خلف كرسيه يصفِّق بعد كلِّ عبارة مُهمَّة. وقف الحرَّاس الشخصيُّون عند كتفه الأيمن وتجمَّع مؤيدوه أمامه يلوِّحون بأعلام زرقاء فاتحة وغامقة اللون.

تصدَّوا للفساد، قال سام رينسي. أوقفوا الرشاوي. أوقفوا الضرب. اخلقوا بلداً أفضل من أجل أطفالكم. أعطت سوفيب طفلتها الصغيرة قطعة من قصب السكَّر لتمضغها لتتمكَّن من الإصغاء إلى القائد. عمَّ الهدوء. ثمَّ، صوت فرقعة. انبطح الناس في مركز الحشد على الأرض، لكنَّ هؤلاء الذين لم يسمعوا صوت الفتيل المسحوب من القنبلة اليدوية لم يرتموا بسرعة كافية. تلقَّت أجسادهم شظايا الأقراص الحديدية. أقدام مجروحة بالشظايا، بطَّات السيقان مقطعة، ركب مكسورة.

قبل القنبلة الثانية، أوقع أحد الحرَّاس الشخصيين سام رينسي من على كرسيه وغطَّاه بجسده، فمات إثر الانفجار. فرقعة. انهار الناس مثل دمى متحرِّكة بخيوط مقطوعة.

Twitter: @ketab_n

فرقعة. ضربت عمَّال المصانع على الجانب الغربي من الحشد.

فرقعة. قذفت سوفيب وطفلها وطفلتها وهما يمضغان قصب السكَّر وقُذف بائعو النودل والسجائر والكعك المحلَّى في الشارع الآخر عند مؤخَّرة الحشد في الهواء بجانب عرباتهم المتشظِّية. قُذف طفل سوفيب من بين يديها وطوحت طفلتها في الخلف وانغرست الشظايا في صدر سوفيب. انفجرت بسطتها وتحوَّلت إلى حفنات من أعواد الأسنان، كلُّ شيء وقع في حركة بطيئة عائداً إلى الأرض.

تمدَّد المصابون مع الموتى، وبعد صمت الصدمة الأول بدأ تأوُّه خفيض. ثمَّ حركات صغيرة، ذراع، إصبع. أصوات تتوسَّل المساعدة، وأمر الجنود بقوَّة السلاح الباكين من الحشود النظار أن لا يمسُّوا أحداً. أحاطت الشرطة بالمكان وسحبت مكبِّرات الصوت. تأوَّه المحتضرون: «رجاءً، رجاء».

جاءت بعض سيَّارات الإسعاف بعد وقت طويل، طويلٍ جدَّاً.

كانت أرضيات المستشفيات زلقة بالدم. مسح العمَّال القاعات. تمدَّد الناس على حشايا مهترئة. أصغيت إلى همساتهم، كنا فقط نصغي إلى خطاب. كانت أجسادهم منقَّرة بجلد آخرين. وجوههم مجروحة. لم أجدك. وجدت سوفيب. ميتة. لم أجد طفلها أو طفلتها الصغيرة. في الصباح الباكر من اليوم التالي، ذهبت ثانية. لا شيء. في اليوم الثالث كانت الأرضيات منظَّفة وكان جميع من حضر اجتماع الفصح إمَّا ميتاً أو صامتاً. أردت أن أفرك وجهي بالرماد. رأيت شاباً بدا يشبهك في الشارع لكنه كان يرتدي زيَّاً عسكرياً ويحمل كلاشينكوف تحت ذراعه. لم أعرفْ أين أبحث. ذهبت في كلِّ مكان: مخافر الشرطة والمكاتب السياسية ومكاتب الأمم المتَّحدة والسفارات والقنصليات والمكاتب العسكرية. شخصٌ ما

Twitter: @ketab_n

يعرف. شخص ما عليه أن يتكلَّم. حلمت بالدم وبخنازير برية في الغابات.

لديَّ المال. أين هو؟

أحببتك، ونفسي كلُّها أصبحت ملكاً لك، سواء رغبتُ في ذلك أم لا. أحببت أن أكون وحيدة في الظلمة معك، نمشي على شوارع مظلمة تفضي دوماً إلى سرير مؤقَّت خلف باب مغلق. التقينا دوماً مع أفول النهار. منذ أن مارست الحب معك أوَّل مرَّة لم ينقضِ نهارٌ إلا وأنا أنتظرك لتكون هناك، تنتظرني، واقفاً على بابي، في الشارع، داخل غرفتي. في المحطَّة... هذا الشعور الذي ملأني كلَّ الأيَّام التي أمضيناها معاً والسنوات التي باعدتنا. تخيَّلتك كلَّ يوم لأني لو لم أفعلْ ستتلاشى سعادتي. لا يمكنك أن تختفي. أرجوك لا تختفِ. لا أحد يمكنه أن يشفي حزني. أحبُّ ما فقدته.

ذهبت لأبحث عنك في معابد المدينة حيث ألقوا الجثث. رأيت أجساداً أخرى. ولكن لم أجد جثَّتك. مشى ويل معي على ضفَّة النهر، وتحت القصر حيث ظهرت جثث أخرى. وجدنا شاباً، في عشريناته، بنطاله الجينز مسروق، مقتول برصاصة في صدره. كان هناك انتفاخ. قال ويل: «لا تنظري، لستِ في حاجة إلى أن تري هذا».

* «لماذا ليس عليَّ أن انظر، ويل؟ إني أرى أجساد الموتى على صفحات الصحف الرئيسة كلَّ يوم. التلفاز مليء بجثث الموتى. لكن ليس من المفترض أن أنظر إلى رجل ممدَّد أمامي، تُرك هكذا لأنَّ الناس الذين أحبُّوه خائفون من المطالبة به، لأنهم لا يعرفون مكانه. لأنَّ الحكومة تترك الجثث مثل ملحوظات صغيرة مكتوبة بالأحمر. قلْ لي، ويل، لمَ يجب عليَّ ألا أنظر؟».

- «حسناً، كانت مجرَّد فكرة».

غادرنا ضفَّة النهر وذهبنا لنبلِّغ عن الجثَّة في مخفر الشرطة. قال

Twitter: @ketab_n

الضابط: «لا بدَّ من أنه تعرَّض إلى حادث». قلتُ: «أنا أبحث عن شخص آخر اختفى من الحشد».

حدَّق إليَّ وقال: «هذا ليس مستحيلاً».

لأعيش كنتُ محكومة بالأمل.

انحنيت قريباً من أذنه وقلت: «لديَّ المال. كان عند الهجوم بالقنابل عند القصر. ماذا حلَّ به؟».

لم يكن هناك من أثر لك على الإطلاق في بحر الدماء المتلاطم.

Twitter: @ketab_n

- 54 -

كانت للجميع مصلحة في إخفاء العنف، للحفاظ على النفوذ والحصول على المزيد منه. «لا فائدة من إثارة الماضي»، قالوا. «ماذا لو أنَّ القادة أرادوا الانتقام؟ إذا لم يحصل القادة على نتيجة صحيحة من هذا التصويت، سنعود إلى عهد بول بوت». قالوا هذا. بدأ المعارضون بالاختفاء أو الفرار. أُغلقت جميع صحف المعارضة التسع عشرة. لم يكن لهذا الطعام الجديد الغريب المسمَّى ديمقراطية الطعم الذي تخيَّله الناس. كيف تصنع الديمقراطية بعد قرون من الحكم الملكي، الاحتلال، الحرب، المجازر؟ لماذا يكون هذا الأرزُّ الجديد الطازج مملوءاً بالحصى؟

سيحاكمني التاريخ. لا تدعْ رجلاً غاضباً يغسل الصحون، لا تدعْ رجلاً جائعاً يحرس الأرز.

كانت رغبتي في أن أجدك استحقاقي الوحيد.

دعاني الرجال بالحمقاء، العنيدة، التافهة، الساذجة، الغريبة، الأنانيَّة، البلهاء، امرأة. أردت ما أردت، تذرَّعت برجاحة عقلي.

لديَّ المال. ما الذي حلَّ به؟

بقيت صامتة في الصدع ما بين المعرفة والصمت، بين القانون والحب. كان بمستطاع الدولة إسكاتي بغاية السهولة، أن يقال: «لا يحقُّ لكِ».

Twitter: @ketab_n

ثلاثون عاماً ولا أزال أرغب في أن أصرخ غير مصدِّقة: «لا يحقُّ لي؟».

لديَّ المال. أين هو؟

نمت والأضواء منارة. نمت ساعة واستيقظت ونعست ثانية. عشت في إنهاك من الأسى. فاكهة فاسدة عند مقام تحت شجرة. بريق الشمس على النهر. طفلة تحمل رضيعاً على وركها في عتبة. مشيت ولم أعرفْ إلى أين سأمضي أو كم من الوقت سأواصل السير.

لديَّ المال. أين هو؟

Twitter: @ketab_n

- 55 -

في يوم "بون بتشام بين"، يوم تكريم الأسلاف، يرتدي الناس ثياباً نظيفة ويذهبون إلى المعابد ليأخذوا الطعام إلى الموتى. تعود أرواح الموتى كلَّ عام من أجل الطعام؛ وابنتي الصغيرة لم تتذوَّق الطعام على الإطلاق. اشتريت أفضل "باي بين"، كرات أرزٍّ محشوَّة بجوز الهند والفاصولياء والسمسم، فيكون تذوُّقها الأوَّل للطعام لذيذاً، ذهبت إلى المعبد حيث رمادها وخلعت حذائي عند الباب. أحرقت عوداً من بخور خشب الصندل من أجلها وجثوت وتلوت صلوات لابنتي في الظلمة الكئيبة الشذية تحت أنظار بوذا بحلَّته البرتقالية اللون.

ومضت مئات الشموع في الظلام. لم أكن مؤمنة، ومع ذلك جثوت مع الجميع وراقبت دخان البخور يتلوَّى نحو السطح. لم أرغبْ في المغادرة. لم يكن لديَّ مكان أتوجَّه إليه. أردت الراحة. نهاية الأمطار. لم أؤمنْ ومع ذلك كنت هناك. أغلقت عينيَّ ومكثت وصلَّيت بالإنكليزية، كلمات طفولتي، لأن ذلك الإله أيضاً كان إلهاً رحيماً، صلَّيت من أجل أمِّي وصلَّيت من أجل أن أراك ثانية. وعندما فتحت عينيَّ ورفعت رأسي لحظتُ راهباً شاباً يراقبني بفضول وفكَّرت: «ما أنا فاعلة؟».

استيقظت في السرير تلك الليلة من نوم مضطرب آخر، بظري منتصب، أشفار فرجي مترعة ومتورِّمة. كانت كالمطر. في الظلمة المهجورة توسَّلت

Twitter: @ketab_n

طبيعتي الحيوانية وفكَّرت: إذاً، جزء مني لا يزال حياً. لكن لا يمكنني أن أكون حيَّة إذا كنتَ ميتاً.

تمدَّدت وحيدة وتركت جسدي في سبيله. ثمَّ غططت في نوم عميق جداً، عندما استيقظت كانت الشمس في منتصف الطريق نحو الظهر وكان جسدي منتعشاً. تمدَّدت في الحرارة الكثيفة عارفة بأنَّ أساي كان يغيِّر شكله، ولم أشعرْ براحة أو بفرح؛ لكن بفراغ شخص يعيش.

كنت أجتمع بويل في نادي المراسلين الأجانب معظم الليالي لنأكل. قال: «من الأفضل أن تكفِّي عن السؤال هنا وهناك. طلبوا مني أن أحذِّرك. لا تلفتي الانتباه إليك. أنا مغادر. فقط أنتظر بطاقة الطائرة. تعالي معي. الأشياء تنضج من بدايات خفيفة».

مرَّرت أصابعي في شعري فخرجت خصلة منه في يدي.

كان الجميع يحاول أن يدفن القليل من الأرز، أن يخفي القليل من المال. كان الجميع يشتري ويبيع. باتت الشوارع صامتة ومهجورة ولم يعرفْ أحد إذا كان البلد ينهار، إذا كان الجميع سيتضوَّرون جوعاً من جديد. هُرع الناس إلى العمل ورؤوسهم مطرقة وحثُّوا السير في الأسواق. قريباً سوف يغيِّر النهر اتجاهه، وفي تمرُّد عظيم يستدير ويتدفَّق نحو الشمال. العشب الطويل والخيزران على ضفَّتي النهر تُخفي أجساداً، ويبدو أنه لا يوجد مياه عذبة قادرة على تغيير مسار العنف.

أخذني جنديٌّ شابٌّ نحو ظلال شارع فرعي بجانبي وهمس في أذني: «أعرف مكانه. هل تملكين نقوداً؟».

قلت: «نصفه الآن، ونصفه بعد أن تقول». بسطت عشرين دولاراً أميركياً في جيبي، سحبتها ووضعتها في راحة يده.

عاين الورقة ودسَّها في جيبه. قال: «أخذوه إلى آنج تاسوم».

Twitter: @ketab_n

- «هل هو حي؟».

* «هذا كلُّ ما أعرفه. أخذوه إلى آنج تاسوم».

- «هل تقول الصدق؟».

رفع راحة يده المفتوحة بيننا ثانية. كانت عيناه سكّينين سوداوين رفيعين، ولم أتمكّن من التمييز فيما إذا شعَّ وميضهما بالخبث أو بالخوف.

قلت: «هذا ليس بالكثير». لكني ناولته الورقة التي صدق بأنه يستحقُّها وعاد ليختفي في الظلال.

Twitter: @ketab_n

آنج تاسوم

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

- 56 -

ذهبت قبل الفجر للبحث عن ماو في السوق الروسي. قال السائقون الجالسون على درَّاجاتهم وعلى عربات التوك التوك أمام السوق إنه لم يأتِ بعد. سألتهم: «كم من الوقت تستغرق الرحلة إلى آنج تاسوم؟». قال شاب معه درَّاجة جيِّدة: «تحوي الطريق إلى آنج تاسوم الكثير من الأخاديد، لا يمكن السير فيها بسرعة، طريق ملتوية. يمكن أن يُقلِّك صديقي بسيَّارة».

- «كم تستغرق الرحلة في السيَّارة؟».

* «نصف نهار، بورنج سري. ليس طويلاً. في السيَّارة أسرع. سأمنحك سعراً جيِّداً».

عندما وصل ماو قلت له: «أريدك أن تساعدني في إيجاده. أريدك أن تأخذني إلى آنج تاسوم».

قال ماو: «هذا ليس جيِّداً، بورنج سري. حتى لو وجدته، ماذا في وسعك أن تفعلي؟».

قلت: «إذا لم أجده كيف يمكنني أن أعيش؟».

تقدَّم سائقان كانا يصغيان ونهض ماو. قال: «حسناً، سآخذك. لزوجتي عائلة هناك. لا يمكنني أن أعد لكن سأحاول. أحتاج إلى المال من أجل الوقود».

Twitter: @ketab_n

أوصلني إلى منزل ويل، ثمَّ ذهب ليخبر آري. صعدت مسرعة إلى غرفة ويل في الأعلى.

سمعت ويل ينهض من السرير وعندما فتح الباب كان لا يزال يدسُّ ذراعه في كُمِّ قميصٍ أصفرَ قذر. قال: «آن، يقول الناس أيَّ شيء مقابل قدر قليل من المال. حتى لو كان صحيحاً، هم يريدون إخفاءه».

كان حافياً وشعره متشابك وكانت هناك بقع تحت عينيه.

- «تبدو مريعاً».

* «شكراً لك! لقد نهضت للتو».

- «في وسعي رؤية ذلك. أنا راحلة الآن. تعال معي. تعال، يمكن أن تنام على الطريق».

* «ما الذي يجعلك تظنين أنهم سيدعونك تجدينه؟».

- «لقد بدأت أجده فعلاً. ليس لديهم الحق في إخفائه».

* «ما من أحد يملك حقوقاً هنا. لن تجديه. هذا لن يحدث».

- «إنه يحدث!».

* «آن، سُحب سائحان من قطار وقُتلا في كيب هذا الأسبوع. الناس تختفي. السفارات لن تساعد. المصارف تُغلق. أنا لن أعبث مع هذه الحكومة».

- «حسناً! أنا لا أستجدي. حتى لو عرضت عليَّ مرافقتي، لن أدعك».

نظر ويل إلى الخارج ورأى ماو في الأسفل. كان ينفض الغبار عن الشرابة الصفراء، حصل على وقود إضافي في زجاجتي شراب فانتا تحت المقعد. التفت ويل إليَّ، قال: «لمَ ماو؟ لمَ ليس سائق سيَّارة رباعية الدفع بمكيِّف للهواء؟ لمَ ليس سيَّارة لها نوافذ تفتح وتغلق؟».

قلت: «الدرَّاجة لا تعلق. أنا أثق بماو. هو يعرف أناساً هناك».

Twitter: @ketab_n

تململ ويل، قال: «انتظري قليلاً».

حشا حقيبة ظهر صغيرة، رمى فيها بعض زجاجات المياه، وجد حذاءه، ربط كراما حول عنقه. قال: «هناك أشياء يندم الناس على عدم فعلها. لا أظن أن هذا سيكون من بينها».

عندما رأى ماو ويل يركب عربته ابتسم وجذب قبَّعته الخاصَّة بفريق أشبال شيكاجو، ثم شغَّل درَّاجته واقتحم حركة السير البطيئة، مروراً بعربة يجرُّها ثور محمَّلة بالأخشاب، ومركبة بيضاء من نوع تويوتا. بدت الشرابة المتأرجحة خلف رأس ويل مثل سجفِ مصباح عتيق الطراز.

حلَّق طائر صلاة من المعبد. كانت النسور فوق ضفَّتي النهر، وصقر يطوف فوق النهر الدوَّام. قلت لويل: «علينا أن نصل خلال أقلِّ من يوم. ربَّما سأعرف الليلة ما الذي حدث».

قال ويل: «هناك الكثير من الروائع في العالم. لكن ما من واحدة منها تعادل روعة الإنسان».

على الدوَّار كان عاملا نظافة يكنسان الرصيف في برودة الصباح، كريتش، كريتش، مخلوقات محنية تكسب قليلاً من النقود في اليوم، تجمع مكانسهم المصنوعة من القشِّ الغبار الأبدي. توقَّف أحدهم ليقدِّم أضحية تحت شجرة. من أجل ماذا يصلِّي؟ ولمن سأصلِّي؟ لا أؤمن بإله لكني أشعل البخور وأقدِّم الطعام للموتى، وللرهبان، أكرِّر صلوات قديمة. ليس ضرورياً إكمال العمل، لكننا لا نمتلك حرية الكفِّ عنه. راقبت بعض الحمامات ذات الأعناق الحمر تنقد على الرصيف، وسمعت صراخ طائر الوقواق في شجرة على الرصيف.

بنوم بنه التي كنا نغادرها كانت مقهورة. القادة السابقون كانوا يختفون عبر الحدود، طالبت الحكومة بنصر غير متنازع عليه، كان الجميع يحاول

Twitter: @ketab_n

حماية المصالح، والأسرار، وصرف العالم نظره كي تبدو تلك الأمور حرَّة، كلُّ الحلول دقيقة، سياسية، عنيفة.

ونحن نتمايل عبر الشوارع راقبنا الناس في الصباح الباكر يجدُّون السير، في توق، في حاجة. كان الناس في جميع أنحاء بنوم بنه يفيقون ويفركون أعينهم، يستعدُّون ليحاولوا النجاة يوماً آخر. شاهدت من النافذة امرأة تُنشِّف وتُقمِّط طفلها. كان على الأطفال الأكبر سنّاً أن يفعلوا هذا بأنفسهم.

على النهر، ناقلات بجيوب صدئة، وصيَّادو سمك ينصبون الصواري على طول الشواطئ، ومركب شرطة يهدر بالقرب.

راقبت المدينة المستيقظة وصلَّيت من أجل أن تكون حيَّاً.

مسَّ ويل ساقي وأشار بعينيه إلى امرأة شابَّة تصعد شارعاً فرعياً، تتَّكئ يدها بخفَّة على ذراع طفل. لم أرَ وجهها، فقط ظهرها النحيل المنتصب. قال ويل: «تلك سينيث». ونحن نمرُّ بحذائها التفتُّ لأرى المرأة ذات الشفاه الجميلة من ورشة أيدٍ ناظرة، وجهها دون عينين أو أنف، الجلد المرقع الممهد ملتحم بشدَّة نحو جبهتها وشفتيها. كان تمشي باطمئنان، وقال ويل: «إنها ذاهبة إلى العمل. كان من المفترض أن أذهب وأودِّعها اليوم».

منذ وقت طويل، عندما تم إجلاء الناس من بنوم بنه، أغلقوا الحدود، تذكَّر الناس أموراً، آخر مرَّة ناموا فيها في أسِرَّة، آخر مرَّة رأوا فيها أحبَّاءهم. كانت هناك تلك البرقية الأخيرة من بنوم بنه قبل أن تُقطع جميع الخطوط إلى الخارج: **أنا وحيد في مكتب البريد. أفقد الاتصال مع الآخرين. أنا أرتجف. كم هي الشوارع هادئة! لا مكان للاختباء. ربما تكون هذه آخر برقية اليوم وإلى الأبد.**

اسكنوا عندما تدنو النهاية. السكون، الكلمة المشتقَّة من الحَمّ.

Twitter: @ketab_n

- 57 -

مهرجان كاثن. في ضواحي المدينة، قدَّم الناس في كلِّ مكان الأضحيات للثواب. الطاولات أمام المعابد، مكبِّرات صوت صغيرة تدوي، أيدٍ وسلال ممدودة لتُلقي الصدقات. ظلَّ الرهبان في الأديرة في أثناء موسم المطر وارتدوا أرديتهم القديمة إلى أن جلب الناس لهم أردية جديدة في اليوم الأخير من الكاثن. قذارة وتطهير. موت وولادة جديدة. موسم رطب وجاف. بعد أن عبرنا النهر الهائج، اختلطت موسيقى معبد مع غبار الطريق.

ما تركته هو رمل يجري عبر الفتحة الضيِّقة لساعة رملية، حبيبات تتساقط، وتتساقط ثانية، وثانية، مثل عصا تضرب شخصاً حتى الموت، ولا تتوقَّف ولا تختفي أبداً.

عند أولى بوَّابات المعبد المتعدِّد الأدوار، ترجَّل ماو من درَّاجته ونظر في الدرب نحو المعبد. ظهر راهب وقدَّم له ماو بعض الأوراق النقدية المهترئة من محفظته الرقيقة. طلبت من آجا[1] مباركة عربتنا ورحلتنا. ربطت كراما فوق أنفي وفمي حماية من الغبار كما تفعل النساء الريفيات.

خمسة عشر كيلومتراً خارج بنوم بنه، السوق الأوَّل. تدلَّت حبال من

---

1 - في الأساطير الهندوسية آجا هو ابن الملك راغو الذي ينتسب إلى سلالة أول ملوك الهند ايكشفاكو والذي يدعي أن نسبه يتصل بإله الشمس سوريا.

Twitter: @ketab_n

اللحم من أعواد الخيزران تحت الأسطح المصنوعة من القش لبسطات السجق. بخار متصاعد من قدور الماء المغلي وثلّاجات برتقالية اللون أخفت زجاجات الماء المحلّى الملوّن والكوكا. طاولات صغيرة وكراسي مطبخ مطويّة تحت الظلّ من أجل المسافرين الجائعين.

أربعة وعشرون كيلومتراً أخرى، الأراضي المنبسطة والمرتفعة. عمل ماو بجدٍّ ليجنّبنا الحفر والوحول. وسرعان ما لم يعدْ يظهر إلا حقول من براعم الأرزّ الخضراء تمتدُّ نحو الأفق. عدد قليل من شجيرات ضئيلة الحجم وسعف السكّر، ظلال الجبال الزرقاء في الغرب. لا أحد سوى مزارعين وثيرانهم. لفَّ ويل لفافة حشيش وأعطاها لي. حدَّقت في حقول الأرزّ وشعرت بالهواء الحارّ على أصابع قدمي. التقينا بأولاد حفاة هزيلين ليسوا في المدرسة. مررنا بأناس يطبخون الطعام للبيع، ينشّفون أوراق شجرة المال قرب بسطاتهم. تباطأ عقلي وامتدَّ أمام الحقول الفسيحة.

لمَ يعيش بعض الناس حياة مريحة ويعيش الآخرون حياة مليئة بالرعب؟ أي جزء نخلعه من أنفسنا حتى يمكننا أن نواصل تناول الطعام بينما الآخرون يتضوَّرون جوعاً؟ إذا كان النساء والأطفال والمسنُّون يُقتلون على بعد أميال من هنا، ألن نُهرع للمساعدة؟ لماذا نوقف قرار القلب هذا عندما تكون المسافة ثلاثة آلاف ميل بدلاً من مئة؟ حدَّقت بعيداً نحو جبال الفيل. أحببت الطريق، التحرُّك، لست في أي مكان.

استند ويل إلى الوراء بعيون نصف مغلقة.

قلت: «كيف تقيس الوقت؟».

قال دون أن يفتح عينيه: «بمقدار الوقتِ اللازم كي أشعر بخدر الحشيش».

– «في الوطن كنت أقيس الوقت بسماعي أوَّل زقزقة للدوري ذي الصدر الأبيض في الربيع. كم من الوقت يحتاج الجسد ليصبح بارداً؟».

Twitter: @ketab_n

تجهَّم ويل:

* «أليس في وسعك أن تستريحي ولو للحظة؟».

ضحكت.

كنتُ محاربةً، مخدَّرة، مصابة بالأرق، متوجِّهةً إلى معركة. أبحث عن رفاق مفقودين لأستعيدهم. كوني محاربةً أسهل من الانتظار.

الذهاب إلى الحرب أسهل من التحدُّث.

قال ويل دون أن يفتح عينيه: «فقط ساعتان، عادةً أقل».

كنا نهتزُّ مثل بذور في خشخيشة.

لففت سيجارة بيد واحدة لأرفِّه عن ويل، أشعلتها وناولتها لماو الذي أومأ دون أن يزيح عينيه عن الطريق، انثنت الندبة على خده وهو يدخِّن. ما الذي يعنيه له أن يُقلَّ أجانب في جولات لم يقمْ بها هو نفسه يوماً؟ كلب ميت متفسِّخٌ في خندق. جهل، توق، مشاهد خاطئة. لديَّ كلُّ هذا. لا يمكنني أن أحرِّر نفسي من الرغبة. أريد أن أعرف. حدَّق ويل فيَّ وفكَّرت: «لم أعدْ جميلة. شحب لوني بسبب موت الطفلة والأسى وأصبحت ظلّاً هزيلاً».

قلت لويل: «ماذا ترى؟».

قال إنَّ هذه اللحظة جيِّدة بما فيه الكفاية.

ارتطمنا بصخرة كبيرة تمايلنا وضحكنا كلانا. استنفد المخدِّر طاقتي.

كنت قد منحت جسدي كاملاً لك. لم أسمعْ أيَّ تأوُّه فوقي، فقط متعة وانشراح. قلتَ مرَّة إنَّ حبِّي يحرِّرك من تمنِّي الموت؛ وصدَّقتُك.

توقَّف ماو كي تعبُر مجموعة من القرويين الطريق، يدفعون منزلاً على ركائز. دحرجوه على منصَّات بأربع عجلات. رجال سحبوا ودفعوا، حبال

Twitter: @ketab_n

فوق أكتاف عارية، هُرع أطفال حفاة بمحاذاتهم يحملون عصيّاً. تعلَّم الناس مع تمايل منزل الركائز أن يتحرَّكوا برفق. يمكن لامرأة تتقلَّب في نومها أن تؤرجح منزل الركائز. ولد يصعد الدرجات بحمل ثقيل يمكنه أن يؤرجح منزل ركائز. حتى الريح تؤرجح منزل الركائز. كان المنزل يتمايل على الطريق، دفعه القرويون وسحبوه، مثل مسير كرنفال مع مهرِّجين وحيوانات مدرَّبة وألعاب بهلوانية ونساء يرتدين أثواباً زاهية اللون ورجال حفاة.

- «ويل؟».

* «نعم؟».

- «هل تظن بأنه حي؟».

* «هل تودِّين الحقيقة؟».

- «ليس الآن».

استندت إلى الخلف وشعرت بالحرارة في شعري.

قطعنا ثلاثين كيلومتراً أخرى على الطريق، سدَّ زوج من دمى كائين الطريق، كانا بطول ثلاثة أمتار برأسين مصنوعين من عجينة الورق، بابتسامات بشفاه مزمومة وعيون مدوَّرة. أيد هائلة مصنوعة من عجينة الورق لوَّحت في الهواء، وضعت على عصيٍّ طويلة تحت قمصان برتقالية وخضراء اللون، يجمعان الصدقات للرهبان. غطَّى ثوبان طويلان جسدَي الدميتين حتى الكاحلين، وأقدام عريضة تنتعل صنادل بارزة من الأسفل. تمايلت الدميتان ومدَّتا أيديهما وسط الطريق. هرع شتات من الناس بالقرب من الدميتين مثل الدجاج، يضحكون ويلمسون ثوبيهما. أراد ماو أن يلتفَّ من حولهما لكنهما سدَّتا الطريق وأجبرتانا على التوقُّف.

تقدَّم الدمية الذَّكَر وتلقَّى المال الذي ناولته إيَّاه. ضحك الجميع. مشت الدمية الأنثى بجانب العربة مادَّة يدها طلباً للمزيد. قفز ويل وصرخ بلهجة

Twitter: @ketab_n

مريعة: «باونج! باونج سري!». وهاج الجمع. أمسك بيد الدمية وقفز على الطريق، مدَّ يده وأخذ اليد الأخرى وراح يرقص. ضحك الأطفال وصرخ ويل لي بالإنكليزية: «انظري! أنا أرقص من أجل الثواب في الحياة الأخرى».

ثمَّ رمى يد الدمية وتراجع يمسك بوجهه وصرخ: «آووو. سنِّي! سنِّي!».

فتل رأسه من جانب إلى آخر وتأوَّه. خرَّ على ركبتيه أمام الدمية الذَّكَر وترجَّى بالإنكليزية: «النجدة! النجدة! أعاني من ألم رهيب في أسناني».

تمدَّدت أصابع القدمين في الصندل تحت الدمية. عرف الدمية أنَّ ويل كان يهرِّج. مدَّ يدَه من أجل المزيد من الصدقات وضحك الجميع. ركعت الدمية الأنثى تميل بخصرها، تمدُّ كلتا يديها لتمسك برأس ويل. تنهَّد الحشد. وغنَّى الذكر أحجية بلا معنى:

«عندما لا يمدُّ قاضٍ يده ليأخذ قطعة نقود
عندما تُنصف كلُّ قضية قانونية
عندما لا يوجد طفل في الزقاق وحيداً
عندما لا يأخذ راهب الصدقات من سياسي
عندما تعيش المرأة خارج البيت
وما من روح تتجوَّل غير مدفونة
حينها سيبلغ العالم
فوضى عظيمة.
حينها يأتي زمن لم نره بعد
نبوءة مستقبلية، نحنُ نعيش قبل هذا الزمن».

صعد طفل العربة ووضع وردة رومدول صفراء وبيضاء اللون شذية

Twitter: @ketab_n

الرائحة في يدي. نادى ماو على ويل: «تعال. يجب أن نصل قبل حلول الظلام». بينما كنا نبتعد، راقبت الناس يتضاءلون في الغبار الأحمر. لن أراهم ثانية أبداً، فكّرت. سأنسى هؤلاء الناس وسوف ينسونني حالما يمرُّ المزيد من الغرباء بمهرجانهم. عندما كنت صغيرة ظننت بأني سأتذكّر كلَّ شيء، الآن أعرف أنَّ الناس يفقدون بعض الأمور، وأنَّ طريقة سردنا للماضي وطريقة استعمالنا له ليستا مترابطتين.

أحببتَ دمى كاثين. ربَّما كنت ستفسِّر أغنيتهم الغريبة. عرفتني عندما لم يُخفِ ضحكي شيئاً. لا تحدث الأمور لنا فجأة. بل بالتدريج.

تفحَّصت الأرض الحمراء. أحصيت الشجرات لأبقى مستيقظة، أشجار المظلَّة والمانجا والطاووس. ثمَّ اختفى الطريق.

الذاكرة شذرة ضوء على جدار شتائي. البارحة بينما كنت أكتب التقيت بقريبة بعيدة لم أرها منذ عهد الطفولة. كان لها فم والدي. ابتنا لها فمك. كان السفر ذلك اليوم بطيئاً جدّاً، تخبط كيلومتر وراء آخر، ثمَّ وصلنا إلى الوادي الضيِّق حيث اختفى الطريق، خرجت من العربة وتعثَّرت، رميت الوردة التي دهكتها في راحة يدي.

تكسَّر الجسر تحت شاحنة محمَّلة بالخرسانة. في قعر الوادي، جرى جدول متخلِّلاً السيَّارة. كانت أكياس من مزيج الإسمنت متناثرة على ضفة النهر وكان الرجال يقذفون ما لا يزال جافّاً بعيداً عن الماء.

بارتياح مصطنع، نظر ويل إلى الجسر المحطم، قال: «أنا أسأل نفسي أيَّ جحيم جعلني آتي في هذه الرحلة؟!».

كان رأس سائق الشاحنة ملفوفاً بشرائط قطنية مدماة. حدَّق الناس. مشى في حلقات. ناوله شخص ما الماء ليشرب لكنه هزَّ رأسه وقال: «شاحنتي».

Twitter: @ketab_n

قلت لويل: «هنا المكان آمن إذا غضضنا النظر عن الألغام الأرضية أو الفجوات في الطريق التي بحجم فوَّهات القمر أو الجسور التي تنهار أو الناس الذين يختفون!».

كان رجال بأذرع وظهور قوية يجرُّون جذعي شجرتين طويلين نحو النهر. نقلوهما بالتدريج إلى موقع الجسر القديم، رفعوهما وأفلتوهما على الجانب الآخر. جرَّ الناس ألواحاً من الجسر القديم ليبدؤوا بوضعها عبره.

قلت لماو: «لنعبرها».

قال ماو: «الجسر ليس جاهزاً بعد. سيثبّتونه بالمسامير أوَّلاً».

- «أين المسامير؟ قبل أن تصل المسامير إلى هنا يمكن أن نموت. سيحلُّ الظلام».

أخذت مقود دراجة ماو الهوندا 90 ودفعتها نحو ضفَّة النهر.

أخذ ماو المقابض مني وقال: «نعم، توقَّفي، بورنج سري. سأفكُّها. سنفعلها على مرحلتين، أوَّلاً العربة، ثمَّ الدرَّاجة. انتظري، يا أختاه».

ما من شيء هادئ. كلُّ شيء يتحرَّك. عقلي يحترق بإصابة لا تندمل ولا تترك ندبة. الشرابة الصفراء تنوس كالمجنونة. الجميع يتجمَّع على ضفَّة النهر ليرى الغريب ذا الصبر النافد. عندما هُرع الأولاد للمساعدة، صرخ ماو ليبتعدوا. رفع هو وويل المقطورة ولم يتوقَّفا ولم يُسرعا، وأنا أراقب وأصغي إلى صوت تصدُّع الجسر المؤقَّت تحت عجلات العربة الصغيرة. قميص ويل مبلَّل. رأس ماو ملتفت قليلاً إلى الخلف، توسَّع ثقب الضوء في عينه وتركَّز مثل حصان على الشكيمة للمرَّة الأولى، يراقب مقطورته، قوت يومه، مستقبل طفليه. يجب ألا يحدث شيء لعربته. عندما وصلت قدماه إلى الضفة المقابلة، اصطدمت العجلة الأمامية اليسرى بعقدة في الخشب وعلقت، رفع ماو عجلات العربة لترسو. التوى لوح نحو الأعلى

Twitter: @ketab_n

وسقط في حركة بطيئة نحو الوادي، قفز ويل على البقعة المكشوفة ورقص رقصة سريعة. أوصلتُ الآن درَّاجة ماو إلى الألواح الرخوة وماو يصرخ بالخميرية: «انتظري، يا أختي. الألواح تنزلق!»، وويل يصرخ: «ألا يمكنك أن تنتظري بحقِّ الجحيم؟».

وقفا على الحافَّة يراقبان، ينحنيان في الهواء على الجسر المؤقَّت. تقدَّمت خطوة خطوة. اعتدت أن أدفع درَّاجة بخارية بمقعد جانبي لكنَّ درَّاجة ماو تتمايل. وازنت المقود وتقدَّمت نحو الفجوة قرب النهاية. يمكنني أن أرى الطريق إلى آنج تاسوم مثل إصبع ملتهب المفاصل ينحني مبتعداً عن الوادي. العجلة الخلفية تضرب الفجوة وتلتوي. تتلقَّف وتُميل هيكل الدرَّاجة جانبياً وماسورة العادم الحارَّة تسفع ساقي، وأنا خائفة من العمق تحتي والخطوط الخشنة لضفَّة النهر. أتذكَّر أيضاً أني فكَّرت في وجوب أن أكون هناك لأنَّ الموتى يكونون في الأسفل، تذكَّرت أن أنبِّه نفسي وأفكِّر في أنني لن أسقط في فجوة سوداء على الطريق إلى آنج تاسوم قبل أن أجدك. ماو وويل ينحنيان مثل جسد واحد، يلتقط ماو العجلة الأمامية وينتظر، وويل يلتقط معصمي ويجذبني إلى الضفَّة. ثمَّ التفتا ليراقبا لوحاً آخر يسقط عمودياً في الإسمنت عند القاع.

أفترش الأرض وأضحك. يتَّكئ ويل فوق الحرق على ساقي.

الآن نحن على الطرف البعيد. حيث نريد أن نكون.

Twitter: @ketab_n

- 58 -

ليس في حقول الأرزِّ تيَّارات عميقة، فقط ما يمكن أن يُرى.

طبطبت على حرق ساقي. لفَّ ويل لفافة أخرى وأشعلها ومررها إليَّ وهو يقول: «من أجل الألم».

لم أعدْ أشعر بالألم.

رجلٌ يلسع ظهر جاموس الماء بسوطه.

لم أشعرْ يوماً بالحياة كما شعرت على الطريق إلى آنج تاسوم. غطَّى الغبار الأحمر الشرابة الصفراء تماماً.

لو كنت جالسة على سطح نادي المراسلين الصحفيين معك، سأطلب بيرة باردة. بعدها سأطلب شطيرة من خبز باغيت الفرنسي وقهوة إسبريسو. سأمسُّ ذراعك وأراقب رجالاً يرتدون أحذية جلدية من مدن بعيدة مع تلك الفتيات الجميلات الشابَّات اللواتي يضعن أحمر شفاه وينتعلن كعوباً عالية. سأصغي إلى أشياء سخيفة يقولها الناس، أراقب كلَّ تلك الحركة البشرية. مرَّة رأيتُ رجلاً يمرِّر المال إلى آخر ويأخذ شابَّة بالمقابل. قال صحفي من خلفي: «الزوجة من أجل الأطفال، لكن بين الحين والآخر يحتاج الرجل إلى واحدة تبلغ من العمر ثلاثة عشر عاماً».

- «ويل؟».

Twitter: @ketab_n

* «ماذا؟».

- «لو كان ميتاً، ماذا سيبقى منه؟».

رفع ويل حاجبيه، قال بتمُّهل: «هذا يعتمد على مكان الجثَّة. أحياناً يتحوَّل الدهن إلى مادَّة شمعية، لكننا تجاوزنا تقريباً الموسم الماطر، كلُّ شيء يختفي في الرطوبة».

أظنُّ أن في وسعي أن أشمَّ رائحتك.

Twitter: @ketab_n

- 59 -

جاءت امرأة ذات يوم إلى بوذا تحمل ابنها الميت بين ذراعيها. طلبت منه أن يرحمها، وأن يعيد إليها ابنها. قال بوذا إنه يستطيع مساعدتها. «بدايةً»، قال، «اجلبي لي بذرة الخردل من عائلة لم تختبر الموت يوماً». بحثت المرأة من بيت إلى بيت. أراد الناس مساعدتها لكنَّ جميع من قابلتهم خبروا الموت. أخ، أخت، والدان، زوج، طفل. بعد بحث طويل عادت المرأة إلى بوذا.

قال: «أين ابنك؟».

أجابت المرأة: «دفنته».

Twitter: @ketab_n

- 60 -

ازداد الطريق وعورة. تدافعنا قدماً وراقبت أُمَّاً شابَّة تقرفص على قارعة الطريق، تتناول وجبتها المسائية، تحمل طفلها. لم يكن لديَّ طفل لأحمله. ماذا ستفعل لو أنَّ الجنود جاؤوا إليها واختطفوا طفلها؟ قال بوذا: «الأحقاد لا تنتهي في هذا العالم بالكراهية، لكن بالحب، اهزم الغضب بالحب، اهزم الشرَّ بالخير. اهزم البؤس بالعطاء، اهزم الكاذب بالصدق».

هل للأمِّ الحقُّ في الغفران للرجل الذي ينتزع طفلها من بين ذراعيها؟ هل لليتيم الحقُّ في أن يغفر لقتلة والديه؟ لا يدرون ماذا يفعلون. من له الحقُّ في المغفرة في مثل هذه الأمور؟ هل يمكنني أن أغفر لهم لأنهم أخذوك مني؟ الغفرانُ هو عمل متطرِّف. البشر يحبُّون قصص الانتقام، حتَّى هؤلاء الذين يزعمون اتباعهم ملحمة الحبِّ في العهد الجديد.

تخلَّ عن القاعدة الذهبية[1]. اجعل العدوَّ وحشياً. انعت العدو بالكلب، أفعى، جندي ألماني، لزج، يهودي، بغي، صرصار، كلِّ هذا الكلام القبيح. اخطف الطفل من أمِّه واقتله أو اجعله جندياً. اغتصب المرأة وازرع البذرة المتفوِّقة في عضو هذا الكائن دون الإنساني.

---

1 - المعاملة بالمثل، وهي قاعدة منتشرة في أغلب الثقافات والأديان وتعني أن تعامل الآخرين كما تحب أن يعاملوك.

Twitter: @ketab_n

توقَّف ماو عند موقف على قارعة الطريق ليملأ درَّاجته من إحدى زجاجات الفانتا وليشتري واحدة أخرى من رفوف ضيِّقة مكوَّمة بأناقة بعلب سجائر من أنواع مايلد سيفينس وكاميل ومارلبورو. مشى ويل الهوينى ضجراً. التقط عصا وضربَ كرة من ورق قديم مثلما تضرب كرة الجولف. خلال ثوانٍ كانت مجموعة من الأولاد تقلِّده، يلعبون الجولف بالعصي. وفتاة عرجاء تتثنَّى في مشيتها بشكل لطيف.

نادانا ويل أنا وماو حيث كنا نتَّكئ على قارعة الطريق نحتسي شراباً بارداً: «أعرِّفكما بفريق أشبال مقاطعة التاكيو للجولف. أليست هذه الفتاة الصغيرة مثيرة؟ لو كنت أملك آلة تصوير لالتقطتُ صوراً وأرسلتها إلى هون سن. هل تعرفان أنَّ مضربه الجولف المفضَّل هو من نوع "كيفن بورنز"؟».

راقب ماو الأطفال وتحدَّث في الهواء دون أن يلتفت لينظر إليَّ. قال: «سألت ماذا حلَّ بي. عندما كنت ولداً أمضيت الكثير من الوقت في المعبد. تعلَّمت القراءة. أحببت أن أكون راهباً. لكنَّ عائلتي كانت فقيرة واحتاجتني. عندما بدأ القتل قربنا كنت لا أزال أصيد مع أبي. أُرسلت من كيب لأني كنت قوياً. أُرسلت إلى العمل في حمل الصخور للسدود. الآلاف منا حملوا سلالاً من الصخور».

أشار إلى الندبة على خدِّه. قال: «نلتُ هذه ذات يوم عندما رميت سلَّتي. قرَّرت تلك الليلة أنه من الأفضل أن أموت هرباً على أن أتضوَّر جوعاً هنا. تسلَّلت إلى مخيَّم النساء وتمكنت من اصطحاب آري وهربنا واختفينا وعبرنا الحدود التايلاندية. أمضينا وقتاً طويلاً في مخيم سا كيو، حتى النهاية. كانت زوجتي حبلى. في كلِّ مكان في مراكز الإيقاف كانت النساء حوامل. لكنَّ التايلانديين لم يرغبوا في أن ننجب الأطفال.

Twitter: @ketab_n

بدأ عمَّال المخيَّم التايلاندي بإعطاء النساء حبوب "ديبو بروفيرا"[1]، وقال العمَّال الأميركيون: لا تتناولنه، إنه ممنوع في أمريكا.

عندما جاء الجنود التايلانديون لحقن آري كانت هناك مشاكل في المخيَّم. كان جنود الخمير الحمر يحاولون سرقة الطعام من أجل الجيش. أجبروا ذلك اليوم رجلاً على الصعود حافياً في صهريج ماء فارغ. أغلقوا الغطاء وأقفلوه، أضرموا ناراً حوله وضربوا بعنف بمطرقة على القمَّة. صرخ الرجل من الداخل وتظاهر الجميع بعدم السماع إلى أن جاء أخيراً رجلٌ فرنسيٌّ وتجادل مع الجنود وهدَّدهم حتى فتحوا الصهريج. كان الرجل محروقاً، نصف ميت. كنت أبحث عن آري وفي حمأة الصراخ والصياح رأيت جندياً ذاهباً لحقنها. صفعها لكنها لم تستجدِ. قالت: ابتعد عني. أنا عاقر. اغتصبت عدَّة مرَّات. أنا عاقر.

شعر الجنديُّ بالعار فالتفت مبتعداً. وهكذا حاولتْ أن تنقذ طفلنا. عندما انتبهوا كان قد فات الوقت لفعل أي شيء».

توقَّف ماو، ارتشف رشفة صغيرة من شرابه وراقب ويل يلعب مع الأطفال. قال: «لم أرغب في أن يترعرع ابني في مخيَّم للاجئين. لم يرغب التايلانديون فينا ولم أحظَ بفرصة الذهاب إلى الخارج. الخمير الحمر هدَّدونا. غنوا:

هؤلاء الذين يعودون أوَّلاً سينامون في أكواخ.
هؤلاء الذين يعودون ثانياً سينامون على حصر.
هؤلاء الذين يعودون ثالثاً سينامون في الوحل.
هؤلاء الذين يعودون أخيراً سينامون تحت الأرض.

قرَّرنا بعد ولادة الطفل أننا لن نبقى في المخيَّمات، فعدنا سيراً على

1- عقار لمنع الحمل.

Twitter: @ketab_n

الأقدام إلى بنوم بنه، ولا نعرف سبب نجاتنا. مشينا قرب أجساد الموتى، ونمنا قريباً من أجساد الموتى لأنَّ الألغام هناك قد انفجرت مسبقاً. على الطرف البعيد من حقول الألغام، جلس أطفال برزت عظامهم من تحت جلدهم، ينتظرون أهلاً لم ينجوا. كنا نشعر بجوع شديد. مات طفلنا على الطريق إلى بنوم بنه».

جلسنا جنباً إلى جنب في الظلِّ ننظر إلى اللاشيء. عطر وردة الرومدول على راحتي. كما لو أنه لم يكن في انتظارنا سفر. كما لو أننا وصلنا بالفعل. نهاية الشيء أفضل من البداية. لم أعرف ماذا أقول. نبض، ليس نبضي، يخفق في داخلي.

قال ماو: «ماذا يعرف هؤلاء الأطفال عن آنكا؟ ذكَّرتني حقول الأرز بآنكا. أقود على هذا الطريق الأحمر الطويل وسمعت أغنياتهم وصراخهم والأصوات تحرقني من الداخل. لا بدَّ من أن أكون حريصاً دوماً. يجب ألا أخون نفسي. أنت أيضاً عليك أن تكوني حذرة، يا أختي. القادة لا يريدون المشاكل».

خربشت على الأرض بعصا صغيرة.

وقف ماو وقال: «يوماً ما حتى الأحجار ستتحدَّث».

نادى ويل: «هل حان وقت الذهاب؟».

قال لي ماو بهدوء: «لا أزال أفكِّر في الأطفال الجوعى هؤلاء. بورنج سري، فقط أريدك أن تعرفي».

Twitter: @ketab_n

- 61 -

عندما كنا شبَّاناً في مونتريال، بعد أن أنفقنا آخر نقودنا في محطَّة القطار ونحن نلتقط الصور لأنفسنا في كشك التصوير، عبرنا الشارع ودخلنا إلى كاتدرائية "ماري رين دو موند" لأنَّ الريح كانت عاتية جدًّاً عند النهر. تجوَّلنا تحت السطح العالي عبر دخان البخور والشموع. أمسكنا أيدي بعضنا البعض واقترب منا كاهن وطالبنا بعدم التلامس في هذا المكان المقدَّس. نظرنا إلى اللوحات الجدارية للقساوسة الكاثوليك والراهبات يُحرقن أحياء وبريق النار على جلد الهنود، وتفحَّصنا وجوه المهاجِمين والمهاجَمين تتلوَّى بالغضب واللوعة، عيون مقلوبة، أطراف متوتِّرة.

وقفنا في صحن الكنيسة تحت تمثال طويل لرجل معذَّب معلَّق على الصليب. تقتُ إلى صورة للرحمة في مكان العبادة هذا. وقفت بجانبك، محرومة من لمسك، وفجأة اغرورقت عيناي بالدموع وقلت: «لا تخجلي. عندما آخذك إلى معبد "آنكور" سترين نقوشاً على الجدران لأناس يتعذبَّون ويتساقطون في الجحيم، يرسلهم ياما إلى مصيرهم. هذه الأمور في كلِّ مكان».

أغلقت عينيَّ، وإلى الآن يمكنني أن أشعر بحرارة راحة يدك على راحتي، وأن أشمَّ رائحة البخور ورائحتك.

Twitter: @ketab_n

- 62 -

انعطف ماو وأبطأ السير، آخر معبد قبل آنج تاسوم. رميت بعض النقود من جانب العربة إلى بوابة المعبد لكنَّ الأوراق المالية لم تصب مرماها على الطاولة وارتعشت في النسيم. تلقَّفها أطفال يلعبون على جانب الطريق، ووضعوها على الطاولة، والتفتوا ملوِّحين. ابتسامات عريضة. زمن المهرجان. ابتسامتك.

أصوات الطبول من آنج تاسوم والغشاوة الساطعة لحشود المهرجان في الشوارع. منتصف أصيل آخر أيَّام كاثن وعازفو الطبول يرتدون قمصاناً صفراء وربطات عنق ونطاقات حمراء حول رؤوسهم، يدقُّون على طبول طويلة مزيَّنة بالكشاكش الذهبية والخضراء والحمراء. نساء مسنَّات يرتدين تنانير السامبوت الحمراء وفي إثرهن رجال يرتدون أردية سارونج نظيفة، يتمايلون مع الإيقاعات، تحت مظلات صفراء هائلة مزركشة الحواف، يحملون سلال الطعام على رؤوسهم. عند مقدَّمة موكب كاثن ثلاثة أشخاص يرتدون قمصاناً صفراء ولفاعات ونطاقات حمراء يحملون أكداساً من أردية زعفرانية اللون نظيفة مطوية. كان النساء والرجال في إثرهم يرتدون خوذات حمراء وذهبية وبرتقالية طويلة لها شكل المعابد. ركض أطفال حفاة على الجانبين وصفَّقوا وركلوا الحصى وأملوا في شيءٍ طيِّبٍ ليأكلوه.

Twitter: @ketab_n

وعندما تقدَّم الموكب أكثر على الطريق نحو المعبد سلكنا طريقنا عبر السوق إلى الشارع الرئيس، صفٌّ من بسطات الطعام وطاولات مظلَّلة بسقائفَ من الصفيح، مكسوَّة ببلاستيك ملوَّن بالأحمر والأبيض، بخار يتصاعد من قدور مملوءة بالماء المغلي، مصارف يجري فيها الماء القذر على جوانب الطريق. والدتان شابَّتان مع طفليهما، اختلسا النظر حول عمود البسطة. راقبت بألم بليد الطريقة العابرة التي نقلتا بها طفليهما على وركيهما. أبطأ ماو وتوقَّف عند نُزل تمور سور، مطعمه في الهواء الطلق في المقدَّمة ومراحيض بسيطة خارجية في الخلف. ترجَّلنا من العربة وتمطينا. قال ماو بهدوء: «سأذهب الآن وأرى ما في وسعي إيجاده. سأقيم عند قريبة زوجتي وآتي في الصباح لألقاكما. انتظراني هنا».

دخلت وويل إلى المطعم وطلب طعاماً يفوق ما نحتاجه وبيرة باردة وماء معبَّأ، وسرعان ما اقتربت ثلَّة من الأطفال من طاولتنا. جاء النُّدل بأطباق النودل وخضار مجد الصباح ولحم الخنزير ونوع من السمك لم أعرفه. لفَّ ويل علبة كبيرة من اللحم والسمك في منديل على ركبته. زلقها في يد كبرى الفتيات في المجموعة، فأخفتها تحت قميصها. شاهد الندل وتظاهروا بأنهم لم يروا. كان الجميع يحاول النجاة. أرجوك يا الله، يا بوذا، أيها اللقلق الحليبي اللون فوق المياه المخضوضة، أرجوك.

قلت لويل بعد أن تناولنا الطعام: «أنا ذاهبة لأشتري شيئاً من أجل حروقي».

أومأ ويل قائلاً: «سأنتظر هنا. أنا ذاهب إلى النوم».

مشيتُ على طول الطريق وتوقَّفتُ عند بسطة حيث كانت امرأة مسنَّة تنحني على بخار قدر النودل، وقلت: «أنا أبحث عن رجل جُلب إلى هنا في أثناء الانقلاب منذ ستَّة أشهر. أين يقع السجن؟ إلى أين يجلب الجنود من بنوم بنه مساجينهم؟ يمكنني أن أدفع».

Twitter: @ketab_n

التفتت المرأة المسنَّة مرعوبة. لم يستعمل أحد كلمة انقلاب. سمَّاها الناس أحداث القنابل. قالت: «لا أعرف شيئاً».

عاودت طرحت الأسئلة نفسها طوال وجودي في السوق واندفعت العيون وزاغت بعيداً تبحث عمَّن قد يسترق السمع أو يشاهد. لم ينبس أحد بكلمة. انفضَّ الجميع عني. اشتريت مرهماً مصنوعاً من نبات الألوة، عدت إلى غرفتي الخالية من الهواء وانتظرت.

تماماً قبل الغسق، جاء ضابطا شرطة إلى الفندق. كان أحدهما شابّاً ببشرة صافية وعينين يقظتين، أما الآخر فكان متوسِّط الطول مسنّاً بعيون قاسية وندبة ثخينة على يده اليمنى. قال بقسوة: «يرغب قائد الشرطة في التحدُّث إليك».

جاء ويل إلى القاعة، قال: «ماذا يجري؟». وضع نفسه بيني وبين الرجلين وهمس: «ماذا فعلتِ بحقِّ الجحيم؟».

ابتعدت عن ويل، قلتُ بالإنكليزية: «هكذا لن يكون عليهم إلقاء اللائمة على ماو بل عليَّ».

ثم قلتُ بالخميرية للرجل ذي العيون القاسية: «إذا لم أعدْ سيأتي صديقي بحثاً عني. إذا لم أعدْ سيعرف الجميع في بلدي».

بصق جانباً وأشاح الجنديُّ الأصغر سنّاً ببصره مُحرَجاً. سارا، واحد على كلِّ جانب، على الطريق الرئيس حيث كانت البسطات لا تزال مفتوحة للاحتفالات وكان الناس يرتاحون على الأسطح الباردة. قادني الرجلان على طريق فرعي نحو مخفر الشرطة، وواكباني إلى غرفة من الإسمنت حيث كان رجل يرتدي قميصاً نظيفاً ومكوياً أزرقَ فاتح اللون يجلس على كرسي خشبي. أضاء الغرفة مصباح وحيد في منتصف السقف. كان أقرب إلى البدانة، وتغضُّنات عميقة بين عينيه. لم يقف، لكن أشار إليَّ لأجلس

Twitter: @ketab_n

على الكرسي على الجانب الآخر من مكتبه. صرف الجنديَّين وقال: «ما اسمك؟».

- «آن جريفز».

أشعل سيجارة، ولم يقدِّم لي واحدة، نظر عبر المكتب إليَّ، قال: «ماذا تفعلين هنا؟».

- «أبحث عن شخص مفقود».

* «هذا ليس مسموحاً».

كانت لغته الخميرية رسمية وراقية.

- «أفهم. لكني أفعل هذا بأية حال. أودُّ أن أعرف اسمك».

لم أعدْ أتظاهر بالاحترام. لم أعدْ أتظاهر بأيِّ شيء.

حدَّق بعمق، الحركة الوحيدة على وجهه الساكن. انحنى إلى الأمام، أراح ساعديه على المكتب، قال: «اسمي ما ريث. أنا قائد شرطة المنطقة. ما الذي يجعلك تظنِّين أنَّ في وسعك فعل هذا؟».

أجبتُ: «من الطبيعي أن تبحث عن شخص مفقود. وأعلم أنه قد جِيءَ به إلى هنا».

* «كيف تعرفين؟».

- «أخبرني جندي».

* «ما اسمه؟».

- «لم يقل لي».

فتح ما ريث ملفَّاً قديماً على مكتبه وكتب. رفع بصره ثانية، قال: «أين؟».

أجبته: «اقترب مني قرب أحد المداخل، لكن لا أتذكَّر أين بالضبط. في مكان ما على رصيف سيسواث في بنوم بنه».

Twitter: @ketab_n

كتب ورفع بصره ثانية، قال بصوت مقنع حصيف: «يجب أن تفهمي بأنه لا يمكنك أن تأتي إلى آنج تاسوم وتطلبي من الناس التحدُّث عن أمور لا يعلمون عنها شيئاً. هذا يحدث بلبلة. بلادنا عانت الكثير. يجب أن يحظى قادتنا بولاء الناس. لا يمكن إرساء النظام بدون هذا. نحن نعيد بناء بلادنا ونرسي الديمقراطية».

استعملت الحكومة في جميع خطاباتها هذه الشعارات. في البرامج الإذاعية والصحف. لكنهم قالوا أيضاً: «إذا وُجدت المعارضة، سيعود بول بوت».

قلت: «في ديمقراطية كمبوديا الجديدة، سترغب في أن تُقال الحقيقة وتُطبَّق العدالة. ستفهم أنَّ الناس لا يمكنهم أن يختفوا هكذا».

واصل ما ريث كما لو أني لم أتكلَّم: «أنت في هذا البلد لفترة قصيرة من الوقت فقط. يجب أن تعودي إلى بنوم بنه. لا يمكنك إثارة المشاكل هنا».

قلت: «لا أرغب في إثارة المشاكل. أنا أريد فقط أن أعرف ما الذي حصل».

رفع حاجبيه وازدادت نبرته خشونة: «لا بدَّ من أن تفهمي أن الأمل في إيجاد الأقرباء المفقودين لا يراود أغلب مواطنينا. الدأب الحزين للبحث دون نتيجة هو أمر يستمرُّ مواطنونا في المعاناة منه».

استند إلى الوراء وتحوَّل إلى نبرة ألطف: «أنا أتألَّم دوماً عندما أرى الناس يبحثون عن أفراد فُقدوا من عائلتهم في أثناء الحرب. أصلِّي للمقدَّسات أن تسمح لهؤلاء الناس بأن يلتقوا بأفراد عائلتهم ثانية. بعض من أفراد عائلتي وأصدقائي غادروني إلى الأبد، ولا أزال أجهل مصائرهم. علينا المضيُّ قدماً».

شعارات.

Twitter: @ketab_n

لم أرَ في عينيه ألماً على الإطلاق، بل صبراً نافداً لرجل لديه عمل عليه تأديته. عندما يغيِّر النهر اتجاه جريانه يمكن حدوث أيِّ شيء. ينقلب المنتظم بدقَّة على نفسه. تعوم أجساد بوجوه مقلوبة في دوَّامات رقيقة.

نظرت في عينيه وقلت: «أنا لا أبحث عن شخص فُقد في أثناء عهد بول بوت. بل عن شخص فُقد من تجمهر سياسي منذ ستَّة أشهر».

رمى سيجارته على الأرض، وداسها، أجاب: «لنقل أن حادثاً وقع ومات الشخص الذي تبحثين عنه. وبما أنه ما من شيء يمكن فعله في هذه الحالة، سيكون من الأفضل أن تعودي إلى بنوم بنه. قادتُنا وقادتُكم في الغرب لا يريدون المشاكل».

تراخت أحشائي وتشكَّل تاج من حباب فوق صدغيَّ. أردت أن أصرخ لكن لم يكن هناك من نفَس. أردت أن أقول: لكنَّ المشاكل موجودة فعلاً. الناس يُقتلون في الشوارع. الأجساد متروكة على ضفاف النهر. القادة يهربون عبر الحدود.

قلت: «أريد رفاته».

دفعت الكلمات، غير مصدِّقة ما قلته. قلت: «إذا فارق شخص الحياة، بالتأكيد يتسلَّم الناس جثمانه. في بنوم بنه يذهب الناس إلى المعابد للمطالبة بموتاهم. رأيت ذلك».

خبط بقلمه على الملف، قال: «بالتأكيد هناك إجراءات. لكن يجب أن يكون الشخص قادراً على التعرُّف على فقيده. وإذا حدث أنَّ شخصاً رغب في المطالبة برفات متنازع عليها، على هذا الشخص أن يرفع دعوى مع "جا في سروك" في آنج تاسوم».

كان يحاول إظهار وجود قوانين، ووجود طرق جديدة لا تعتمد على التقاليد ولا على العنف. لكنَّ كلماته كانت مثل بذار دون تربة. كان عليه

Twitter: @ketab_n

أن يرضي قادته. كان عليه إخفاء المشاكل. أحسَّ باحتقاري، قال بغضب مكبوح: «في حالتك لن يكون مسموحاً بإقامة الدعوى لأنه ما شيء لإيجاده. ستعودين الآن إلى غرفتك وفي الصباح تعودين إلى بنوم بنه. تم إعلام سائقك بهذا».

خبط بقلمه، بتهويل وقسوة. المقابلة انتهت.

لكني قلت: «أرغب في طلب مساعدتك في إيجاد أشلائه».

راقبنا أنا وهو كيف وضع قلمه بتأنٍّ على المكتب. وقف ورفع ذراعه الأيمن فوق رأسه وأنزله بإصبع يشير إلى وجهي، حرَّك يده في الهواء ثلاث مرَّات وهو يتكلَّم: «أنت لا تصغين. ليس هناك شيء كي تجديه. ستعودين إلى بنوم بنه».

ثرثرة.

ومض المصباح الكهربائي العاري فوق رأسينا، شحب وأضاء ثانية. لم يرمق الضوء المعيب وأغلقت عينيَّ ورأيت صورة سريعة الزوال لشابَّة تنظر في عيني طفلها. نبَّهت نفسي كي أركِّز، لأحرِّر نفسي. أشعل سيجارة أخرى، نفث الدخان في وجهي.

قال: «ستُعادين إلى غرفتك. فجراً تعودين إلى بنوم بنه. لا نريد مشاكل».

Twitter: @ketab_n

- 63 -

لا أفهم ما أكنُّه لك من حبٍّ مبهم. لكني في حالة سمَّاها الغنوصيُّون القدماء الخواء. إذا ظهر وجهك في عتبة الباب حيث أجلس إلى هذا المكتب الصغير، سألتفت إليك وأقول: «الآن استيقظتُ».

الغريب في حبِّي لك أنه جعلني ميتة في الحياة وجعلك حيَّاً في الموت. أخشى أنك ستختفي ولن يتذكَّر أحد اسمك.

Twitter: @ketab_n

- 64 -

بعد حلول الظلام سمعت خربشة خفيفة على بابي المقفل. دخل ماو متسلِّلاً، أغلق الباب خلفه. كان هناك رضٌّ على الندبة فوق عظم خدِّه. قال: «أنا آسف، بورنج سري».

كانت كدمة تحذيرية، ملحوظة بحروف حمراء.

وقف عند الباب وهمس: «إنهم يرمون جثثاً في القناة بجانب منزل بائع الخيزران. في نهاية الطريق الذاهبة إلى البلدة. جلبوا بعد قصف الحشد جثَّتين.. قتلوه لأنه التقط صوراً لرماة القنابل. عرفوا بأنَّ له اتصالات مع الغرب. لم يرغبوا في أن يُعثر على جثَّته. ولهذا جلبوه إلى هنا».

التقت عينا ماو السائلتان بعينيَّ ورفع يديه كما لو ليمسَّني ثمَّ أخفضهما ثانية. همس: «على الأقل تعرفين. كثير من الناس لن يُعثر عليهم. حالما يطلع الفجر، يجب أن أعيدك. كلُّ شيء جاهز. يجب أن تأتي معي فجراً. لا تثيري المشاكل. أنت لا تعرفين ما قد يفعله هؤلاء الرجال. سأنام في منزل قريبة زوجتي. يجب أن أذهب الآن، إنهم يراقبونني».

تسلَّلت من باب الفندق الخلفي نحو موكب كائن على الشارع الرئيس. كانت وجوه الناس مضاءة بوميض الشموع. طبول ونواقيس وصنوج صغيرة علت أصواتها، يحتفون بالمقدَّس. لم أكن جزءاً من الحشد لأنَّ الناس انزاحوا عني مع أني مشيت وسطهم. عندما انعطف

Twitter: @ketab_n

الناس نحو الممرِّ المفضي إلى المعبد خطوتُ في ظلال الطريق المعتم، واصلتُ المشي إلى نهاية البلدة ورأيت الجسر فوق القناة. رأيت خيزراناً مقطوعاً مسنوداً على منزل بائع الخيزران. كان جار بائع الخيزران صانع تذكارات بوذية، رأيت فناءه المليء بالنقوش الحجرية مثل حديقة أرواح يقرفصون ويجلسون ويقفون تحت ليلة البدر الملبَّدة بالغيوم. تسللت على امتداد جانب المنزل الصغير مروراً بجدار استنادي قديم ووجدتُ ممرّاً للحيوانات على تلة صغيرة يتجه نزولاً نحو حافَّة القناة. ثمَّ خضتُ في القناة، خائفة ممَّا قد يكون هناك.

بعمق يصل حتى خصري في الليلة المعتمة، في عالم من الروائح. في البداية لم أشعر بالبرودة الرطبة. تمحو عاصفة العقل جميع أحاسيس الحواس. سمعت ماو يهمس من الجسر: «توقَّفي يا أختاه. عودي».

كان شخص ما يتسلَّل نحو الضفَّة في إثري، ثمَّ سمعت صوت ويل: «اخرجي من هناك بحق الجحيم!».

أشار ماو من الجسر إلى وسط القناة وقال: «هنا رميا الجثَّة من الشاحنة، تعالي، يا أختي. لم يبق شيء. تعالي. أنا أخشى من "سراماي"».

- «لا يوجد أشباح. فقط أنت».

خضت أعمق إلى أن وقفت تحت ماو ثمَّ نظرت في السواد: «هنا؟».

انحنى: «اخرجي. لن تجدي شيئاً. كلُّ شيء انغمر بعيداً. تعالي، يوجد "نيك تا"».

أرواح. وزعماء القرية.

انزلق ماو عن الجسر وتزحلق على الضفَّة أيضاً. قرفص على الحافَّة، قال: «القادة لا يريدونك هنا. انظري، أعطاني أحدهم شيئاً كي تعرفي، فيمكنك المغادرة».

Twitter: @ketab_n

مددت يدي ليده الممدودة وأمسك ماو بمعصمي وسحبني نحو العشب. ضغط ميدالية القدِّيس كريستوفر القديمة في راحتي المفتوحة وترك ذراعي.

قال: «أخذها بائع الخيزران من جثَّته. لديك هذا الإثبات. هذا يكفي».

ليس كافياً. انظر ما يتوالد في القلب.

أجنحة وأقدام مكفَّفة على سطح المَياه. وضع بط الغابة بيضه في الجماجم في جميع قنوات كمبوديا. كلاب جائعة تستجدي. جحور جرذان.

تموَّج سرب من طيور الكركي في السماء.

شعرت ببرودة الميدالية الصغيرة على جلدي المبلل. وعندما ابتعدتُ عن ماو، تعثَّرت وتطاير الماء على العشب وأزعج طيور الماء المختبئة فصفقت أجنحتها بشدَّة على الماء. الهواء ثقيل بما فيه الكفاية ليغرف بفنجان. دم يخفق خلف عيني. الحرق على ساقي تحت الماء يلسع. ما الذي يتمدَّد في الأسفل؟ أنا في قبرك وأنا أطارد روحك.

التفتُّ إلى حيث جثم ماو لكن لم يكن سوى الظلمة.

خاض ويل نحو وسط القناة وتفحَّص الماء وضفَّة النهر، قال: «إذا رموه من هنا». ثمَّ نظر في القذارة، قال: «ألا يمكنك ألا تثيري المشاكل؟».

حملق في الجسر ثانية، قام ببعض الحسابات وهمس: «إذا رموه من هناك، فقد يكون سقط هنا تقريباً. لكن الحيوانات تحرِّك الأشياء. وهنالك عوامل الطقس». اتسعت القناة خلفنا، قال ويل: «آن، ربَّما لم يبق شيء لكن سألقي نظرة. اهدئي».

تمايل المكان بهبوب مظلم. مشى في حلقات صغيرة. عرف عمله. أجساد نهشتها الخنازير، نثار عظام، غارقة في الطمي. للأشجار عيون.

Twitter: @ketab_n

أصغيت إلى نفس ويل البطيء المركّز وراقبته يبحث بتأنٍّ في الظلمة الباردة. قرفص مراراً وتكراراً حتى عنقه في المياه، يميل أحد كتفيه تحت السطح، يدير وجهه جانباً ليتنفَّس، ذراع تشدُّ، ظهر مغطى بعشب الماء والوحل. بسرعة. سحب أشياء، تارة عصا، تارة صخرة، تارة عظماً صغيراً. تفحَّصها على السطح، قذفها وقال: «ليست بشرية». واصل طوافه ثانية. اختفى تحت السطح بينما عمل على ترك ما وجده باللمس في الماء الآسن. انتظرت. سمعت في البعيد رجالاً يقرعون طبول تشاي-يام. ثلاثة أشياء لا يمكن إخفاؤها، الشمس والقمر والحقيقة. سيكون في المعبد مسرح للدمى المتحرِّكة وإشعال الشموع والبخور. نسيم خفيف في عشب القناة.

بعد وقت طويل جدًّاً، رفع ويل ببطء شيئاً. رأيته ينحني عليه، يمسح عنه الطمي بحنان، ثمَّ رفعه فوق المياه وراقبت القطرات المتساقطة في جداول فضية وهي تلتقي بالسطح. هبَّت الغيوم مبتعدة، كاشفة عن البدر. نهاية الرياح الموسمية. غداً سيحظى الرهبان بحلل جديدة. موسيقى فرقة بين بيت تسمع من البعيد.

كنا في ذلك المكان المظلم الرطب كائنين مقسمين بالماء عند الخصر وأخذت الجمجمة التي قدَّمها لي وشعرت بكتفه على كتفي ونحن نتفحَّصها معاً في الظلام. كنت خائفة ممَّا لمسته. لم أعرف الميت. كيف يمكن لهذه القطعة الصغيرة من العظام أن تؤذي العالم؟ بالتأكيد لم تكن لك. لا يمكن لهذه الجمجمة الصغيرة أن تكون لك، كنت لا تزال حيًّاً في مكان ما. ثمَّ رأيت كسرة هلالية على السنِّ الأمامي متدلِّية في الفكِّ العلوي.

Twitter: @ketab_n

- 65 -

هنا عُلِّقت تلك الشفاه التي غنَّت. لن نلتقي مجدَّداً، ولن نرى بعضنا البعض. جذبتك إليَّ، احتضنتك على نهدي.

جلست في الوحل على الضفة القذرة للقناة في الليل المعتم لأحتضن جمجمتك إلى الأبد. قرفص ويل قربي ومرَّر إصبعه على انحناءة الجمجمة وأشار إلى فتحة صغيرة ممزَّقة. قال: «من هذا الثقب دخلت الرصاصة. دخلت الرصاصة من الصدغ الأيمن».

أدار الجمجمة بخبرة وأنا لا أزال ممسكة بها، قال: «ليس هناك جرح مخرج. إذا لم تستقر في الداخل، فقد تكون خرجت من محجر العين. أمَّا إذا كانت قد استقرت في الداخل، فستكون قد سقطت وغرقت».

أمسكت بالعظم وتحسَّست انحناءته تحت راحتي ونظرت إلى السطح المنذَّب. كلُّ أفراح الحياة لم تترك أثراً على الإطلاق. ما قيمة حياة الإنسان؟ سوف أحرق جثَّتك. سأتلو الصلوات عليك.

الرمل يتساقط، لم يبقَ الكثير الآن، فقط بضع ذرَّات أخيرة، وأنا أراقبها تتساقط سنة بعد سنة، لم أصل يوماً إلى النهاية. فقدتك ثانية، للمرَّة الثالثة، المرَّة الأخيرة.

حزني وخيبتي.

Twitter: @ketab_n

كانت عيناه قمرين داكنين. حدَّق ويل من خلف كتفي وتحت الطين وقذارة عشب الماء على صدره تحوَّل إلى حجر يتعرَّق. همس بصوت أجش إلى ظلٍّ صامت خلفي: «باونج، موي سوام». دون أن يشيح بعينيه عن السلاح قال لي ويل: «انهضي ببطء شديد والتفتي وقولي له إننا مغادرون، ذاهبون إلى الفندق وخارجون من البلدة، قولي له. بحق الجحيم قولي له إننا خارجون. قولي له».

تلاشى الخطُّ الفاصل بين الحياة والموت. انحنيت كما لو لأخفي شيئاً وأمسك ويل بذراعي وجرَّني من الضفَّة وهو يصرخ: «تظاهري بأنك خائفة مني»، ثمَّ رماني على الضفَّة والتفت إلى الرجال المدجَّجين بالأسلحة، انضغطت راحتا يديه معاً، أصابعه إلى الأعلى، أمام صدره. يتوسَّل.

- «باونج، نحن ذاهبان، فقط أبعدوا أسلحتكم».

أجابوا بالإنكليزية: «غادرا آنج تاسوم».

كانت قدم أحد الرجال عند رأسي ودفع يده وضرب جمجمتك من بين نهدي وقذفها في القناة إلى الماء. نظرت إلى يدي الفارغتين غير مصدِّقة.

أسمع الطرطشة الخفيفة، مثل بطَّة تحطُّ في ينبوع، مراراً وتكراراً. لثلاثين سنة ما زلت أسمع تلك الطرطشة.

Twitter: @ketab_n

- 66 -

تهاويت على ذراع الجنديِّ وجذبني ويل وبدأ يجرُّني على الضفَّة. قال لي الجنديُّ بالخميرية: «زعماء القرية يطلبون منك المغادرة».

دفع ويل بقوَّة شديدة فسقط عند قدمي. نظر الجنديُّ نحوي عيناً بعين وقال بالخميرية: «سيعيدك. اذهبي الآن. لا مشاكل. أو سأعود».

ابتسمتُ، أجنبيٌّ مختلٌّ يبتسم ابتسامة مختلَّة، وقلتُ: «قل لزعماء القرية إذا متُّ في سريري الليلة سأطاردهم». رفس الجنديُّ ويل. لكني لم أعد مرتبطة بالحياة. ولا متزوِّجة بالموت بعد. كنت ذاكرة وأملاً محسوبين بأدنى نسبهما.

لا أتذكَّر العودة سيراً على الأقدام إلى الفندق. أتذكَّر فقط ويل جالساً في غرفتي بجانب الجدار قرب الباب، ساقاه الطويلتان ممدودتان، يشرب بيرة أنكور ويسأل: «ماذا قلتِ عندما أفلتونا؟».

- «قلتُ لهم إنَّ الأشباح ستنال منهم».

ضحك ويل، قلق فزِع وتوتر. قال: «أتساءل إلى أين ذهب ماو بحقِّ الجحيم؟». نظر إليَّ وقال: «تعرفين، البشر مصنوعون من أجل السعادة أيضاً. يمكن أيضاً لشخص سعيد أن يخدم المقدسات. لم يكن عليك أن تفعلي هذا».

Twitter: @ketab_n

أتذكَّر الأثر الرطب لبنطال ويل على الأرض بعد أن نهض وقال:

- «نحن مغادران. أقفلي الباب. أنا ذاهب لأجد ماو. آمل أنهم لم يقتلوه ضرباً».

* «ماذا عن جمجمته؟».

كانت المرَّة الوحيدة على الإطلاق التي أرى فيها ويل غاضباً. قال: «حان وقت التوقُّف، آن. لقد انتهى. لقد أسقط في يدنا. ما من فرص أخرى. نحن لن ننتظر حتى الصباح».

تناهت أصداء قرع الطبول والصنوج إلى الصمت في الظلمة العميقة قبل الفجر. غادرتُ الغرفة وعدت إلى القناة. دفن الميت هو حق. لم أكترث بما قد يفعلونه بي. لم يكن لدي سوى فكرة واحدة: إذا لم أتمكَّن من دفنك، ستكسرني اللوعة. شممت رائحة غبار القرية الأحمر. لكن قبل أن أتمكَّن من الانزلاق على الضفَّة نحو المياه، أطبق عليَّ ثلاثة شبَّان. كان ذراعاي مربوطين خلف ظهري وشممت رائحة الثوم والصابون الرخيص وسمعت صوت فحيح يقول: «كُفِّي عن الرفس». رفست. شعرت بأوَّل ضربة على رأسي. لم يرَ أو يسمعْ أحد في آنج تاسوم شيئاً.

حبسوني في غرفة إسمنتية وانهرت على الأرض. لم أكن شيئاً. كنت ظمأى للغاية. ومتعبة أشدَّ التعب. نمت نوماً عميقاً، وسرعان ما أيقظني صوت طائر حوام النحل في الخارج، لم يكن هناك من نوافذَ لكني شعرت في الهواء الدافئ بأوَّل خيط رمادي من خيوط الفجر. جميع الأحياء كانوا محبوسين في غرف إسمنتية، وجميع المفقودين كانوا غرقى في قنوات الماء.

الآن انتميتُ إلى عالم الموتى الواسع.

بماذا أخطأت؟ فقط أردت أن أعيدك إلى التراب. كيف يمكن أن

Twitter: @ketab_n

يكون للخنازير والكلاب حقٌّ في افتراس جلد وجهك وليس لي الحق في دفنك؟ قالوا لي: «يا امرأة، أنت تافهة. أنت لا تفهمين شيئاً. أنت لا شيء. رغبتك لا شيء».

حمقاء. امرأة مجنونة. ضحية.

Twitter: @ketab_n

- 67 -

ذات زمن كان لا يزال في وسعي أن ألمس جلدك. محال أن أغادر. محال أن أبقى.

يقول الناس إنه وطنهم، دعهم يقولوا ذلك.

أنت وطني.

جاء حارسان وذهبا من الغرفة الإسمنتية. كانا شابَّيْن، نحيلين، طائعين بعيون عدوانية حمقاء. لا بدَّ من أنهما مدرَّبان على البحث عن براغٍ ومسامير قد يستعملها السجين لخنق نفسه، عن أقلام قد تفتح الأوردة. أخذوا مني قلادة بوذا. دلو آسن في الزاوية. قدور قذرة من أرزٍّ جافٍّ يخفي حصى تكسر الأسنان. ارتشفت بحذر الأرزَّ وبصقت كسر الأحجار. كان هناك جرن ماء ضحل خشيت أن أشرب منه لكن شربت على أية حال. كان عليَّ أن أناضل من أجل قطرات الماء هذه. عندما صرخت بالعطش قال الحارس الأكبر سنًّا: «اهدئي أو سأعود لأضربك». قال عندما أدرت له ظهري: «استديري كي أراك أو سأضربك». سأل: «هل أنت جائعة؟». قلت: «لا». ثمَّ قال: «أنت تكذبين. قولي الحقيقة أو سأضربك».

كان جسده مسكوناً بذاكرة مضبوطة عن كيفية منع الرجال من قتل أنفسهم قبل قتلهم تحت التعذيب. سئلت مارتا جراهام ذات مرَّة عن كيفية تذكُّرها رقصاتها. أجابت: «الجسد يتذكَّر».

Twitter: @ketab_n

بعد أن مارست الحبَّ للمرَّة الأولى فهمت هذا.

فتشني الحرَّاس وكان محكوماً عليَّ أن أتذكَّر.

كنت امرأة مختزلة في حمالة الصدر وكنزة قطنية، لباس داخلي وبنطال قطني وألم وعطش. ارتجفت ليلاً وتكوَّرت مثل كرة ألفُّ ذراعي على وجهي خوفاً من الجرذان. تورَّمت ساقاي واحمرَّتا ورأسي خفق. في الليلة الأولى فكَّرت، ويل يعرف بأني هنا. ماو يعرف بأني هنا. سيأتيان قريباً. في الليلة الثالثة فكَّرت: ربَّما لا يعلم أحد مكاني. أبقوني يقظة طوال الليل، جالسة في الركن. عندما نعست أيقظوني بالماء أو بالركل. عند الفجر ربط الحارس يدي خلف ظهري وأخذني ثانية إلى مكتب ما ريث.

صرف حارسي قائلاً بحدَّة: «بات، تين!». وأومأ إلى كرسي قبالته. كان مكتبه فارغاً إلا من علب سجائر المارلبورو، وولاعة من نوع أنكور صفراء رخيصة، نظَّاراته الشمسية المطوية وكوب ماء. أردت ماء معذبي. قال: «لمَ عدتِ إلى القناة؟ قلتُ لك إنه لا يوجد شيء هناك».

أتألَّم. عطشى. ساهدة. يداي موثقتانِ. كنت في ذلك الوقت جسداً غير حصين. كنت سهلة الكسر.

قلت: «وجدته».

أجاب ما ريث: «لم تجدي شيئاً».

انزحت في الكرسي. كنت حرة لأقول أيِّ شيء، لم أكترث للموت.

لم تعترف الحكومة بحدوث أيِّ جرم. كيف يمكن للناس أن يواصلوا العيش دون معرفة ما حلَّ بعائلاتهم؟ كيف يمكن لهم أن يعيشوا دون الحقيقة؟

كان الهواء الحارُّ الرطب فيما بيننا.

ارتفع حاجبا ما ريث ثمَّ انفرجت أساريره ثانية. قال: «يقول قادتنا إنَّ

Twitter: @ketab_n

علينا أن نحفر حفرة وندفن فيها الماضي ونتطلَّع قدماً إلى القرن الجديد بسجلٍّ نظيف. لجميعنا أفراد عائلة، أصدقاء وأنسباء قُتلوا ولم تُقمْ لهم مآتمُ من قبل نظام الإبادة».

في الخارج، بعيداً، صوت نسر.

قلت: «ما نفكِّر فيه، نؤول إليه. إذا لم تُروَ الحقيقة، لن ترتاح أرواح الموتى أبداً».

ازداد صوت ما ريث حدَّة مثل وتر مشدود على زند بالٍ: «أنت لستِ من هنا. لماذا تأتين وتتدخَّلين؟ يجب أن نقبل بواقع تاريخنا. موتانا صامتون ومفقودون. عانى بلدنا على مدى عقود من الحرب. يجب أن نبتعد عن هذا التاريخ الرهيب الآن ونبني المستقبل».

قلت: «الناس يريدون الحقيقة. لكنهم خائفون. مواطنوك أيضاً يرغبون في التحدُّث عن هؤلاء الذين أُسكتوا رغماً عنهم. شخص ما يجب أن يتحرَّك باسم المفقودين. لماذا ترغبون في دفن الماضي، ولكن ليس في دفن الذين عاشوا فيه؟ أيُّ قانون ينتهكه دفن الموتى؟ أيُّ قانون في الطبيعة؟ في الدين؟ وجدت جمجمته. تعرَّفت على سنِّه».

– «لم تجديه. أيّاً كان ما وجدته فهو لا يخصُّه. هناك الكثير من الجماجم في هذا البلد. من السهل أن يختلط أمرها عليك».

أشعل سيجارة وأخذ نفساً عميقاً. استند إلى الوراء على كرسيه، أكثر استرخاء من المرَّة السابقة، مغضباً ومتنمِّراً. كنتُ متَّسخة، عطشى. سمعت في الخارج صرخات الزرازير وسقسقة عصافير الدوري.

قلت: «أنا أريد فقط أن أقيم له الشعائر، أرمِّد جثَّته، أطلب من الرهبان تلاوة الصلوات من أجله. دفن الميت أمرٌ طبيعي».

أوقفني سكون غريب، وراقبت كتفي ما ريث يتضيَّقان. خشيت من أن

Twitter: @ketab_n

أغفو عندما لحظته يسحب آخر نفس من عقب سيجارته ويسحقها بهدوء بارد. لم أرغب في إبداء الضعف. أصبحت حيواناً محتضراً. قادرة على أيِّ شيء؛ على النوم وأنا أتحدَّث، وعلى سرقة الماء، ووحشية لا توصف، والتصرُّف دون مشاعر. كان عليَّ أن أضبط نفسي، وأن أجد حلاً.

«أرجوك، لوك بورنج»، قلت، «اسمحْ لي بدفن جمجمته».

قال ما ريث: «هذه المَهمَّة ليست من شأنك. أنت أجنبية. الجنَّة تخصُّ أقرباءه في كمبوديا. لماذا تتحدَّين قانوننا؟».

قلت: «ليس لديه أقارب. أدَّعي بأنَّ لي الحق في دفن زوجي على نحو لائق. القانون هو فقط ما يؤمن به الإنسان. بالتأكيد لن تسمح لأيِّ شخص أن يأخذ جثث أفراد عائلتك دون أن يقول شيئاً».

تغيَّر الجو. لقد تجاوزت الحد، وعبرت باباً يفضي إلى غرفة أخرى.

ابتسم بازدراء. قلَّب النظَّارات الشمسية على المكتب وقال ساخراً: «هناك أخ أصغر. نعرفه. ونعرف أيضاً أنه لم يكن زوجك».

حاولت أن أوقف إحساس الغثيان والحرارة والعرق البارد. نظرت في الغرفة، لم أرَ دلواً. قلت بصوت لم يعدْ قوياً: «إنه زوجي. أنجبنا معاً طفلة».

- «أيُّ طفلة؟ ليس لديك أطفال».

لم يرغب في التحدُّث عن الأطفال والزواج وأصبح فظَّاً، كما لو أنه نقاش عائلي، حميمية تنتظر أن تنفجر إلى تمزُّق، عنف، صمت. توقَّفت لأهدِّئ من روع صوتي، ثمَّ قلت: «عانيت من حمَّى الضنك وأجهضت وتُوفِّيت طفلتي. كانت بنتاً».

قال ساخراً: «هل تظنِّين بأننا لا نعرف من تكونين؟ نعرف كلَّ شيء. نعرف متى أتيت. وما كان يفعل. لست متزوِّجة. أنت مثل أيِّ فتاة بيرة في حانة».

Twitter: @ketab_n

انغرزت الكلمات في الرأس كما يفعل محور دولاب عربة يجرُّها ثور.

آلمتني أكتافي ولم أتمكَّن من مسح جبهتي المبلَّلة: «لم أرتكبْ جريمة. اختفى زوجي في تجمهر سياسي في بنوم بنه. وجدتُ جمجمته. أريد أن أحرقها وأصلِّي».

لم أتمكَّنْ من تقدير كم كانت عيناه ثاقبتين! لقد أُمر بأن يجعلني أمتثل. فجأة صفق يده المفتوحة على المكتب وقفز وقال بصوت مرتفع: «أت وي تي، لقد اقترفتِ جريمة. ليس من حقِّك المطالبة بشيء».

«الإنسانية تُملي علينا دفن الموتى»، أجبت.

قال ما ريث: «لا تملي الإنسانية علينا احترام الخونة. كان هذا الرجل يخون حكومته. لا يستحقُّ أي ولاء».

سرت ريح باردة في جسدي، في أسفل حوضي، ريح لن ترحل بعيداً تماماً.

قلت: «ما هو الولاء بعد الموت؟».

«عندما أموت»، قال ما ريث دون حدَّة، «سأظلُّ أعرف أعدائي».

زائف القلب، تواق الأذن، دامي اليد[1]. هل الإنسان أكثر من هذا؟

استقمت في الكرسي القاسي وقلت: «عندما أموت، سأظلُّ أعرف أحبَّائي. سأموت قبل أن أغادر آنج تاسوم دونه. أعرف بأنه هنا».

وقف ما ريث حينها، مشى خلفي، انحنى باتجاهي. قال: «ما من امرأة ستعلِّمني كيف أنفِّذ قانون بلدي».

امتلأت أحشائي بالسوائل. الغرفة مثخنة بأرواح ممزَّقة. كم من الفظاظة يلزم لإطفاء ضوء إنسانيَّتنا؟ كم سيستغرق من وقت؟ على بوَّابة عند مدخل المقبرة في ايرانسيز هناك كلمة واحدة: احلم.

1- من مسرحية الملك لير لشكسبير.

Twitter: @ketab_n

تحدَّثت إلى هذا الكرسي الفارغ: «هناك قانون أقدم من قوانين البشر. القانون الإلهي يقول: كلُّ غريب مقدَّس. أي قانونٍ إلهيٍّ انتهكت؟».

جلس ثانية، كتب على ورقة رقيقة رقَّة جفنَيْ جثَّة. قال: «أنتِ ضحية. كما لو أنك تعرضت إلى حادث. أنت تقولين إنه ما من شخص يطالب به لكنك على خطأ. أخوه على قيد الحياة».

نبض الحرق على ساقي. لكن كما لو أنه جسد شخص آخر. كنت معنية بالألم لكنه لم يعد خاصَّاً بي. قلت: «يا سيِّدي، لدي رغبة واحدة فقط: أن أحبَّ فقيدي. كيف يمكن لهذا أن يكون خطأ؟ مواطنوك قد يقولون هذا أيضاً، لكن الرعب يجعلهم يصمتون. أخوه لا يهتم».

أشعل ما ريث سيجارة أخرى، بصبر نافد الآن. كان هذا مشهداً مملَّاً. كانت هناك أمور أخرى ينبغي له القيام بها. كان عمله يقضي بأن يتخلَّص مني ومع ذلك كنا نتحدَّث. إذا لم يتمكَّن من إقناعي سيُجبرني. أغلق الملف وتحدَّث ثانية بذلك الصوت الناعم المداهن المستعمل من أجل الشعارات: «ما الغرض من تذكُّر الماضي؟».

قلت: «للمطالبة بالحاضر».

فتح نظَّارته السوداء وارتداها. قال: «احرق العشب القديم لتسمح للعشب الجديد بالنمو».

الأرض ستحترق، ستفنى ولن تكون ثانية.

كنا قد تجادلنا مطوَّلاً فلم يبقَ شيء للنقاش.

«ستُعادين»، قال. «ستُؤخذين إلى المطار وتستقلِّين طائرة إلى بلدك، ولن يُسمح لكِ بالعودة إلى كمبوديا».

أُعدت إلى الغرفة الإسمنتية. تفحَّصت التصدُّعات على الجدران. لم أنظرْ إلى جسدي. راقبت نبض الجوع ودوخة العطش. انهرت نائمة.

Twitter: @ketab_n

إذا كنتَ هناك في المكان القفر سأمشي مباشرة إليك وأستريح فيك. هل وجدت موتاك، أمَّك، أباك، جدَّتك، تيين، وهل تجلس معهم؟ هل هناك موسيقى حيث أنت؟ هل هناك روك آند رول؟ هل أمِّي هناك؟ ضربت الجرذان وأصغيت إلى صوت بكاءٍ حادٍّ متقطِّعٍ نعس، وأدركت أنها كانت صرخاتي. فجر اليوم التالي سمعت صوت سيَّارة قادمة، أقدام رجال وأصوات في الخارج. الآن سأُنتزع منك إلى الأبد. كنتُ أشعر بعطش شديد.

Twitter: @ketab_n

مونتريال

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

- 68 -

كانت يداي مقيَّدتين، وجسدي يتألَّم. على الطريق خارج آنج تاسوم، رأيت ماو ينتظر، نصف مختفٍ خلف بسطة في السوق على جانب الطريق، وأومأ لي بعينيه. في سيَّارة ذات نوافذ مغلقة تسير بتهور عبر حفر قاسية، وطيور مبعثرة. تصادمت أكتافي بحرَّاسي وحاولت أن أنكمش في جسد لم يعدْ في مقدوره أن يُمَس. لم أعدْ أشمُّ رائحة سكَّر سعف النخيل أو حقول أرزٍّ كمبوديا، فقط النفس البائت لهؤلاء الذين كان من واجبهم إسكاتي.

هل تتذكَّر الفتاة في غرفة شارع بلوري الصفراء؟

ثلج سميك ينهمر بنعومة على أرصفة صباح الأحد. اقتربت منك، وتمدَّدت في حضنك. سابقاً كان هناك الكثير من الأماكن، لكن الآن لم يعد إلاك. أحببتُ الطريقة التي راقبتني بها في الغرفة الصفراء.

لم أرَ عيون سائقنا على الطريق إلى بنوم بنه. ارتدى نظَّارات داكنة وتشبَّثتْ يداه بالعجلة وهو يرتطم بالصخور. قاد ماو بحرص عند الحفر والصخور الكبيرة في الطريق المتراقص، متوقِّفاً ليمنح الصدقات، رافعاً درَّاجته فوق الجسر المكسور، ينظر من فوق كتفه نحونا، يمدُّ يده إلى الخلف ليتشارك السيجارة.

لن أرى مجدَّداً جبال الفيل، لكن لا يزال في وسعي أن أرى يدَي تشان

Twitter: @ketab_n

المتيبِّستين ووجهها المتشنِّج. في الغرفة الإسمنتية علمت بيقين: «يمكنهم أن يفعلوا معي ما يشاؤون. لقد أخذوك مني، جعلوني أتضاءل لأغدو قطعة لحم، جعلوني غريبة في العالم».

Twitter: @ketab_n

- 69 -

في المطار أحاط بي جنديان بملامح خشنة، وفكَّت امرأة ضئيلة بيدين قاسيتين رباط رسغي وأعطتني كنزة بأكمام قصيرة نظيفة وبنطالاً قطنياً واسعاً جدّاً. راقبتني أتعرَّى وتناولت ثيابي القذرة باشمئزاز ووضعتها في كيس قديم. كنت سأغادر دون شيء. رافقوني عبر الجمارك وأعطوني جواز سفري وطلبوا مني أن أكتب اسمي على وثيقة ما، كنت سأوقِّع أمراً بعدم الإبعاد. ومَضت عينا المسؤول بالتوبيخ بدلاً من لونها البني، جعل أحشائي تتحرَّك. تلك هي العيون التي كانت قادرة على أذيَّتي. أجبرني أربعة رجال على صعود الطائرة وحدَّق الناس فيَّ، وقف الجنود عند المخارج حتى أقلعت الطائرة.

Twitter: @ketab_n

- 70 -

كانت المغادرة أشبه بالغوص في سرير نظيف. أسى. إرهاق. وقع خطوات خارج باب مقفل. لم أعدْ أتعرَّف على نفسي. أكلت كلَّ شيء على الصينية، وعندما قدَّموا لي صينية أخرى أخذتها أيضاً. نمت نوماً متقطِّعاً، في الطائرة، وفي منزل والدي. أكلت على طاولة والدي. أتذكَّر وقع نظراته عليَّ.

«ابنتي»، قال، «أنتِ هزيلة جدًّا!».

لم أعرف الوقت أو الفصل، كان الهواء بارداً ويعبق بأريج الشتاء، أو ربَّما كان فقط ليلاً له مظهر الشتاء.

قلت لبابا إنك قد مت، وإنني وجدتُ جمجمتك. رفع يده عالياً، قال: «استريحي الآن. يمكنك أن تحكي لي كلَّ شيء لاحقاً. عندما ترتاحين».

كان يقصد بذلك ألا أروي له المزيد.

شاهدت الظلال تمتدُّ على جدران غرفة نوم طفولتي وتساءلتُ كيف أمكنني الوصول إلى هذا. جاءت بيرث، جلست على حافَّة سريري الضيِّق، فتحت ذراعيها لي وبكيت. كانت تتضوَّع برائحة الصابون المصنوع من الصنوبر. قالت: «ماذا فعلوا بك يا صغيرتي؟».

دعا أبي زوَّاراً. كان خائفاً من أن أشعر بالغربة.

Twitter: @ketab_n

جلستُ متدثِّرة بلحاف مهترئ على الكرسي القديم بجانب المصباح ذي السجف المتشقِّق. جاءت شارلوت مع أطفالها الثلاثة، تردَّدت كما لو أنها لم تعرفني. حدَّق أطفالها بعيون واسعة، تنازعوا على الألوان، انقضُّوا وصرخوا على قلم أحمر، أُطعموا بالدور. جهدت شارلوت لتملأ صمتي، ولم أحتمل حديثها. عندما سألتْ: «ماذا ستفعلين الآن؟». طردتُهم جميعاً.

Twitter: @ketab_n

- 71 -

بعد أن فقدتُك، تشكَّلت في رأسي فكرة واضحة تحت قصف الرعد الساكن: لا يمكن لأحد مساعدتي. اليأس هو حياة غير مشهودة. هؤلاء الذين قتلوك يظهرون ويختفون، يواصلون أعمالهم. تدمَّرت ثقتي بالعالم. لن يراك أحد بعد اليوم، ابقَ نائماً إلى جانبي، لا تحتاج إلى شيء.

Twitter: @ketab_n

- 72 -

زرتُ مكاتبَ نظيفة، مضاءة جيِّداً، حيث كان الرجال يتجوَّلون ببذلات أنيقة، فتحوا حقائبَ جلدية، عرَّفوني بأسمائهم، تمحَّصوا في الوثائق، كرَّروا بطرق مختلفة: «نحن لا نتدخَّل في قوانين بلد آخر، هناك دوماً تراتبية للوصاية على الجثمان، ما الذي يجعلك تظنين أنَّ في وسع مواطن أجنبي الذهاب إلى أيِّ مكان والمطالبة بجمجمة مجهولة الهوية؟».

أجاب المحامي على الهاتف في أثناء مقابلتنا وتحدَّث بالفرنسية والبولندية أيضاً كما تحدَّث بالإنكليزية. رمق كدسة من الملفَّات على مكتبه المشوَّش. قال: «لدي موكِّلون لا يزالون في السجون منذ سنوات دون محاكمة». لكمَ بقبضة مغلقة على راحة مفتوحة، وقف، مشى إلى ركن مكتبه، نظر إلى النهر، قال: «أنتِ محظوظة لأنهم رحَّلوك. كان يمكن أن تبقي عالقةً في السجن».

قلت: «لم أقترفْ جرماً. لقد أوقفوني دون تهمة. يتركون جثثاً دون دفنها. الناس يُفقدون. هل يمكنك أن تساعدني في العودة إلى هناك للحصول على جمجمته؟».

- «لديكِ درجة عالية من الإصرار».

* «أسوأ إذلال هو أنهم رحَّلوني. هم يفكِّرون: دعها ترحلْ، لا أحد سيهتمُّ عندما تصبح هي خارجاً».

Twitter: @ketab_n

– «الناس مثلك يتسبَّبون بالمشاكل عندما تكونين في السجن... أنا أهتمُّ، لكن لا أعرف ماذا في وسعي فعله من أجلك».

تنتهي سلطة أية حكومة عند حدود مواطنيها. الناس في كلِّ مكان يبحثون عن مفقوديهم. نرى نساء الميدان. نرى النساء واقفات على حافَّات القبور. نسمع الاستعطاف الوقور: ألا يمكن لأحد أن يجد لي ولو عظمة لأدفنها؟

أصبح من السهل جدًّاً أن نرى. الصور في الهواء الذي نتنفَّسه. الناس يعرفون ما الذي يجري.

السؤال الذي يعدو فوقي برشاقة مثل جرذان في زنزانة ليلاً هو: عندما نعرف، ماذا نفعل؟

هذا ما أعرفه: أنت تظلُّ تراودني.

Twitter: @ketab_n

- 73 -

على مدى ثلاثين عاماً، خنقني الصمت من الداخل، نخزت القوقعة أحاول كسرها، أحاول أن أولد دون غرق. صمت. جريمة. لقد فعلتُ بالضبط ما أرادوه، عشتُ كما لو أن شيئاً لم يحدث. لكن، بورنج ساملان، أنت أيضاً فعلت بالضبط ما أرادوه، لقد أبحت نفسك بما فيه الكفاية للموت. شعرتُ طويلاً بالعار. لقد راقبتُ نفسي أعيش كما لو من خارج جسدي، أتظاهر بأني على قيد الحياة.

حاولتُ أن أعيش، عملتُ، تزوَّجتُ، أنجبتُ ابنين. تركني زوجي، قال إنه كان غلطة، قال إنني كنت بعيدة. ربَّيت ولديَّ، أعددتُ وجبات عشاء يوم الأحد لأبي. لم أروِ يوماً ما حدث لي هناك، لم أروِ شيئاً على الإطلاق. أحبَّني بابا بأفضل ما استطاع. صحب ولديَّ إلى الصيد في الجاتينو.

كنت أقف عند الباب أراقبهم يصعدون سيَّارته، ثلاثتهم يرتدون قبَّعات الصيد. الآن أعرف عذاب مشاهدة طفل يذهب. أرادت جميع عظامي أن تغادر البيت عندما كنتُ في الستِّين، وعندما أراد ولدايَ المغادرة، أرادت جميع عظامي منهما البقاء. هذه عبقرية: "لأنه أحبَّ العالم كثيراً فأرسل ابنه الوحيد". راقب أبي اختفاء من كان يظنُّها أنا من أمام عينيه. لم يستطعْ يوماً حمل نفسه على سؤالي من أصبحتُ. ولم أخبره.

Twitter: @ketab_n

- 74 -

رفضت لسنوات اللقاء بويل عندما كان يمرُّ بمونتريال، لكني التقيته صدفة ذات يوم في شارع لورنت. تعرَّفت عليه عندما رأيته ينقل حقيبة ظهر صغيرة من كتف إلى الآخر. تعمَّقت التغضُّنات على خدَّيه. كان عِقبا يديه حمراوين. برق في عينيه الضوء الصافي مازّاً بحياة فيها الكثير من الكحول والنيكوتين واضطراب الرحلات الجوِّية الطويلة والعمل في إخراج المفقودين من قبورهم.

قال: «تبدين بخير. لم تتغيَّري أبداً. هل ترغبين في كأس؟». يُضحكني ويل دوماً. شعري خفيف. امتلأت الأوردة على ظاهر يدي بالعقد. وجد ويل رجلاً قد يفرغ أكياسه البلاستيكية المملوءة بملابس العمل التي تفوح برائحة الموت الكريهة، ويعيش مع الأطراف المقطوعة في كوابيسه. تحدَّثنا عن العمل والزيجات الفاشلة، أطفالي، حبيبته. شرب بيرته الأولى سريعاً وصبَّ كأساً آخر، قال: «لمَ لمْ ترغبي في رؤيتي؟».

نظرت نحو الشارع: «هل أنت سعيد؟».

ضحك ويل: «السعادة ليست على تلك الدرجة من الأهمِّية».

تذكَّرتُ كم أعجبت به سابقاً.

جلسنا صامتين، نتذكَّر، وقال: «لا تزالين تحبِّينه، أليس كذلك؟».

Twitter: @ketab_n

نظرت في عينيه وكان عليَّ أن أشيح ببصري. قلت بعد لحظة: «تُوفِّي أبي الأسبوع الماضي وهو ذاهب إلى العمل. تمدُّد الأوعية الدموية في الدماغ».

وضع ويل يده الملطَّخة فوق يدي.

- «في المستشفى، طلبت وعاء يحوي ماءً دافئاً وصابوناً ومناشفَ نظيفةً وغسلت جسد أبي. كانت هناك كدمةٌ على خدِّه إثر وقوعه. لم أرَ يوماً أعضاءه التناسلية. شعره الخفيف المرمَّد. لم يسبقْ أن لمست قدميه. كان رجلاً متواضعاً. لم ألاطفْ وجهه منذ أن كنتُ طفلة صغيرة. أحببت عينيه، يديه، البقع البنِّية التي تظهر مع تقدُّم العمر. غسلت عضلات ساعديه. تُوفِّي وهو ذاهب إلى المستشفى ليعمل على صنع ساق لمساعدة ولد صغير على الركض. وبينما كنتُ أغسله أردت أن أقول لشخص ما: انظرْ. انظرْ، كانت يداه ماهرتين. غطَّيته بملاءة نظيفة وذهبت إلى شقَّته، بحثت عن أفضل ملابسه، وذهبت إلى بيت الجنازة لألبسه. كان جسده بارداً جدًّاً. تحريك أطراف الميت الثقيلة يلتزم القوَّة. قال الحانوتي: ليس عليك فعل ذلك.

جلست مع جثمانه طوال الليل. قال المسؤول عن الجنازة: ليس عليك البقاء.

رافقت جسده إلى المحرقة ورأيت الأبواب الثقيلة تفتح وراقبته يختفي للمرَّة الأخيرة دون ابتسامته الخجولة المألوفة. لقد أحدث حفرة في داخلي، ثقباً، صدى، خدراً، يباساً، فراغاً. وقَّعت على أوراق وتلقَّيت رماده ودفنته. استغرق الأمر ثلاثة أيَّام».

قال ويل: «هل تعلمين؟ عندما تسوء العدوى بما فيه الكفاية حتَّى العظام تبدأ بالتحلُّل. يتورَّم الجلد وتزداد العظام هشاشةً وتتكسَّر لتصبح فُتاتاً».

Twitter: @ketab_n

التقط كأسه وارتشف رشفة أخرى وقال: «من أجل الحبِّ قولي قبل أن يتلاشى كلُّ شيء».

Twitter: @ketab_n

- 75 -

أتذكَّر أنك انحنيت على وتري آلة التشابي تعزف لفتاة ذات شعر طويل متشابك. لديَّ صورتانا الصغيرتان اللتان التُقطتا في كشك التصوير في محطَّة القطار قرب الكنيسة. تسجيلات على أشرطة بصوتك. لا شيء آخر.

عشت في حميمية مع عنف الحياة المسكوت عنها.

منذ زمن ليس بطويل جلست طوال عشر ساعات أشاهد أفلاماً. لم أنعسْ. عرضت صور جميع الذين صُوِّروا وقضوا في سجن "تول سلينج"، خمسة آلاف صورة، كلُّ واحدة تبقى خمس ثوانٍ قبل أن تتناهى إلى سواد. رأيت تلك الليلة عندما أغلقت عينيَّ الصور التي تبقى على الشبكية لعيون والتواء الأكتاف والعنق الغريب عندما رُبطت الأذرع خلف الظهر.

وسمعت صوتك.

ثرثر زملائي معاً: «ألم تعشْ حياة رائعة؟ سنوات السفر المبكِّرة تلك، أين كانت؟ فيتنام؟ تايلندا؟ في مكان ما هناك. وولدان وموهبتها في تعليم اللغات، وحجرتها الخاصة بالكتابة جوار النهر في غاتينو. تقول إنها تكتب لكنها لم تنشرْ يوماً أيَّ شيء».

ضحك خفيف.

Twitter: @ketab_n

- «زواجها لم ينجحْ، لكن زواج من ينجح هذه الأيّام؟».

مزيد من ضحك خافت.

- «لم تبدُ يوماً أنها في حاجة إلى الأصدقاء».

* «هل سمعت؟ تُوفِّي والدها منذ فترة قريبة».

- «لا بدَّ من أنه كان مسنّاً للغاية».

- «لا يهم! الأمر مؤثِّر مهما كان عمره».

سكون.

Twitter: @ketab_n

- 76 -

فقط الآن يمكنني أن أراك. شموع على النهر. انتظرتك، ولفترة كان هذا كافياً. لكنك لم تعدْ إليَّ. عندما حان الوقت، عرفت الطريق إليك، وعرفت أين يمكن أن تكون. أعطيتني براعم زهرة ملفوفة بورقة نبات، وأصغينا إلى الموسيقى عندما مشينا على النهر، التفت وتدفَّق عائداً من حيث بدأ.

Twitter: @ketab_n

- 77 -

لم أعدْ أستمع إلى الموسيقى القديمة، صوت تسجيلات الموسيقيين الشبَّان الخمير المنسي تقريباً وهم يسجِّلون بالسرعة نفسها التي يكتبون فيها، يكتبون كلَّ شيء مباشرة. لم ينجُ أيٌّ من أصدقائك الموسيقيِّين، جميعهم تُركوا على الشوارع للكلاب، تخلَّصوا منهم في مقابرَ جماعية. تساءلت مرَّة عندما رأيتُ الجماجم في شوينج إك إذا ما كنت أنظر إلى أيِّ عظم صدرت عنه تلك الموسيقى المفعمة بالأمل.

الآن، بورنج ساملان، أرى في المرآة امرأة في خريف العمر. امتلأت بالزمن منذ اليوم الذي فقدتك فيه. عمرٌ من التظاهر بالصمت.

إذا قُيِّض لنا أن نعيش بما فيه الكفاية، علينا أن نروي، أو نتحجَّر من الداخل. أحاول أن أطلقك من هوَّة في قلبي لكنك تحبسني لأنك غير مدفون وغير مبارك.

أتشوَّق إلى مرور أصابعك على جلدي. أتشوَّق إلى الضوء في عينيك. إذا صلَّيت، أصلِّي إلى إله الجريح. في النهاية الجريح فقط هو من يبقى. في كمبوديا يقولون: الخسارة ستكون نصيب الإله، والنصر سيكون للشيطان.

Twitter: @ketab_n

- 78 -

عاودت القدوم إليَّ في شذرات صغيرة من صور متحرِّكة، ضوء على جدار شتائي. تعال إلى الباب، روح أعرفها، وسأقف وأمسك بك. تعال حيَّاً مرَّة أخرى فقط، دعني أشعرْ بأنفاسك، سيري، دعني أسمعْ صوتك تغني، دعني أغسل الألم. تعال، وسأهمس لك باسمك مرَّة أخرى.

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

ملاحظة تاريخية

تقع أحداث هذه الرواية في أثناء الإبادة الجماعية الكمبودية (1975-1979)، التي قضى فيها مليونا شخص، وفي أثناء الاحتلال الفيتنامي (1979-1989) وفي أثناء الحكم الانتقالي تحت إشراف الأمم المتَّحدة، الذي كان يراقب حكومة كمبوديا ويحاول خلق ظروف للانتخابات الديمقراطية الأولى عام 1993. هؤلاء الذين يعارضون الحكومة ظلُّوا يُقتلون.

تم ضغط تسلسل الأحداث التاريخي من أجل هذه القصة الأدبية.

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

شكر وتقدير

قراءاتي عن الإبادات الجماعية في كمبوديا وفي بلاد أخرى وعن لجان تقصّي الحقائق، وروايات مقترفيها والناجين منها، محبوكة في بنية هذه القصة. بأية حال تقع على عاتقي مسؤولية هذه القصة، وكل التلميحات إلى روايات كتاب آخرين وروايات الشهود تم تحويلها هنا في نوع من حقيقة يرويها الخيال.

أود أن أشكر الدعم الذي قدمته منحة " McGeachy ماك جيشي" من الكنيسة المتحدة في كندا.

أنا ممتنة بشكل خاص لعمل يوك تشانج في مركز توثيق كمبوديا (DC-CAM)، براد آدامز ومنظمة حقوق الإنسان، مارك جرجس ومجموعته الموسيقية، مقالة ريتش جاريلا وإريك بابي "مأساة ليست على قدر من الأهمّية"، كاثي جروسبير على الحديث والملاحظات الميدانية من فريق أونتاريو للتحقيق في أسباب الوفيات، كيم كيران على يومياتها (غير المنشورة)، على الصور الفوتوغرافية والنصح السخي، سونيا تاهيري، تون بينج وروبرت فيالا، كريج ايتشيسون، البحث من مركز التوثيق الكمبودي والتقرير "مركز التوثيق لمشروع كمبوديا القضائي" وبيانات جامعة ييل عن الإبادة الجماعية الكمبودية.

Twitter: @ketab_n

من ضمن الكثير من الكتب عن كمبوديا، أود أن أشكر بشكل خاص كتاب فان ناث "صورة لسجن كمبودي: سنة واحدة في زنزانة الخمير الحمر س-21"، روحه اللافتة والفنية، كتاب ديث بران "أطفال حقول القتل الكمبودية"، كتاب ديفيد شاندلر "أصوات من س-21: إرهاب وتاريخ في سجن بول بوت السري"، كتاب كريج ايتشيسون "بعد حقول القتل: دروس من الإبادة الجماعية الكمبودية"، كتاب منظمة حقوق الإنسان/ فرع آسيا "كمبوديا في الحرب" وكتاب فرانسوا بونشو "كمبوديا: السنة صفر".

أود أن أشكر كتاب سوفيريث تشونج "جدة السماد" (CAM-DC) كمصدر لقصة تشان الخيالية، ورالف ليمكن، الذي صاغ كلمة "الإبادة الجماعية"، كمصدر للاقتباس ("إذا كان النساء، الأطفال والمسنين مقتولين على بعد مئة ميل من هنا..."). أود أن أشكر عمل فان ناث مع المخرج ريثي بان في فيلم "آلة قتل الخمير الحمر" كمصدر للحوار مع حراس سجن سابقين في "تول سلينج".

القرَّاء الذين يحبُّون بادي جاي، إيتا جيمس ومسرحية "انتيجون" لسوفوكليس قد يسمعون أصداء أغانيهم وشعرهم. " الحقيقة قديمة قدم الله.../ وسوف تصمد طالما هو باق، شريكة في الخلود" لإيميلي ديكنسون. لقد ألمحت إلى فكرة جين آميري في كتاب "عند حدود العقل". أخال أنها حنة أرنت أول من قالت: "سلطة أي حكومة تتوقَّف عند جلد مواطنيها"، وسيمون ويل التي كتبت عن الإلياذة: "القوَّة تحوِّل الشخص المذعن إلى شيء". كتب تزفيتان تودوروف في "مواجهة المنتهى: حياة أخلاقية في معسكرات الاعتقال": "ليس هناك بأية حال، من ضرورة للربط بين طريقتنا في سرد وقائع الماضي وكيفية استعمالنا له،

Twitter: @ketab_n

أي أن واجبنا الأخلاقي في إعادة بناء الماضي لا تعني أن كل استعمالاتنا له هي شرعية على حد سواء".

أود أن أشكر آخرين وهم: لين تشير، ديبي دي جروت، شوان أوكاي، ديفيد روس، إليزابيث شميتز، سالي ريردون، شيريل كارتر، بوليت بلانشيت، آن سيمبسون، ألكس ليفين، باربرا جاكمان، جانيس بلاكبورن، بيتر جاكوبسن، روري كومينجز، الكاهن الموقر بروس ماكلود؛ الراحلان مؤخراً الدكتور والسيدة ن.ك كامبل، إيان سمول، ميتشل أوسر، ليندا جابوريو ومركز بانف للآداب، مونيكا بيرستشي، جوزيفين ريجنارتز، مانفريد آلي، مركز الخمير البوذيين في أونتاريو، ليزلي وآلان نيكل، آدم وآن وينترتون، مادلين إكلين، بول إكلين، راندي وآن إكلين، مارك وجون إكلين.

إلى روس آبشور، امتنان صادق لنباهتك وحوارك، لمشاركتك معي يوميات الكتابة. إلى أوليفيا وسارة آبشور، شكراً لكما على الفرح اليومي. شكر خاص لساندرا كامبل على النقد البناء والإلهام على مدى سنوات. لقد رأيتِ هذه القصة في ألف ضوء.

إلى ديفيد دافيدار ونيكول وينستانلي، شكراً لكما على موهبتكما، خيالكما التحريري والمجازف. أنتما حقاً بخيال متوثب.

وشكراً لك أيتها المرأة التي لم أعرف اسمها أبداً. لقد كسرتِ الصمت في سوق بنوم بنه وطلبت مني أن أتذكر معك.

أتخيلنا في مكان يمكنه أن يغفر لنا جميعاً.

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

حوار مع المؤلفة

هل أقمت في كمبوديا فترة من الوقت سواء قبل أو في أثناء تأليف هذا الكتاب؟ كم استغرق منك البحث وقتاً؟ ما سبب استخدامك لعبارة "أخبر الآخرين" الواردة في الكتاب والمقتبسة عن "فان ناث" أحد الناجين من سجن "تول سلينج"؟

سافرت إلى كمبوديا لمدة قصيرة بصحبة فريق بحث طبي يعمل على برامج تلقيح الأطفال. تأثرت في أثناء زيارتي بالنصب التذكارية المتنوعة لهؤلاء الذين فُقِدوا في أثناء عهد الخمير الحمر، منذ ثلاثين عاماً تقريباً.

من متاحف كبيرة، مثل متحف "تول سلينج" في العاصمة بنوم بنه إلى لافتات صغيرة مكتوبة بخط اليد مسمَّرة على جذوع الأشجار في الريف، عبَّر الناس عن إرادة قوية لـ"لن ننسى". التقيت امرأة في السوق روت لي قصة فقدانها كامل أفراد عائلتها، وعندما قلت: «هل يمكنني المساعدة؟ ماذا في وسعي أن أفعل؟». كان جوابها: «لا شيء. فقط أردتك أن تعرفي».

قال فان ناث: «أخبر الآخرين»، ومن خلال تجربتي في كمبوديا علمت أن الكثير من الناس أرادوا أن تروى الحقيقة.

يبدو لي أن أمل الأفراد بالحرية والعدالة يوجد في الغالب مستقلاً عن أي نظام سياسي بعينه. في ظل نظام قمعي، سيقاوم الناس خفية إذا استطاعوا إلى ذلك سبيلاً. في ظل نظام أقل قمعاً، سيتحدَّثون. المحاكمات

Twitter: @ketab_n

الحالية في كمبوديا هي نتيجة للضغط العالمي وأيضاً الرغبة العلنية في هذه المحاكمات من قبل الكمبوديين مثل الفنان فان ناث، أو يوك تشانج، الذي لا يزال يعمل على جمع المعلومات لصالح "مركز التوثيق الكمبودي".

بالتأكيد، "المفقود" عمل أدبي، كل بلد فيه قصص عن الظلم وعن "مفقودين" بما في ذلك كندا، حيث نرى في الوقت الحالي المدارس الهندية الداخلية ولجنة تقصِّي الحقائق والمصالحة. العمل لحماية الحرية مستمر.

لا بُدَّ من أن التعمُّق في قصص الخمير الحمر كان صعباً. هل آلمك التفكير فيها أحياناً أو أحسست أنها كانت تستنزفك للغاية؟

روى لي كثير من الناس الذين تحدثت معهم عن "المفقود" قصصهم الشخصية أو عن نضالات عائلاتهم مع أنظمة قمعية. "متى" تتذكَّر و"كيف" سؤالان يحضران مراراً وتكراراً. هناك حكاية قديمة للأخوين جريم تدعى "العظام المُغنية"، وفيها تُنبش عظام رجل قتيل بعد سنوات طويلة، وعندما تهب فيها الريح تغني قصتها. في قصصنا القديمة نرى ضرورة الإيمان بظهور الحقيقة. حتى لو كانت مؤلمة.

لكن ردّاً على سؤالك: بعد الحرب العالمية الثانية، كتب الفيلسوف والموسيقي "تيودور أدورنو" مقولته الشهيرة: "إن مواصلة كتابة الشعر بعد أوشويتز لهو عمل بربري". بعد سنوات طويلة لطَّف قوله قائلاً إن: "المعاناة المستمرة لها الحقُّ في التعبير عنها كما للمعذَّب الحقُّ في الصراخ".

بدأ الكتَّاب التفاعل مع أحداث الحرب العالمية الثانية سريعاً جداً بعد نهاية الحرب، ومنهم "بول تسيلان" في قصيدته "متتالية الموت"، لكن في الكثير من الأحيان يستغرق نشر وترجمة هذه الكتابات سنوات. أظن قطعاً أن الشهادة الفنية على الوحشية تمنح الجناة تنبيهاً لا مبرر له. لكن أحياناً

Twitter: @ketab_n

تمر سنوات قبل أن يكون للناس القدرة على سماع القصص وهذا أمر في وسعي تفهمه.

هناك بعض الذكريات المكتوبة بشكل جميل ومدمر عن سنوات الخمير الحمر في كمبوديا، وأيضاً عروض رائعة ورقصات وموسيقى. لدينا قصص من الصين في ظل حكم ماو يسميها الصينيون "أدب النُّدبة" وذكريات وأدب من الأرجنتين وتشيلي تسمى "Testimonio" أي "الشهادات". لدينا في كندا العديد من اللجان التي تجمع القصص عن مجموعات عانت هنا، لا سيما في أثناء فترات الحروب.

لكل مجموعة مميزة قصتها المميزة. لكن يصلها جميعاً خيط مشترك هو الاعتقاد بأن الناس يؤكدون أنفسهم من خلال رواية القصص. القصص تُعلِّم وتُبهج. هي تسمح لكل من المتحدث والمستمع أن يصبحا أكثر وعياً، أن يعرف التاريخ، ويتأمل في مسائل أخلاقية وذات مغزى. نعم، عرض هذه القصص مؤلم.

اللغة دوماً مهمة في رواياتك. هل تعلمت الخميرية لتتفهمي شخصياتك وأجواء الكتاب بشكل أفضل؟

كان التحدي في هذا الكتاب العثور على لغة في وسعها أن تروي قصص الإبادة الجماعية وتعكس بشكل دقيق ثقافة الخمير. كتبت الكثير من المسودات، وكان لدي مستشارون جيدون جداً على الصعيدين الثقافي واللغوي في كمبوديا.

شعرت في أثناء الكتابة بعجز في اللغة. إلى أن قالت لي مترجمة رائعة ومرشدة هي ليندا جابوريو: «خذيني إلى مركز الظلمة، أرِيني ما هي». بعد ذلك، أعدت قراءة الشهادة عن هؤلاء الذين عانوا في الحرب أو الإبادة، ولاحظت أن أسلوب القص مشذبٌ للغاية. يقول الناس: "عُذِّبتُ"،

Twitter: @ketab_n

"اغتُصبت"، "رُميت في مقبرة جماعية واستطعت الخروج". هناك القليل من التزويق، ما من استعارات، وصف قليل خلف الرواية البسيطة للحدث. أردت أن يعكس أسلوبي هذا النوع من اللغة: مقتصد، أساسي. من هنا تبدأ اللغة، في كل اتصال مباشر بين شخصين. ثم لاحظت أن بعض أعظم قصائد الحب أيضاً تملك هذه الخاصية الأساسية المقتصدة. أقدم قصائد الحب المكتوبة في العالم، أغاني إنانا عن الحب من الحضارة السومرية: "حبيبي، عيناك جميلتان، وجهك حلو"، أو تلك التي من سفر نشيد الأنشاد: "أوه، ليقبلني بقبلات فمه"، وأيضاً كلمات الحب في الموسيقى المعاصرة أغنية "هي تحبك" للبيتلز، تستعمل لغة مباشرة وغير مزخرفة. يبدو أن أعمق تجاربنا والأكثر قوة تنتمي إلى مكان لا يمكن للغة الوصول إليه إلا بصعوبة. وعندما يكون الأمر هكذا، أظن أن الإيقاعات التي تضم كلمات الفرد سوية تصبح شديدة الأهمية.

الجزء الأول من الكتاب يكاد يُقرأ كرسالة حب إلى «سيري». معظم الناس لا يمكنهم سوى أن يحلموا بهذا الحب الذي تقاسمه «آن» و«سيري». هل تؤمنين حقاً بمثل هذا الحب الرومانسي المتعاظم، أو بأننا نتطلع إلى نكون مع شخص واحد فقط؟

أظن أننا نلتقي الكثير من الناس طوال أيام حياتنا الذين نشعر معهم أنه "مقدر لنا أن نكون معاً"، إذا كنا صرحاء. بطريقة ما، قدر لي أن ألتقي المرأة في سوق بنوم بنه التي شاركتني تجربتها، لكن ذلك اللقاء لم يحدث إلا بسبب عدد كبير من الناس الذين ألهمونا طوال أيام حياة كل واحدة منا، أن تتحدَّث هي بصراحة، وأن أصغي أنا بدوري. في لحظة المصادفة المقتضبة تلك، يمكن للمرء أن يقول إنه كان لقاء روحين.

يتحدَّث "سيري" في سياق رومانسي عندما يدعو آن بـ "قدره". لكن

Twitter: @ketab_n

ربما كانت كلماته أكثر تنبُّؤاً مما كان يدرك في لحظة الوقوع في الحب الجميلة. آن و"سيري" عاشقان قبل أن يعرف أي منهما أن مصيرهما المشترك سينتهي لتكون آن الشخص الوحيد في العالم الذي يعلم، ويروي أخيراً، قصة "سيري". بدونها كان ليُقتل وينسى. دونه لم تكن لتعرف الحب الذي لا ينشد أن يتبدل. إذاً القدر والذكرى تجاوزا الزمن وأصبحا مترابطين.

فقدت الكثير من الشخصيات أحباء في الحرب (أو في ظل ظروف مشابهة لظروف الحرب)، الأبرز من بينها "آن"، "سيري"، و"سوخا"، وتأذوا بسبب ذلك بشكل عميق. كيف تظنين أن بمقدور الفرد تجاوز التفجع الداخلي الذي مد جذوره عميقاً كما كان تفجعهم؟

هذا سؤال كبير. أعتقد أن الجواب مرتبط بكل شخص على حدة. ينضم "سيري" إلى حركة المعارضة، ينضم أخوه

"سوخا" إلى الجيش. تبحث آن عن حقيقة وضعها الخاص واضطرت إلى مواجهة الأسئلة الكونية التي نجدها في مسرحية "أنتيغون". كيف نعيش بين مصالح الدولة والفرد المتناقضة والمتضاربة غالباً؟ هل للدولة الحق في أن تنكر رغبة الفرد الإنسانية في تسمية وتكريم موتاه؟

للتحدث عن تجاوز الصدمة، سوف ألجأ إلى "جين آميري"، الناجي من أوشويتز ومؤلف كتاب "عند حدود العقل". كتب آميري: "أياً كان من خضع للتعذيب، فإنه لم يعد في وسعه أن يشعر بالانتماء إلى العالم". يكتب أنه لا يمكن استعادة الثقة، والمعذب يظل معذباً. لم "يتجاوز" أي من شخصيات قصتي الصدمة أو الخسارة أو الألم أو الخيانة. لهذا السبب، الرواية هي عن اللغة والذكرى. عن أن استعمالنا للغة هو خيار أخلاقي. هل نستعمل لغة البروباغندا التي تمحو إنسانية الآخر؟ هل نستعمل لغة

Twitter: @ketab_n

المقاومة رغبة في مواصلة كشف الحقيقة؟ كما يكتب كامو في كتابه "الإنسان المتمرد": «لغة التمرد تكشف جزءاً من الإنسان يجب دوماً أن يكون محمياً». هل نستعمل الذكرى لتسمية الموتى، لتذكر قصصهم، للعمل على إرساء العدالة؟

هل كان من الصعب إبقاء تركيز القصة على "آن" ووجهة نظرها، وعدم التعمق كثيراً في سياسات الحقبة الزمنية؟

بعد نظام بول بوت (1975-1979) وانسحاب الفيتناميين، فُوِّضت سلطة الأمم المتحدة الانتقالية لمراقبة حكومة كمبوديا ومحاولة خلق الظروف الملائمة لإجراء انتخابات ديمقراطية عام 1993. كان العمل شديد التعقيد. كان هناك مجاعة ومرض، أعداد هائلة من اللاجئين الذين يعيشون على الحدود. قتل أغلب المتعلمين في البلاد، والفنانين، والرهبان البوذيين. دمرت الطرقات والجسور، كانت الزراعة في حالة فوضى. كانت البلاد (ولا تزال) مزروعة بالألغام على نحو كبير.

كان هناك الكثير من الفصائل السياسية المختلفة التي استعملت العنف والقوة للوصول إلى السلطة. جيل أو أكثر من الشبان ممن أُبعدوا عن عائلاتهم وتم تلقينهم على يد الخمير الحمر، وأعداد كبيرة من الشبان، لم يعرفوا شيئاً سوى الحرب.

ما أردت أن أرويه هي قصة الشغب المعقد الذي يصاحب التبدل في الأنظمة السياسية: كيف يتطلب الدفاع عن الحرية والحقوق الفردية يقظة مستمرة (ومعارضة عندما تنحرف الأمور)، كيف تخلق الحكومات المتكتمة الظروف لتعطيل حقوق الإنسان. هذه ظروف نراها حول العالم، بما في ذلك الغرب. عندما يواجه مواطنون أبرياء من أمم ديمقراطية خطر تسليمهم إلى حكوماتهم وتعذيبهم، كما حصل للكندي "ماهر عرار"،

Twitter: @ketab_n

عندما يمكن أن تمارس القوى العسكرية التي تمثل أمماً ديمقراطية التعذيب في سجون مخفية، كما شهدنا جميعاً في سجن أبو غريب، حينها لا يمكننا أن نكون واثقين من هذا: حقوق الأفراد مسؤولية الجميع، ويجب على الناس في جميع أرجاء الكوكب أن يجدوا الشجاعة للتحدث ومقاومة حكوماتهم إذا كانت الحريات مشوهة أو مورثة. لكن "المفقود" هي رواية، قصة "آن". أردت أن تروى هذه القضايا من خلال قصة فرد وأن أجعل السياسات التفصيلية مضمنة في تلك القصة.

يدور هذا الكتاب وروايتاك السابقتان، "شتاء الفيل" و"ابنة داجمار"، حول شخصيات أنثوية قوية. هل ترين أي تشابهات فيما بينها؟

أحب هذه الشخصيات الأنثوية القوية. عندما أتحدث مع القراء أشعر بشهية كبيرة عند النساء لاستكشاف قوتهن وارتباطهن العاطفي على حد سواء، أمور لا تزال الثقافة السائدة تنحو إلى عدم احترامها. أحب رواية القصص عن نساء يتصرفن وفق عواطفهن.

هل يمكنك أن تخبرينا على ماذا تعملين الآن؟

أعمل حالياً على كتابين جديدين، أدبي وغير أدبي، يقدمان معاً بحثي حول "أدب الشهادة". أظن أن "إيلي ويسيل" المؤلف والناجي من الهولوكوست هو من كتب: "إذا كان الإغريق قد ابتكروا المأساة، والرومان الرسالة، والتنويريون السوناتا، فإن جيلنا ابتكر أدباً جديداً، وهو أدب الشهادات". هذه عبارة تبناها كتاب أمريكا الجنوبية مثل التشيلي آريل دورفمان. وهكذا، في هذا الكتاب غير الأدبي، أبحث في أمثلة أثرت فيَّ من أدب الشهادة -في لجان تقصي الحقائق، في المسرحيات والروايات- وأفكر في معانيها.

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

كيم إكلين

روائية ومترجمة ومحررة كندية، من مواليد 1955.

تحمل شهادة الدكتوراه في الأدب الإنكليزي.

صدرت لها عدة روايات منها "المفقود"، و"في ظل الحياة المرئية" و"شتاء الفيل".

رشحت لعدد من الجوائز الكندية والعالمية منها جائزة Scotiabank Giller Prize الأهم في كندا.

أماني لازر

مترجمة سورية من مدينة حمص.

خريجة كلية الحقوق في جامعة دمشق.

صدر لها عدة ترجمات منها:

اسأل الغبار" تأليف: جون فانتي. "أسرار" تأليف: كنوت هامسن. "جنوب بلا شمال" تأليف: تشارلز بوكوفسكي.

Twitter: @ketab_n

إصدارات دار ممدوح عدوان للنشر والتوزيع

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

- فقدت جميع أفراد عائلتي في أثناء حكم بول بوت..

لم أعرف ماذا أقول. صرخ طفل في الداخل، خلف الدرفات. سألتُ: «ماذا في وسعي أن أفعل؟».

أجابت: «أنا أريدك فقط أن تعرفي».

كان الناس في كل مكان يتضورون جوعاً ويحاولون أن يعودوا إلى بيوتهم ولو سيراً على الأقدام. كان الهدف فقط العودة إلى البيت. مات مليونا شخص. تخيلي أنك تمشين في شارعك في الوطن وكل جيرانك موتى.

هناك، تخوض آن رحلتها من كندا إلى كمبوديا خلف حبيبها المفقود في إحدى أحلك الفترات في كمبوديا، لتروي لنا مزيجاً من قصة عشق مجنون، وكفاح من أجل الحياة في ظل نظام قمعي.

تحاول آن أخبارنا رسالة كل المفقودين: "أخبر الآخرين بما حصل".

* نثر جريء منحوت ببراعة... جميل بلا شك... مع لحظات من توتر أصيل وقوة. **التلغراف.**

* عاتية ومؤثرة. **التايمز.**

* بالرغم من كل ما كُتب عن نظام بول بوت في كمبوديا، لا يزال ممكناً أن تصدم على نحو عميق بقصص عن مليوني شخص قضوا في ميادين القتل، حيث يختفي المعذبون ببساطة. كتبت إكلين قصة حب تكشف في تفصيل رهيب العواقب على أجيال من الكمبوديين الذين يعيشون في "السنة صفر"... رواية مليئة بالطموح. **الإندبندنت.**

ترجم هذا الكتاب بمساعدة صندوق منحة الترجمة المقدمة من معرض الشارقة الدولي للكتاب.

لوحة الغلاف للفنان عمران يونس

ISBN 978-9933-540-12-8

9 789933 540128

دار ممدوح عدوان للنشر والتوزيع